دُوسْتُويفسكي وَاللّٰه

مُختَارَاتٌ مِن أعمَالِهِ الرِّوائيَّة

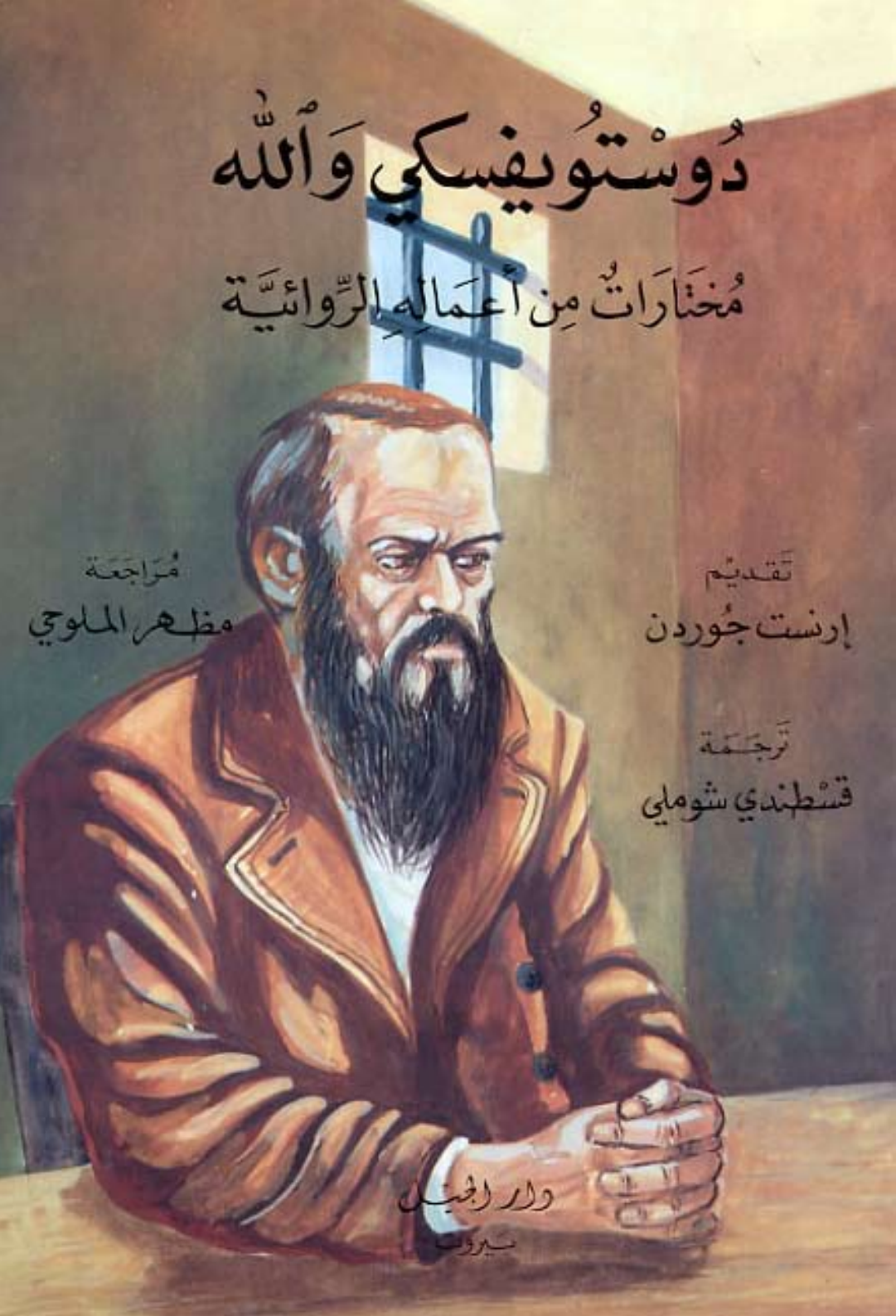

تقديم
إرنست جُوردن

ترجمة
قسْطنْدي شوملي

مُراجعة
مظهر الملوحي

دار الجيل
بيروت

دُوسْتُويفسكي وَٱللّٰه

مُختَارَاتٌ مِن أعمَالِهِ الرِّوائيَّة

تَقديم
إرنست جُوردن

تَرجَمَة
قسْطَندي شوملي

مُرَاجَعَة
مظهر الملوحي

دار الجيل
بيروت

حقوق الطبع لدار بلاو للنشر التابعة لمؤسسة الاخوة

فارمنجتون، بنسلفانيا

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الاولى ١٩٨٨

الطبعة الثانية ١٩٩١

الطبعة الثالثة ١٩٩٦

هذه طبعة جديدة باللغة العربية للمجلد ٢٠ من كتب المصادر عن الشهود المسيحيين عبر القرون، التي حررها ابرهارد ارنولد ونشرتها دار ابرهارد ارنولد للنشر في سانرز ولبيزغ. قام كارل نوتزل باعداد الملاحظات التي تأتي في مقدمة كل جزء بالاشتراك مع المحررين. وتنشر الصور التوضيحية التي احتوى عليها الكتاب بأذن من:

Fritz Eichenberg, Associated American Artists,
The Heritage Club and the Limited Editions Club.

وتمثل صورة الغلاف قطعة خشبية منقوشة لدوستويفسكي بقياس ٤ ـ ٧٠ر٢ بوصة، وهي من صنع فريتز ايخنبرج.

يتقدم المحررون بالامتنان والشكر لارنست جوردن وفيليب يونج وس. ترتر على مساعدتهم الهامة ونصائحهم القيمة.

معطيات النشر في كتالوج مكتبة الكونغرس

دوستويفسكي، فيودور، ١٨٢١ـ١٨٨٢

دوستويفسكي والانجيل The Gospel in Dostoyevsky

الملخص: تظهر مجموعة المقتطفات من كتابات دوستويفسكي افكاره الروحية، وهي تقسم الى مجموعات تحت عناوين مثلا: «تمرد الانسان على الله» و«الحياة في الله».

١ـ دوستويفسكي، فيودور، ١٨٢١ـ١٨٨١ـ ترجمات

٢ـ دوستويفسكي، فيودور، ١٨٢١ـ١٨٨١ـ الدين

٣ـ ايخنبرغ، فريتز، ١٩٠١، مصور. العنوان.

PG3326. A15 1988 891.73'3 86-30578
IBSN 0-87486-187-X (pbk.:alk.paper)

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٢٠ هـ ـ ٢٠٠٠م

عُنِيَ بطبعه وتوزيعه

دار الجيل

بيروت ـ لبنان

كلمة من جي اي باكر

يُعَدُّ دستويفسكي بالنسبة لي من أعظم كتّاب الرواية، وهو بصورة خاصة من أشهر الكتّاب الذين تناولوا الموضوعات المسيحية في رواياتهم في جميع العصور. تُمثل حبكته الروائية وشخصياته سمو الانسان وضلاله وحقارته وبؤسه بصورة دقيقة، وتصوّر الانسان البالغ الخاطئ بطريقة نمطية لا نجد مثيلا لها الا لدى اسكيلوس وشكسبير فقط. ونجد في رؤيته الدرامية لنعمة الله المدهشة وعذابات السيد المسيح وعذاباتنا من اجل الخلاص، العمق والمدى اللذين لم يقترب منهما الا دانتي وبانيان.

إن الإطار المباشر لمرجعية دوستويفسكي هو الارثوذكسية الشرقية والغليان الثقافي في روسيا في القرن التاسع عشر، ولكن موضوعه الثابت هو النموذج القلق للوجود غير المفتدى، ومجد التجسُّد المحزن، حيث تجد آلام البشرية كلها مكانا في حياة وموت السيّد المسيح، الفادي القائم من بين الاموات. وفي القِطع المختارة هنا، يصوّر دوستويفسكي لنا بخياله الواسع الشديد الحساسية، قدرة اللّه ورؤيا مؤلمة وفريدة من نوعها لمأساة انسانية. وإذا دفعتك للبكاء والتعبُّد فستكون خير مَنْ وَعَى هذه المأساة. وإن لم تفعل، فانها تظهر بأنك لا ترى ما تنظر اليه، وستكون حكيما اذا قرأت الكتاب مرة ثانية.

كلية ريجنت، فانكوفر

١٤ آذار ١٩٨٧

تقديم

قرأت رواية دوستويفسكي «الجريمة والعقاب» للمرة الاولى، عندما كنت صغيراً، مثل الكثيرين من أبناء هذا الجيل. قرأتها بشوق وإثارة كبيرين. وعندما قرأت أعمال دوستويفسكي الاخرى فيما بعد، خصوصاً روايته الرائعه «الأخوة كارامازوف»، أدركت أنه لم يكن مجرّد كاتب يمتلك موهبة رائعة في سرد القصص، وإنما يملك بصيرة خاصة، عن ماهية الحياة، وعلاقة الانسان بخالقه، مما يجعل منه صوتاً نبوياً يتفحص وينير المستقبل. لقد تبيّن لي بأن الموضوع الاساس لجميع كتاباته هو الخير والشر، وهما العنصران اللذان تدور حولهما دراما وجودنا الفاني.

كان دوستويفسكي رجلاً مأخوذاً باللّه، اذ لم يكن هناك رجل مثله، ويتضح ذلك في جميع كتاباته والشخصيات التي ابتكرها. وكان طيلة حياته يبحث عن اللّه، ووجده في آخر أيامه فقط، بعد أن اجتاز عبر ما سمّاه «نار جحيم الشك». ووجد بان حرية الاختيار بين الخير والشر هي جوهر الوجود الارضي. «إقبل المعاناة، ويتم فداؤك بها» ـ كانت هذه هي رسالة دوستويفسكي الى عالم يسرع مسعوراً في الاتجاه المعاكس، باحثاً عن طريقة لازالة المعاناة والعثور على السعادة. ولم يعرف العالم منذ عصر دوستويفسكي إلا العديد من المشاكل، والقليل من السعادة، ولهذا يمكن أن يكون القراء أكثر ميلا للاستماع اليه.

كان دوستويفسكي يبتعد بقدر الامكان عن المتاحف وقاعات الفن، ولكنه قام بزيارة خاصة الى متحف الفن في بازل، ليرى لوحة «يسوع منزلا عن الصليب» للفنان هانز هوبلاين الاصغر. كان قد سمع عن هذه اللوحة، وكان ما سمعه عنها

قد ترك فيه انطباعاً كبيراً. ووصفت زوجته «آنا» في مفكرتها رد فعل دوستويفسكي عندما رأى اللوحة الاصلية كما يلي:

«طغت اللوحة على فيودور ميخائيلوفتش وتوقّف أمامها كأنه مصاب بشيء... وظهرت على وجهه المهتاج تعابير الخوف التي كنت أشاهدها غالبا أثناء اللحظات الاولى من نوبة صرع. أخذت يد زوجي بهدوء، وقدته الى غرفة أخرى، وأجلسته على مقعد متوقعاً أن يصاب بنوبة صرع في أي دقيقة. ولم تأتِ النوبة لحسن الحظ. ورويداً رويداً عاد الهدوء إليه. وأصرّ عند مغادرتنا أن يُلقي نظرة ثانية على اللوحة التي تركت مثل هذا الاثر عليه».

شعرت «آنا» برد فعل سلبي من اللوحة. وكتبت تقول «بان المسيح قد صُوّر فيها بجسم هزيل على عكس التقاليد. فقد برزت أضلاعه وعظامه، وثُقبت يداه، وانفتحت قدماه بالجراح، وكانت منتفخة وشديدة الزرقة كالجثة التي تبدأ بالانحلال. وكان العذاب والالم يبدوان على وجهه، وكانت عيناه نصف مفتوحتين دون تعبير أو قدرة على الرؤية. وقد تحوّل الانف والفم والذقن الى اللون الازرق.»

إن السبب في الذعر الذي أصاب «آنا» هو أن لوحة هويلاين تُظهر جسد المسيح في حالة انحلال. وكان سحر اللوحة بالنسبة لدوستويفسكي في أنها تُظهر جسد المسيح الآخذ بالانحلال ببطء. واذا لم يكن جسمه معرضاً للانحلال كالاجسام الاخرى، تصبح التضحية على الصليب عديمة المعنى تماماً. كان على المسيح أن يكون رجلا كالآخرين ليموت من أجل البشر، وبكلمات أخرى أصبح الله بالتجسد إنسانا بالحقيقة.

كان دوستويفسكي شخصية نبوية حقًّا، يذهب الى الاعماق، مسحوراً بمملكة الجحيم الموجودة على الارض، حتى يصل الى الجلجلة. وكان له بصيرة عظيمة في المستقبل. وقد رأى مُسبقاً الاحداث التي تجري في عالمنا اليوم. وأعلن أيضا عن حلول الاخوّة العالمية التي لا تجلبها الاشتراكية أو الثورة وإنما بالانتشار الكامل لرسالة عيسى المسيح.

وقد عبّر دوستويفسكي في سنواته الاخيرة، وفي الظروف الاكثر هدوءاً، عن حبه الجوهري للحياة وفرحه بكل خلائق الله بصورة أكثر وضوحا من قبل. فهو يجعل ديمتري كارامازوف يقول: «ليس الجمال شيئا فظيعاً وحسب، وإنما غامض أيضا. فهناك الله والشيطان يتصارعان على السيادة وأرض المعركة هي قلب الانسان.»

وإني ما زلت أشعر بدهشة كبيرة لانتشار الاعمال الادبية لأحد أعظم الكتّاب المسيحيين في أكثر دولة في العالم تتمسك بالإلحاد بقوة، حيث يعرض دوستويفسكي موضوع الخطيئة والالم والفداء بصورة أخاذة. ولو سُئل شخص اليوم أن يذكر كتاباً يمكن أن يعطي لغير المؤمن فكرة واضحة عن ماهية المسيحية، فهل يستطيع المرء أن يأمل بأن يقوم بذلك كتاب أفضل من «الاخوة كارامازوف؟»

مالكوم ماجبريدج

مقدمة

يبدأ هذا الكتاب الذي يحتوي على مقتطفات من كتابات دوستويفسكي بصورة موفقة بأسطورة «المحقق العظيم» من رواية «الاخوة كارامازوف». وهي أروع القصص التي وردت في رواياته ومقالاته. وهي تشبه الامثال التي رواها عيسى المسيح. وهي تقدّم للقارئ صورة واضحة وعملية للحقيقة الكونية التي لا يمكن أن توصف بطريقة اخرى. إن اسطورة «المحقق العظيم» هي مثل ممتاز للوجود الانساني. إنها تُبرز القضايا العظيمة او الملعونة التي تُظهر حب دوستويفسكي للانجيل الحي. ومن خلال الانجيل فقط يصبح الوجود الانساني المعقد مفهوما، له هدف وأمل. وبدونه تفقد الدورة اليومية في الحياة الانسانية معناها.

يتوقّع المرء أن يقوم برواية الاسطورة شخص مؤمن، إلا أن الامر ليس كذلك. فإن هذه القصيدة المنثورة يؤلفها إيفان كارامازوف (ص ٥٧)، الاخ العقلاني وصاحب العقلية «الاقليدية». وهو كالمؤمن منشغل عاطفيا بالانجيل، ولكن يرفضه لأنه لا يتفق مع منطقه او مطالبته «بالعدالة» . إنه لا يستطيع أن يفهم لماذا رُتّب العالم بهذه الصورة. إن الشيء الوحيد المنطقي المتروك له أن يعمله هو أن يعيد الامر الى الوجود. ولكن لمن يعيد سبب الوجود؟ «وهكذا عليّ أن أُسرع لاعادة تذكرة دخولي، واذا كنت شخصا امينا فأنا مقيّد بارجاعها في أقرب فرصة ممكنة. وهذا ما سأقوم به. ليس الله هو الذي لا اقبله، يا اليوشا فقط، أنا أعيد له بكل احترام التذكرة.» وهكذا فإن فكرة الله هي جوهرية حتى لشخص يحاول عاطفيا أن ينكره.

إن اليوشا، الاخ المؤمن، يفهم هذا الموقف المؤلم ويُعدُّه ثورة غير المؤمن الذي يُحبُّ أن يحصل على «العدالة». واذا كان لا يستطيع الحصول عليها، فليس له منفذ سوى تدمير نفسه. وفي تحليل موقف اخيه يصف اليوشا الانسان بعد السقوط، في ثورته على اللّه، والانسان الذي يريد أن يكون مثل اللّه. وهكذا فان الخطيئة ليست سلبية وإنما فاعلة، لا تتمثل ببساطة في الفشل في إطاعة أمر اللّه، ولكنها رفض مقصود للطاعة، وعمل تحدٍّ.

وفي روايته اسطورة «المحقق العظيم» يروي ايفان قصته هو نفسه. إنه يثور على نظام اللّه في الخليقة ويُنكر جدوى فداء المسيح. ويرفض عقله الاقليدي حقيقة اللّه والانسان والطبيعة، لأنها لا ترقى الى مقياسه للعدالة. وبالرغم من أنه يتعذب لمعاناة الاطفال الابرياء فإنه يفعل ذلك، ليس بدافع حبه لهم، وإنما بسبب عدم عدالتها. ويعترف: «لم اقدر أن افهم ابداً كيف لا يستطيع الواحد أن يُحب جيرانه بالرغم من أنه يمكن أن يحب الناس عن بعد.» يستطيع المرء أن يُحبّ جيرانه بصورة مجردة. هكذا هو موقف المحقق العظيم.

ومن اجل محبته للانسانية فقد تكبّد أعباء الحرّية من اجلها، وهي حرية كبيرة جداً، يعجز الناس عن تحملها. وفي تكبده لهذا العبء فقد اختار طريق التجارب الثلاث التي رفضها يسوع من اجل الحرية. وهكذا فهو يقول ليسوع: «لقد اكملنا اخيراً العمل باسمك. . .الناس اليوم مقتنعون أكثر من اي وقت مضى، بأن لديهم الحرية الكاملة، ولكنهم جاءوا بحريتهم الينا ووضعوها بتواضع على اقدامنا.»

إن الحرية التي يشير اليها المحقق العظيم، هي حرية وهمية، وهي في أحسن الاحوال مجرد فكرة ليست أكثر من ذلك. ولهذا فإنه يعتقد بأنه على حق في اعطاء الجماهير الخبز مقابل روحها. وأن سر ايديولوجيته يحل محل السر الالهي. وبواسطتها يفترض الناس بأن العبودية التي فرضتها قوة «سيف القيصر» هي الحرية التي ينشدونها في الحقيقة.

وهكذا تنعكس السخرية المأساوية لوضع إيفان في صورة المحقق العظيم.

كلاهما يفهم سر الانجيل كسر الحرية الإلهية البشرية، ولكنهما لا يستطيعان قبولها. إنهما في عبودية . وفي رفضهما للخلاص المقدّم لهما في الإله الإنسان، فقد اختارا أن يكونا الانسان ـ الإله، الإنسان الذي يحكم برج بابل، أو اي طغيان في اي وقت وفي اي زمان. وتنتهي الاسطورة بهذه الملاحظة. ويسوع الذي شجبه المحقق العظيم، يقبّل «شفتيه الهرمتين الخاليتين من الدم» و«تتوهج القبلة في قلبه، ولكن الرجل المسن يتمسك بفكرته». ومن اجل فكرته يشجب يسوع «الكلمة» التي صارت جسداً. ويتركه حب تفكيره الاقليدي بلا بديل.

يثير دوستويفسكي السؤال حول الانجيل: ما هو؟ والجواب هو أنه الأخبار السارة عن خلاصنا. إنه التأكيد العظيم للقدّيس بولس في رسالته الى أهل غلاطية (٥ : ١): «الصوت المنتصر للحرية التي تحققت لنا في المسيح وبه». «ومن اجل الحرية فقد حررنا المسيح». وليست هذه مجرد فكرة اخترعها الدارسون. انها عمل اللّه المكلِف من اجل حريته. ولهذه الحرية نتائج مخيفة. إنها تعطينا الحرية في تحدي اللّه الحي الذي خلقنا. وإن ما نسميه بالسقوط في الخطيئة هو عمل الحرية، ولكنها حرية سلبية. إنها عمل ثورة. هذا هو حالنا بدون اللّه ـ ثوار تدفعهم الكبرياء لأخذ ما يتخيلون بأنه قوة اللّه على الآخرين. ندّعي الحرية لعمل الخطيئة، ولكننا لا نريد تحمُّل نتائج ذلك. نذهب الى الشيطان من اجل الحصول على تبرير كما فعل المحقق العظيم (او ايفان). إن ذلك من اختراعهم ومبرّر لثورتهم. وهذه هي كلمات المحقق العظيم: «الروح الحكيمة والمخيفة، روح تدمير الذات وعدم الوجود، الروح العظيمة تكلمت معك يا يسوع في البرية». وبالنسبة له ولايفان فإن المعجزة ليست رفض ربنا للتجارب الثلاث، ولكن في اختراعهن والمحافظة عليهن. هن «مجمل التاريخ المستقبلي للعالم والإنسانية»، يمثلن اختيار الكبرياء البشرية، والخطيئة الاصلية.

وبالرغم من أن الإنسانية قد اختارت أن تتمرد على اللّه، فإن اللّه لم يتمرد عليها وعلى كل افرادها. ولن يسمح حبه لهم بالذهاب. ويقدّم «ايفان مكار» هذه

الحقيقة بقوله: «سأكون خائفا حقا اذا صادفت رجلا لا يخاف اللّه... ولم ألتقِ في الواقع برجل مثل هذا. والذين التقيت بهم قلقون، وهذا في الحقيقة ما يجب تسميتهم به... إنهم يأتون من جميع الطبقات حتى من ادناها... ولكن الأمر كلّه قلق»، ويصف هذا القلق وضع جميع هؤلاء الذين عادوا ليكونوا حجاجا على الطريق الى المدينة الابدية، ولكنهم ضلوا طريقهم، لأنهم لم يعرفوا مكانهم المقصود. لذلك قد تخلوا عن ميراثهم وفقدوا مصيرهم مثل الابن الشاطر. ولكن اللّه موجود هناك! لقد صنعنا من اجله!

يبدو أن دوستويفسكي يشير الى أن الإنسان لا قيمة له بدون اللّه. إن خلفية كتاباته هي علمانية القرن التاسع عشر. لقد تفوقت حركة «التنوير» على الاصلاح في التأكيد على الفكرة القائلة بأن الكون موجود بدون اللّه، وفيها تكون الدولة هي السلطة العليا، ويفقد رعاياها كرامة الصورة الالهية. كان «اريك فروم» مصيباً عندما قال: «إن المفكّرين تخلّصوا من اللّه في القرن الثامن عشر ومن الإنسان في القرن التاسع عشر. ولكن دوستويفسكي يذكّرنا بأنه لا يمكن تدمير اللّه والإنسان بهذه الفكرة. وربما يكون الأب المسن كارامازوف الذي يمثل الخطيئة الجماعية لروسيا، وستافروجين في رواية «المسكون» وهو المتمرد والثائر من الجيل الثاني، أكثر الثائرين ظلاماً. ومثل لينين وخلفائه فقد توصّل الى الموقف الذي يُفترض أنه بدون اللّه تصبح كل الاشياء ـ كالإرهاب والقتل ـ مسموحة. ويصف زوسيما الأكبر مثل هذا الوضع بالجحيم، ويطرح السؤال التالي: «ما هو الجحيم؟» ويجيب بأنه: «المعاناة الناتجة عن عدم القدرة على الحب»، وهذه هي النتيجة المرعبة للحرية التي حصلنا عليها نتيجة نفي وجود اللّه ومعه اصلنا ومصيرنا.

وفي المقابل فإن الحرية الخلاّقة هي من عمل «النعمة». إن الإنجيل هو شهادة للواحد الاحد الذي كان والذي هو حر حقا. ومثل الفلاحين الاتقياء فقد رأى دوستويفسكي أن التواضع الذي تمثّله اللّه في يسوع كما يصفه القديس بولس في الرسالة الى اهل فيليبي (٢: ٥ـ١١) هو جوهر الانجيل. وأن هذا التواضع،

كأساس يقوم عليه الإنجيل، هو مرحلة من مراحل المجد الالهي الذي يشملنا. وفي هذا الصدد فإن تعاليم ايريناوس في القرن الثاني الميلادي كان لها تأثير عظيم على الحياة الروحية للكنيسة الارثوذكسية الروسية. وهذه التعاليم هي مناسبة اليوم أكثر من اي وقت مضى: اي أن اللّه قد أصبح إنساناً، ويستطيع الإنسان أن يكون واحداً مع اللّه.

وفي رواية «الجريمة والعقاب» يروي دوستويفسكي قصة راسكولنيكوف الذي يعتقد بأنه قد تحرر من الأخلاق القديمة للثقافة المسيحية، الى حد يشعر فيه بالحرية في قتل امرأة، لأنه يعتبرها عضواً عديم الفائدة في المجتمع. وتبدو جريمته بلا هدف وبدون عاطفة. إنه واحد من هؤلاء الذين يفتخرون بعدم قدرتهم على الحب. ولكن النعمة تشمله فيما بعد من خلال حبه لسونيا، وهي النموذج الروسي لمريم المجدلية. فهو يرى فيها «نوعاً من الشفقة التي لا يمكن اشباعها» مما يقوده الى اول فعل ندامة . وبينما لا يزال يعتقد بحريته بعيداً عن اللّه، فهو يلتفت اليها وينحني ويسقط ارضاً ويقبّل قدمها . ويزيد هذا العمل غير العقلاني من ارتباكه الى حد أنه يحاول طردها على اعتبار أنها مصابة بـ«الجنون الديني». وبالرغم من ذلك يطلب منها أن تقرأ له معجزة إقامة اليعازر. وتفعل ذلك بصورة يظهر من خلالها أن قراءتها للمعجزة هو اعترافها الكبير: «نعم يا رب: انا أومن أنك المسيح ابن الله الآتي الى العالم»، وبإيمانها فإن قوة النعمة التي اخرجت اليعازر من القبر تتكرر في تجربة راسكولنيكوف. وتصبح لديه الثقه أنه بواسطة هذه النعمة سيغفر له يوم الدينونة الاخيرة. وهكذا يتحرر من عبودية الخطيئة والذنب والخوف.

وكما أن سونيا المرأة الذليلة هي عامل فداء راسكولنيكوف، فإن شعب روسيا الذليل سيكون عامل خلاصه من تبعات خطيئة مفكري القرن التاسع عشر، وهذه نبوءة يمكن أن تكون قد بدأت تتحقق في هذه اللحظة، «ولكن اللّه سيخلّص روسيا كما خلصها عدة مرات. سيأتي الخلاص من الشعب، من ايمانه وضعفه». إن هؤلاء الذين يشاركون في المعاناة، يشاركون في عمل تحرير للّه الحي. وتفتح

النعمة عيون ايمانهم بحيث يشاهدون سر الصلب كما ظهر في عذاب المسيح على الصليب. وسوف يدركون ما لا يدركه المفكرون، إن خلاصهم هو فوق المعرفة العقلية. إنه الخلاص بالايمان، الايمان بتجلي الله في المسيح.

ومن المفيد في هذا المجال أن نذكر شخصيات دوستويفسكي التي تتمتع بالحرية، وثلاثة منها على وجه الخصوص وهم:

١ ـ **الرجل الخفي**: وهو يشبه النملة التي تعيش تحت الارض الخشبية، وهو يجرؤ أن يكون حراً بغض النظر عن احتمال كون هذا الادعاء غير عقلاني. وبالرغم من الهيكلية العقلانية للمجتمع، ومحاولة إلغاء الحرية الانسانية، فهو يرفض أن يكون مفتاحا في جهاز الأرغن، بحيث يمكن سحبه وضغطه بأمر من عازف أرغن ممتاز. هو حر أن يكون أحمق وأن يتحدّى النظام.

٢ ـ **الأمير مايشكين** في رواية «الأبله»: هو الارستقراطي الذي لا يقيم وزناً للوضع الممنوح له بالميلاد والثروة، وإنما يأخذ مكانه بين الناس عن طريق الحرية، فيختار أن يكون أحمق بأعين نظرائه لاجل المسيح، وهويته هي مع المسيح المتواضع. وبناءً عليه فهو مدعو للانشغال بأعمال يسوع الخلاصية. ويحاول في حبه لناستاسيا فيليبوفنا أن يجلب خلاص المسيح لها بالرغم من كونها مجنونة. ويعكس بعمله هذا صورة المسيح ـ ويجلب على نفسه بهذا، غضب منتقديه الذين يسيئون اليه ويحتقرونه، ولكنهم يحبُّونه في داخل نفوسهم كاللص التائب على الصليب، الذي التفت الى يسوع متوسلا منه الخلاص. وفي وصفه لشهادة الامير، يبدو أن دوستويفسكي يستمد من صورة المسيح المتألم في اشعيا (٥٢: ١٣ ـ ٥٣: ١٢). وهكذا فإن الامير مايشكين يملك الحرية لكي يتألم. هذا هو الصليب الذي قبله.

٣ ـ **اليوشا الحاج والتلميذ** الذي يتعلّم أنه بالندامة نشترك في فوائد خلاص المسيح، ونكون احراراً لكي نُحب وأن نصبح مسؤولين. تجذبه النعمة مثل

راسكولنيكوف، ليست نتيجة لعمله او حتى طلبه. إن الخلاص هو حدث فوق سيطرة الكنيسة او الدولة. إنها نشوة الاستجابة لرياح اللّه التي تهب حيث تشاء.

إن معجزة النعمة في حياة اليوشا ترتبط بمعجزة المسيح الاولى في حفلة عرس قانا الجليل. وبرواية هذه المعجزة يدرك اليوشا أن المسيح يزور الناس في افراحهم ليضاعف سرورهم. ومرة ثانية فإن المتواضعين هم الذين يملكون السرور ليستجيبوا بنشوةٍ الى فرح اللّه.

إن زوسيما الاكبر الذي يعكس نعمة يسوع، يقود اليوشا الى حضوره، وبواسطته دعي للمشاركة في فرح الاحتفال. وهكذا فإنه يتصور في حلمه أن زوسيما الاكبر الميت هو حي في قوة القيامة. وإنه مدعو الى هذه الحياة الابدية، فيما يأخذه زوسيما الاكبر بيده ليرفعه من على ركبتيه . وبينما كان ينهض سمع المرشد الروحي يقول: «نحن نشرب الخمرة الجديدة، خمرة السرور الجديد العظيم».

وينكشف السر فجأة، وتمتلئ روحه بالغبطة ويلقي بنشوة بنفسه على الارض ويقبّلها ويبلّلها بدموعه. وبهذا العمل الذي لا مثيل له «سقط على الارض ولداً ضعيفاً ولكنه نهض بطلاً ذا تصميم...» «فقد زار روحي شخص ما في تلك اللحظة» (ص ٢١٥). كم يشبه هذا تواضع ورفعة راسكولنيكوف.

ولا يبلل اليوشا الارض بدموعه ويحب النجوم فحسب، وإنما يتحمل مسؤولية «خطايا جميع الناس». ويتمم بعمل الحب هذا هدف حريته ويشارك في العمل الخلاصي المستمر للّه. ويتعلم عن طريق هذا الحب أن «يدرك السر الالهي في الاشياء»(ص ٢٤٦). وإن هذه الدعوة الحارة من قبل زوسيما هي قصيدة مؤثرة مدهشة. وبحب كهذا يمكننا أن نفهم بشكل أفضل تطويب الودعاء الذين يرثون الارض.

إن اليوشا يمثّل المسيحي الذي يستجيب للانجيل الحي عن طريق الحرية.

ويقبل باستجابته بحرية المسؤولية عن خطايا وخلاص رفاقه الخطأة. وهو يحب من خلال حب المسيح. وبحب كهذا يتغلب على إدانة الدينونة الاخيرة ويفهم سر التجلّي. ونرى وراء هذا الموقف الاخبار السارة كما وردت في انجيل يوحنا (٣: ١٦): احب اللّه، فأعطى ابنه، وهو يعطي الحياة الابدية، ويحررنا من عبودية الخطيئة. ومعها شهادة القديس يوحنا في الفصل الرابع لرسالته الاولى: «اللّه محبة... لا يوجد مجال للخوف في المحبة، لأن المحبة الكاملة تطرد الخوف.. نحن نحب لأنه احبنا اولاً.» وهكذا فان حب دوستويفسكي للانجيل واضح تماماً في كتاباته، ويعكس اليوشا في حجّه الى مدينة اللّه، الملكوت الذي ليس من هذا العالم.

إن ايمان دوستويفسكي «هوشعنا» قد تم طرقه على سندان الشك. ولا يعني الشك الجهل او إنكار الإنجيل، وإنما اختبار صدق الإنجيل. ويروي في «يوميات كاتب»، إنه ترعرع في عائلة روسية ورعة، وتعلم الإنجيل «في المهد» تقريبا. وكانت مثل هذه النشأة غير عادية بين المفكرين الروس في ذلك الوقت. لم يكن اهتمامهم يتركز على الكنيسة والتقاليد التي تمثلها، وإنما على الفلسفات المثيرة والجديدة ظاهريا لحركة التنوير. وكانت النظريات العقلانية والرومانسية، والوضعية والانسانية، والعدمية والفوضوية والشيوعية غذاء رئيسيا على موائد المفكرين الارستقراطيين. ويؤكد البعض أن مأساة روسيا هي أنها لم تتأثر ابداً بالتأثير الحضاري لعصر النهضة. لا اعتقد بأن هذا صحيح. فقد تأثر المناخ الفكري لروسيا منذ زمن بطرس الأكبر بالافكار التي انتشرت في فترة ما بعد عصر النهضة في الغرب. وقد عبّرت أفكار القرن التاسع عشر عن رفض المسيحية ومبادئها الاخلاقية التي ساهمت في تطوُّر الديمقراطية الغربية. كان هذا هو الجو الفكري الذي عاش فيه دوستويفسكي في صراعه مع الايمان.

وتكشف كتاباته بأنه قد تذكر الشيء الكثير من تعليمه المسيحي المبكر. وقد ترك سفر أيوب انطباعاً واضحاً عليه. إنه قصة الرجل البار الذي تألم، وشارك عبر

ألمه في حوار شخصي مع اللّه الحي. وكان هذا يُعد في الماضي «هرطقة» فتحول في الحقيقة الى لقاء مع اللّه وجهاً لوجه. وعندما رأى ايوب اللّه فقد تاب بتواضع وتخلّى عن حياته السابقة الصالحة في الظاهر الى صلاح حقيقي، من خلال العمل الذي منحه له اللّه. وتوجد اشارة الى هذه التجربة الروحية من خلال المرشد الروحي زوسيما الذي عبَّر عن افتتانه بأيوب في سن الثامنة.

إضافة الى التعاليم التي وردت في الانجيل، هناك تعاليم وردت مصاحبة لقصص القديسين. والقصة التي تركت انطباعاً عميقاً في نفسه، هي قصة قديس روسي في القرن الرابع عشر اسمه سيرجي. عاش كناسك في الغابة، وكان يقتات يومياً بقطعة خبز. وصادف يوماً ما دباً كبيراً على مدخل كوخه. وبدلاً من أن يهرب، صادق القديس الدب وشاركه في زاده القليل. وبعد ذلك اخذ يزوره الدب يومياً. ويشير دوستويفسكي الى هذه القصة في رواية «الاخوة كارامازوف». ويظهر تأثير هذه القصة بصورة واضحة في قصيدة الحب العظيمة للمرشد الروحي زوسيما: «احبب كل مخلوقات اللّه... احبب الحيوانات، احبب النباتات، احبب كل شيء.»

ومن المؤثرات الاخرى في كتاباته نلاحظ أثر الرهبان واديرتهم. فقد اعتبرهم دوستويفسكي تعبيراً نقياً عن الحياة الروحية. فقد تركوا شهوات الجسد ومظاهر القوة الزمنية ليكونوا مع اللّه، وبالقرب من الفقراء والمنبوذين، لخدمتهم بالمحبة كما فعل يسوع. والصورة التي يعطينا اياها دوستويفسكي للمسيحي المثالي هي صورة زوسيما، الذي كان ذات مرّة عبداً للكبرياء، فضرب بلا رحمة خادمه في الجيش. وشارك في الحياة الروحية الجديدة عن طريق التوبة، وطلب بمنتهى التواضع المغفرة من الفلاح الذي اساء اليه.

ويمكن أن تمثل روايته «الناس الفقراء» التي نشرت عام ١٨٤٦، الفترة التي تحوّل فيها من مسيحي تقليدي الى اشتراكي راديكالي وملحد. وقد كان صديقا لبيلينسكي، فمدح كتابه على أنه عمل ادبي عظيم. وقد اعتبر المفكرون

الراديكاليون بيلينسكي في تلك الفترة مثلا بطولياً لهم . وقد اختار دوستويفسكي في اتباعه لقيادة بيلينسكي، الطريق التي أدت الى اعتقاله والحكم عليه بالموت عام ١٨٤٩ . وفي لحظة الاعدام تم تأجيل تنفيذ الحكم فيه، ويمكننا أن نتخيل كم كانت تلك التجربة مخيفة. إنها تمثل التحول من هاوٍ للفكر يلعب بالافكار مثل البطل الاغريقي ـ الإله الذي أصبح خاطئا بانشغاله بالخطأة. ويقدّم لنا وصفاً لهذه اللحظة المرعبة في روايته «الأبله»، عندما يصف مشهد جماهير الناس التي اتت لتشهد الاعدام، وشعور الضحية بالوحدة. ويراقب المتفرّجون الكاهن وهو يمسك بالصليب ليقبّله الضحية «بشفتيه الزرقاوين».

وبعد هذا الارجاء لحكم الاعدام أمضى أربع سنوات من الاشغال الشاقة ثم خمس سنوات من النفي في سيبيريا. وقد أصيب باذلال كبير في تلك السنين. وتسرد روايته المؤثرة جداً «بيت الاموات» والتي كتبها في يومياته، قصة معاناته واكتئابه. كانت «كالدفن الحي» بالنسبة له. وكانت ايضاً وقت صلبه وقيامته. ودفعت امرأة بنسخة من العهد الجديد الى يده وهو في طريقه الى السجن. وزوّده هذا بالوسيلة المناسبة للدخول والسكن في آلام يسوع ومجده. وكانت المعاناة هي درب الآلام الذي سار فيه حتى بعد رجوعه من المنفى في سيبيريا. كان نصيبه المرض، والفقر، والديون والارهاق في العمل. ولكن ثمار آلامه كانت انجازاته الادبية. وأرغم بسبب ديونه على أن يصبح منفياً مرة ثانية. واثناء هذا النفي كتب روايتي «الأبله» و«المسكون».

وبالاضافة الى كونها وصفا للانحدار الذي وصل اليه، فإن رواية «بيت الاموات» هو تعبير مجازي عن الوجود الانساني، يشبه ذلك الذي استعمله باسكال من قبل: اي أننا جميعا مطروحون في زنزانة الموت، وأننا نختبر يوميا موتنا في الموت الآخر. ويمكن اعتبار هذا المجاز أساس الوجودية المسيحية. ومقولة ديكارت الشهيرة: Cogito ergu sum (انا افكر اذاً انا موجود) تفترض بأن العقل يسبق الوجود. وهذه المقدمة المنطقية المغلوطه اغلقت الفكر الغابي لايفان كارامازوف

الذي كان يؤمن بأولوية الوجود. ولكن الخطيئة ليست نوعاً من الفشل في التكيُّف مع الظروف، أو إنها فكرة غير صحيحة. إنها الحقيقة الرئيسة للوضع الإنساني. وكانت هذه الحقيقة هي التي حوّلت دوستويفسكي من بيلينسكي ونظرياته الثورية العدمية الى المسيح وانجيله. إن رواية «المسكون» (او الشياطين) تصوّر الانحدار من الاشتراكية الطوباوية الى الحفرة السوداء العمياء للتمرُّد الشيطاني. وهي ايضاً نبوءة عن مستقبل روسيا حيث تستسلم لاغراءات الخبز والقوة، وتسلّم روحها الى المحقق الكبير.

إن الطبيعة المخيفة للشر، او تمرُّدنا على اللّه، الذي رسمه دوستويفسكي بشكل ينبض بالحياة سبّبت الازعاج الكبير لنقاده. وحكم عليه الكثيرون بأنه مضطرب ومريض ومفتون بإفراط في يأس الاكتئاب. وهذا النقد في جوهره هو انعكاسٌ للعقل الاقليدي. إن الرؤيا الرومنسية لعالم طوباوي يحكمه «الفلاسفة الملوك، أصحاب فكر عصر التنوير، هي تلك التي تتجاهل وجودنا الحاضر». ونادراً ما تكون مثل هذه الطوباويات أكثر من امتدادات المكان والزمان الحاضرين، وتصبح مثالية لتتوافق مع احكامنا. وبكلمات أخرى يتم تكوينها من الواقع المعاش ومن تلك المظالم التي نريد تصحيحها. ومثل لهذا هو تحليل فرُويد لدوستويفسكي حيث يتهمه بتشويه سمعة الاخلاق بالقاء شخصياته في حفرة الشر، وتمجيدهم بعد ذلك، الى ذرى الامتياز الاخلاقي كما في حالة راسكولينكوف. ومثل آخر هو ذلك الناقد الذي وصف دوستويفسكي بأنه «راسبوتين الادب». وبطريقة ايفان فإن هؤلاء النقّاد لا يتركون مجالا لقبول سر النعمة.

ويمكن القبول بوصف اعمال دوستويفسكي بأنها مُرضية ولكن فقط بالنسبة لهؤلاء الذين يجهلون الإنجيل الذي أحبه دوستويفسكي كثيراً. إن الاخبار السارة هي أن اللّه في المسيح قد دخل الى وجودنا الى الحد الذي مات فيه لاجلنا على الصليب. إنه معنا في لحظة فشلنا النهائي لكي يحوّله الى جمال الحياة الابدية. وبالايمان نتمتع بحضور المسيح المدهش. وكما حدث في عرس قانا الجليل فإن حضوره هو مناسبة للفرح العظيم.

إن الانتعاش الديني الراهن في الاتحاد السوفياتي يعود الى حد كبير لدوستويفسكي والمعجبين الأوائل به. لقد قدم إسهاماً عظيماً الى المفكرين المسيحيين الذين كانوا وما زالوا قادة هذا الاصلاح الروحي. ولعل افضل دلالة واوضحها لشهادته، هي تلك التي قالها نيكولاوس ا. برداييف في كتابه الرائع «دوستويفسكي». فقد كتب يقول: «لقد حرك نفسي ورفعها أكثر مما فعله اي كاتب او فيلسوف آخر، وبالنسبة لي فإن الناس ينقسمون دائما الى «الدوستويفسكيين»، وهؤلاء الذين تظهر روحه غريبة بالنسبة لهم. لقد أثّرت اسطورة المحقق الكبير على وجه الخصوص على عقلي اليافع، بحيث إنني عندما التفت الى عيسى المسيح لأول مرة رأيته في المظهر الذي يأخذه في الاسطورة.»

إرنست جوردن

مؤلّف كتاب «معجزة على نهر كواي»

الايمان باللّه

مغامرة الانسان

قصّة المفتشّ الكبير

تمثل هذه «القصيدة النثرية» من قصة «الاخوة كارامازوف» قمة اعترافات دوستويفسكي الدينية. يقوم بإلقائها ايفان كارامازوف الذي رفض الاعتراف بالله رغم انه كان يعترف بوجوده.

«ظهر الرّب خفية دون ضوضاء، والغريب في الامر أن جميع الناس سرعان ما عرفوه. انجذب اليه الجمهور بقوة لا تقاوم، وأحاط به، واحتشد حوله، وتابع خطواته. فسار هو بين الجمهور صامتاً وهو يبتسم ابتسامة عطف لا نهاية له. إن شمس المحبة تتّقد في قلبه، ويشع من عينيه الضياء والقوة فينتشران بين المؤمنين ويشعلان المحبة فيهم. وهو يمد ذراعيه نحو الشعب ليباركه. إن ملامسته، وملامسة ثيابه، تملك القدرة على شفاء المرضى . فهذا شيخ من الجمهور، أعمى منذ طفولته، يهتف قائلاً على حين فجأة: «ردّ اليّ البصر، يا رب، حتى أستطيع أن اراك»، فما هي إلاّ لحظة حتى سقطت الغشاوة عن عينيه، فاذا هو يرى الرب . ويكى الشعب تأثراً، وأغرق بالقبلات الارض التي مشى عليها. وأخذ الاطفال يرمون الازهار أمامه منشدين: «هوشعنا». وتعالت الصرخات تقول: «إنه هو، لا يمكن إلاّ أن يكون اياه». ووقف في الساحة أمام كاتدرائية أشبيلية في اللحظة التي أحضر فيها المصلّون، بين عبرات الحضور، تابوتاً صغيراً مفتوحاً أبيض، يرقد فيه جثمان بنيّة في السابعة من عمرها، وهي البنت الوحيدة لرجل من اعيان سكان المدينة. إن الميتة مغطاة بالأزهار. صاح الجمهور يقول للأم المحزونة: «سيقيم لك ابنتك». وكان كاهن الكنيسة قد تقدّم نحو التابوت، فظهرت عليه الحيرة

وقطب حاجبيه. فأجهشت أم البنيّة الميتة باكية وارتمت على قدمي المسيح وضرعت اليه وهي تمد نحوه ذراعيها قائلة: «اذا كنت أنت هو حقاً، فأحي ابنتي!». توقف الموكب، ووضع التابوت على الارض عند قدميه. فألقى على جثمان البنية نظرة تفيض بالعطف، وتحرّكت شفتاه في رفق تقولان مرة أخرى: «طاليطا قومي» فما أن نطق بهذه الكلمات حتى خرجت الطفلة من التابوت، وجلست مبتسمة، ونظرت حولها بعينين محملقتين تملأهما الدهشة. إنها تمسك بيدها باقة من ورود بيضاء كانت قد وضعت في يدها.

اضطرب الجمهور وصاح وبكى، ومر في تلك اللحظة نفسها من الساحة أمام الكاتدرائية الكاردينال كبير المفتشين. إنه شيخ في التسعين من عمره، طويل الجسم منتصب القامة معروق الوجه غائر العينين، غير أن في عينيه شعلة ساطعة. إنه لا يرتدي الآن ثوب الكاردينالية الأرجواني الفخم الذي ظهر به للشعب الليلة البارحة حين كان يرمي الى النيران أعداء الكنيسة الكاثوليكية. وإنما هو يلبس في هذه المرّة ثوب الكاهن، المصنوع من الصوف الخشن. وعلى مسافة منه يتبعه معاونوه العابسون وخدمه والحرس المقدس. وقف الكاردينال أمام الجمهور وتأمّله من بعيد. لقد رأى كل شيء، رأى التابوت عند قدميه، ورأى الطفلة تُبعث من الموت، فأظلم وجهه واكفهر. إنه يقطب حاجبيه الكثيفين الابيضين، ويومض في عينيه بريق متوحش كاسر. وهذا هو يشير اليه بسبابته آمراً الحرس بأن يعتقلوه. وكانت قوة هذا الرجل كبيرة بحيث استطاع أن يُخضع الشعب الخائف لإرادته، وسرعان ما ابتعد الجمهور وفتح الطريق أمام الحرس التابع له، فاذا بهؤلاء، وسط صمت الموت الذي خيّم على حين فجأة، يضعون أيديهم عليه ويقتادونه. وسجد الجمهور بحركة واحدة أمام المفتش الكبير الذي بارك الجمهور صامتاً وانصرف. أخذ الحرس السجين الى المبنى العتيق، وحُبس في زنزانة مظلمة ضيقة مقبية في القصر القديم لمحكمة التفتيش المقدسة. انقضى النهار، وهبط الليل. هي ليلة من ليالي اشبيلية الثقيلة الحالكة الخانقة الحارة. «الهواء معطّر بعبق أشجار الرّند

والليمون». وفجأة، في الظلمات، فُتح الباب الحديدي، وتقدّم المفتش العجوز يسير في الممر ببطء حاملاً بيده شعلة. وقف لحظة على عتبة الزنزانة وتفرّس في وجه السجين طويلاً. ثم اقترب منه آخر الامر بخطى صامتة، ووضع الشعلة على المنضدة وقال له:

«أهذا أنت اذن؟ أهذا أنت؟ وعندما لم يتلق جوابا، أسرع يضيف: اصمت لا تقل شيئاً، وما عساك تعلمني على كل حال؟ انني أعرف سلفاً كل ما تقوله لي. وبأي حق تريد من جهة أخرى أن تضيف شيئاً آخر الى ما سبق أن قلته؟ لماذا تجيء اليوم تزرع الاضطراب في حياتنا؟ إنك جئت لتبث فينا الاضطراب ما في ذلك ريب، وأنت لا تجهل ذلك. فهل تعلم مع هذا ما الذي سيقع غداً؟ إنني لا أعرفك، ولا أريد أن أعرفك هل أنت هو حقاً، أم لست الا طيفه؟ لأنني سأحكم عليك بالإعدام وسآمر بإحراقك مثلما آمر بإحراق اسوأ الزنادقة. إن ذلك الجمهور نفسه الذي كان يقبّل قدميك منذ بضع ساعات، سيهرع غداً، باشارة بسيطة مني، ليزيد من لهيب النار. هل تعلم ذلك؟ لا شك أنك تعلم ذلك. ألقى عليه الكاردينال هذا السؤال، ثم أضاف يقول شارد الفكر نافذ النظرة دون أن يحوّل بصره عن سجينه لحظة واحدة.

قال أليوشا وهو يبتسم، وكان الى ذلك الحين يصغي الى اخيه صامتاً: «لست أفهم جيداً يا ايفان. ماذا يعني ذلك؟».

«أهذه تهاويل مضطربة أنشأها خيالك المحموم، أم أنت تريد أن تقول أن الشيخ قد اخطأ وخدعه ظنه؟».

قال ايفان ضاحكاً:

لنسلّم بأن هناك خطأ ما، ما دامت واقعية هذا العصر قد أثرت عليك أنت أيضاً الى حد لا تستطيع معه أن تقبل تهاويل خيالية غريبة. لنفرض أن هناك غموضاً ما، اذا كنت تحرص على ذلك. ثم أردف ايفان يقول وهو يضحك مرة

أخرى: يجب أن لا ننسى أن هذا العجوز هو في التسعين من عمره، ومن الجائز أن يكون قد جن منذ زمن طويل في عزلته المتكبرة المستعلية. ولعل منظر السجين قد أدهشه.

ولعل هذا كله لم يكن أيضاً الا هذيان رجل عجوز قد أهاجه إحراق المائة زنديق الذين أحرقوا في الليلة البارحة، او أهاجته هلوسة من تلك الهلوسات التي تسبق الموت في بعض الاحيان، وأن الامر واحد على كل حال، سواء اكانت تهاويل خيالية او اخطاء. إن المهم أن هذا الشيخ سيقول في هذه المرة، وهو في التسعين من العمر، سيقول ما في قلبه وما فكّر فيه صامتاً طوال حياته.

والسجين؟ هل هو صامت؟ هل هو ينظر الى زائره دون أن يفتح فمه بكلمة؟

قال ايفان شارحاً وهو ما يزال يضحك: على هذا النحو إنما تجري الامور. ألم يُفهمه الشيخ العجوز أنه ليس من حقه أن يضيف شيئاً الى ما سبق أن قاله في الماضي؟ بل إن هذا في رأيي سمة من السمات الاساسية للكاثوليكية الرومانية: «لقد عهدت برسالتك الى البابا، ومن اختصاص البابا أن يقرر الآن. فلا تأت الينا لبثّ القلق والاضطراب في حياتنا بغير طائل، لا تأت الآن، لا تأت قبل الساعة المحددة على كل حال!» فهذا ما يقوله صانعو الكنيسة الرومانية، أو هذا ما يقوله اليسوعيون على الأقل. لقد قرأت هذا بنفسي في كتاباتهم اللاهوتية.

القى عليه العجوز هذا السؤال: «هل من حقك أن تكشف لنا ولو عن سر واحد من أسرار العالم الذي جئت منه؟» ولم ينتظر الجواب، بل أضاف يقول فوراً: «لا، ليس من حقك أن تفعل . . . ليس لك أن تضيف شيئاً الى ما سبق أن قلت في الماضي، وذلك حتى لا تحرم البشر من تلك الحرية التي كنت تقدرها قدراً عظيماً حين عشت على الارض. إن كل كشف جديد قد اتى به يؤثر سلبا على حرية الايمان، لأنه سوف يبدو كمعجزة من المعجزات، وقد رأيت منذ خمسة عشر قرناً أن ضمان حرية الايمان أمر أساسي. ألم تكن تردد على مسامعهم بغير كلل ولا ملل: «لقد جئتكم بالحرية»؟» وأضاف العجوز يقول، وهو يرسم على

شفتيه ابتسامة مفكّر، على حين فجأة: «ولقد رأيتهم بعينيك، هؤلاء البشر «الأحرار». . . إن هذه الحرية هي من صنعنا، وقد كلفتنا جهوداً لا نهاية لها،» أضاف العجوز وهو يلقي عليه نظرة قاسية: «ولكننا أتممنا عملنا أخيراً باسمك . لقد اضطررنا خلال خمسة عشر قرناً أن نظل نتحرك جاهدين بهذه الحرية، ولكن الأمر قد انتهى الآن، انتهى تماماً! ألا تظن أنه انتهى الى الأبد؟ إنك تنظر الي بوداعة ولين ورفق، فلا شك أنك تقدّر أنك إن أظهرت استياءك كنت تشرفني تشريفاً لا استحقه! إن البشر هم في هذا اليوم بعينه أشد اقتناعاً منهم في أي وقت مضى بحريتهم الكاملة، ومع ذلك فالواقع أنهم تنازلوا عنها ووضعوها في أيدينا بكثير من المذلة. ذلك هو عملنا. ألم يكن ذلك هو ما كنت تفعله! ألم تكن هذه هي الحرية التي تنشدها لهم؟»

تابع العجوز يقول: لقد تحدثت اليك في الصحراء الروح الرهيبة العميقة، روح الدمار والعدم. وتروي لنا الكتب المقدسة أنه أغواك، أليس كذلك؟ هل نستطيع في الواقع أن نتخيل حقائق أكبر من الحقائق التي عرضها لك في أسئلته الثلاثة؟ لقد رفضت أنت تلك الحقائق آنئذ، وتصفها الكتب المقدسة لنا بأنها «غوايات». ومع ذلك، لئن وجدت على هذه الارض في يوم من الايام معجزة صادقة كبرى، فإن تلك المعجزة إنما تحققت في ذلك اليوم بعينه، وفي تلك الغوايات الثلاث. لقد كانت تلك الاسئلة معجزة من المعجزات لمجرد أنها ألقيت. لنفترض مثلا، أن هذه الاسئلة الثلاثة قد تبددت دون أن تترك أثراً في الكتب المقدسة، وأن علينا ان نعثر عليها اليوم ونعيد بناءها وأن نكتشفها من جديد حتى نضمها الى النصوص المقدسة. لنفترض أننا نعمل جميعنا لتحقيق هذا الهدف، حكماء الارض، ورؤساء الدول وأمراء الكنيسة والعلماء والفلاسفة والشعراء، وقلنا لهم: «تخيّلوا لنا ثلاثة أسئلة لا تكون على مستوى الحدث فحسب، بل تلخص بالاضافة الى ذلك، مستقبل العالم والانسانية في ثلاث جمل انسانية بسيطة؟. فهل تظن أن كل حكمة الارض المجتمعة في هؤلاء الرجال تستطيع أن تفعل شيئاً يشبه

بقوته وعمقه، تلك الاسئلة الثلاثة التي ألقاها عليك في الصحراء ذلك الروح القوي العميق؟ إن تلك الاسئلة الثلاثة وتلك الحادثة المعجزة، تشهد بأن الامر لم يكن أمر عقل انساني عادي، بل أمر فكر خالد مطلق. ذلك أنها تضم في ذاتها، كل التاريخ المقبل للانسانية، وتقدّم رموزاً ثلاثة تنحل فيها جميع تناقضات الطبيعة الانسانية، التي لا سبيل الى حلها. إن تلك الحقائق لم تكن ظاهرة آنئذ ظهوراً واضحاً، لأن التطوُّر الذي تطوره العالم بعدئذ لم يكن معروفاً؛ أما الآن، بعد انقضاء خمسة عشر قرناً، فإننا نرى أن كل شيء تنبأت به تلك الاسئلة الثلاثة، قد تحقّق تحقيقاً يبلغ الكمال والتمام. إننا لن نستطيع أن نضيف اليها شيئاً او أن نحذف منها شيئاً بعد اليوم.

«فأحكم في الامر بنفسك: من ذا الذي كان على حق، هل أنت أم سائلك؟ تذكر السؤال الاول من تلك الاسئلة الثلاثة، ليس نصّه بل معناه العام: «تريد أن تمضي الى الناس خالي اليدين الا من وُعدوا بحرية لا يستطيعون بحكم ما فطروا عليه من بساطة وجهل أن يفهموها، عدا أنهم بالاضافة الى ذلك يخشونها ويخافون منها، لأنه ليس هناك ولم يكن هناك في يوم من الايام حالة لا يطيقها البشر والمجتمع مثلما لا يطيقون الحرية. هل ترى هذه الحجارة في الصحراء الوعرة المحرقة؟ حوّلها الى خبز تهرع اليك الانسانية كقطيع جائع، وتصبح شاكرة لك مطيعة اياك، ولكنها ستظل ترتجف خوفاً من أن تسحب يديك وتُحرم هي من الخبز». غير أنك لم تشأ أن تحرم الانسان من الحرية، فرفضت العرض قائلاً لنفسك لا حرية صادقة حيث تُشترى الطاعة بالخبز. لقد أجبت بقولك: ليس بالخبز وحده يحيا الانسان. أفكنت تجهل اذن أن روح الارض ستثور عليك باسم هذا الخبز الارضي نفسه، وأنها ستقتلك وتغلبك؟ وأن الجمهور سيهرع حينئذ نحوها قائلاً: «من ذا الذي يستطيع أن يقيس نفسه بهذا الوحش الذي وهب لنا نار السماء؟» لسوف تنقضي قرون، ويأتي يوم تنادي فيه العالم الانساني بأن الشر لا وجود له، وأن الخطيئة تبعاً لذلك لا وجود لها، مؤكدين أن هناك جائعين

فحسب. «أطعمهم تجعلهم فاضلين!». وبهذه النصيحة إنما سيحملون الراية ضدك وسيقوّضون معبدك. وسيقيمون في مكانه مبنىً آخر، هو «برج بابل» الرهيب. صحيح أن البناء لن يتم، كما لم يتم في المرة الاولى، ولكن كان في وسعك مع ذلك أن توفر على الانسانية آلام هذه المحاولة الجديدة وأن تختصر من عذابها ألف سنة. ذلك أن البشر انما سيجيئون البنا نحن بعد أن يجهدوا في بناء برجهم مدة عشرة قرون! سيجيئون باحثين عنا كما فعلوا في الماضي، وسيجدوننا في الأقبية التي كنّا قد لجأنا اليها (لأننا سنضطهد ونعذب من جديد)، سيجيئون قائلين لنا: «أطعمونا، لأن الذين وعدونا بنار السماء قد خدعونا». وستنهي عندئذ بناء البرج، لأن الذين سيطعمون البشر يستطيعون وحدهم أن يتموا هذا العمل حتى النهاية. وسوف نطعمهم، سوف نطعمهم نحن ولا احد سوانا، وسوف نفعل ذلك باسمك، كاذبين عليه مستمدين سلطتنا منك. بدوننا لن يستطيعوا أن يعيشوا في هذا العالم، وسيظلون دوما جائعين. لن يهب لهم العلم خبزا ما ظلوا احرارا، ولكنهم سينتهون الى ان يرموا حريتهم على اقدامنا قائلين: «استعبِدونا ولكن أطعِمونا». سيدركون هم انفسهم أن الحرية لا تتفق وخبز الارض، ولا تتيح أن يصيب كل منهم من هذا الخبز كفايته، لأنهم لن يتوصّلوا الى اقتسامه بالعدل في يوم من الايام. وسيقتنعون كذلك باستحالة أن يكونوا احراراً، لأنهم ضعاف فاسدون صغار النفوس سريعون الى التمرد والعصيان.

لقد وعدتهم بخبز السماء، ولكنني أسألك مرة اخرى: هل يقاس خبز السماء بخبز الارض في نظر الكثرة التي ستظل الى الابد فاسدة عاقة؟ اذا كانت الوف من الناس او كانت عشرات الالوف من الناس مستعدة لأن تتبعك في سبيل خبز السماء، فماذا تفعل الملايين والمليارات من الكائنات التي لن تحس بأنها قادرة على أن تتنازل عن خبز الارض في سبيل خبز السماء؟ اتراك لا تعطف الا على بضع عشرات من الوف النفوس الكبيرة القوية، وهل يجب على ملايين البشر، هل يجب على الجموع التي لا نهاية لعددها، كرمل البحر، هل يجب على هؤلاء

الذين هم ضعاف، ولكنهم يحبونك ايضا، أن لا يكونوا الا مادة مسخرة للكبار والاقوياء؟ إننا نحن نرى غير هذا الرأى، وإننا نهتم بالضعفاء، إنهم شريرون عصاة، ولكنهم سيصبحون في آخر الامر اكثر الناس طاعةً وخضوعاً. سوف يُعجبون بنا ويُعدُّوننا آلهة، لأننا نكون قد رضينا، حين صرنا قادة لهم، أن نحمل عنهم عبء حريتهم وأن نسيطر عليهم، فالى هذا الحد ستكون هذه الحرية قد أصبحت كريهة في نظرهم!

وسوف نوهمهم مع ذلك بأنهم إنما يطيعونك انت وبأننا نحكمهم باسمك. سوف نكذب عليهم في هذه المجال ايضا، لأننا لن نسمح لك بعد الآن بأن تتدخل في شؤوننا. وسيكون هذا الكذب الضروري عذابنا. ذلك ما كان يعنيه السؤال الاول في الصحراء، ولقد رفضت نداء الروح الجبار باسم الحرية التي وضعتها في اعلى منزلة، وفضلتها على كل شيء. ولقد كان ذلك السؤال يخفي مع ذلك كل سر هذا العالم. فلو رضيت أن تعطي الخبز، اذن لبيت ما تنتظره الانسانية انتظارا ابديا منذ عهود سحيقة، وهو أن تجد من تعبده. وكلما كان الانسان حراً، كلما سعى دون توقف وتحمل المشاق والعذاب من اجل أن يجد شخصا يعبده. ولكن الانسان يتطلع الى الخضوع لحقيقة مؤكدة لا تجحد، حقيقة يحترمها جميع الناس برضى جماعي. إن حاجة هذه المخلوقات الضعيفة ليست الى اكتشاف قوة يمكن أن يطيعها هذا الفرد او ذاك من الافراد، وإنما الى اكتشاف حقيقة عليا يمكن أن يؤمن بها الجميع ويمكن أن ينحني لها «الناس كافة». فهذه الحاجة الى «الاشتراك»، هي بعينها الهم الرئيسي الذي يعذب كل فرد ويعذب الانسانية جملة منذ أقدم عهود التاريخ. فباسم هذا التطلع الى العبادة الجماعية المشتركة إنما افنت الشعوب بعضها بعضا خلال الاحقاب. كانت الشعوب تصنع الهة ثم تأخذ تتشاتم: «اتركوا آلهتكم وتعالوا اعبدوا الهتنا. والا فالموت لكم ولآلهتكم!». وسيبقى الحال على هذا المنوال الى نهاية العالم، وحتى بعد زوال الآلهة سيظلون يسجدون لمعبودات جديدة. ولقد كنت تعلم هذا السر الجوهري من اسرار الطبيعة الانسانية،

فليس يمكن أن تجهل هذا السر، ولكنك رفضت الراية الوحيدة التي تملك قوة جذب مطلق، والتي قدمت لك لكي تدفع بجميع البشر الى الانحناء أمامك بغير تردد، اعني راية الخبز الارضي. ولكنك رفضت هذه الراية باسم الحرية وباسم الخبز السماوي. فانظر الآن فيما صنعت! أنظر فيما فعلت باسم الحرية! أعود فأقول لك إنه لا قلق أرسخ في قلب الانسان من قلق الحاجة الى العثور على من يستطيع أن يضحي له سريعا بالحرية التي وُهبت له، وهو المخلوق التعيس، منذ ولد. ولكن لا سبيل الى التصرُّف في حرية البشر الا بتهدئة ضميرهم. ولقد كان في وسعك أن تتخذ الخبز راية لا تخطئ. أطعم الانسان يطعمك، فلا شيء في هذا العالم اعز على الجحود من الحاجة الى الاكل. ولكن اذا استولى غيرك عندئذ على ضمير البشر تركوك وعدلوا حتى عن خبزك ليتبعوا ذلك الذي يكون قد أخضع نفوسهم. في ذلك كان رأيك صحيحا. إن سر الوجود الانساني ومبرره ليس في ارادة الحياة، بل في الحاجة الى معرفة السبب الذي يدعو الانسان الى الحياة. فالانسان ما لم يكن على يقين من هدف حياته، لا يقبل أن يوجد في العالم، بل يؤثِرُ أن يدمّر نفسه، ولو ملك الخبز وافرا كل الوفرة. تلك هي الطبيعة الانسانية. ولكن ما الذي حدث؟ حدث أنك بدلاً من أن تسيطر على الحرية الانسانية اردت لها مزيداً من النمو. فهل نسيت أن الانسان يؤثر هدوء نفسه، بل الموت على أن تكون له ملكة حرية الاختيار في معرفة الخير والشر؟ لا شيء يأخذ اللب في الوهلة الاولى أكثر من حرية الضمير، ولكن لا شيء في الواقع يعذب الانسان أكثر مما تعذبه هذه الحرية. فبدلاً من أن تحمل للانسانية الأسس الراسخة الثابتة الباقية للهدوء النفسي الى الابد، عرضت عليها كل ما غير عادي وغامض ومحيِّر. لقد اخترت ما يتجاوز قوة البشر، كما لو انك لا تحب البشر. أنت يا من جئت لتهب حياتك من اجلهم! انك بدلاً من أن تسيطر على الحرية الانسانية وسعتها، وبذلك حملت العالم الروحي للبشرية بالآلام التي تولّدها هذه الحرية في نفوس البشر. أردت من البشر أن يمنحوك حبهم بحرية وأن يتبعوك بارادتهم، مفتونين بشخصك. ألغيت القانون القديم الذي كان قاسياً، فأصبح على الانسان أن يميّز الخير والشر

بنفسه، مستلهماً حكم قلبه، غير مسترشد في تردده الا صورتك أمام عينيه. أفلم تتنبأ، إذاً، بأن البشر سينوءون بهذا الحمل الرهيب، حمل حرية الارادة، فينبذوا في يوم من الايام صورتك ويشكُّوا في تعاليمك؟ لسوف ينادون في النهاية بأن الحقيقة لم تكن فيك، فمن المستحيل دفعُهم الى اضطراب وعذاب اشد من الاضطراب والعذاب اللذين دفعتهم إليهما حين تركت لهم كل هذه الانواع من القلق، وكل هذه المشكلات التي لا سبيل الى حلّها.

«لقد وفّرت أنت نفسك الاسباب اللازمة لهدم مملكتك، فليس لك أن تتهم أحداً بتدميرها، فهل هذا ما عرض عليك مع ذلك؟ ليس على الارض الا قوى ثلاث تستطيع وحدها أن تتغلب على ضمير هؤلاء المتمردين، وأن تخضعه في سبيل سعادته نفسها، ألا وهي: المعجزة، والسر، والسلطة. ولقد رُفضت هذه القوى الثلاث جميعاً واعطيت الناس مثلا من اجل أن يحتقروها. فحين نقلك الروح الرهيب (ابليس) الى سطح المعبد وقال لك: «اذا أردت أن تتأكد أنك ابن الرب فألق بنفسك في الفضاء، لأنه كتب أن الملائكة ستتلقفه وتسنده فلا يقع ولا يتحطم، وعندئذ تعلم أنك ابن الله وتبرهن على قوة ايمانك بأبيك»، ولكنك رفضت هذا العرض ولم تلق بنفسك في الفضاء . صحيح أنك تصرفت في تلك اللحظة تصرفاً فيه ما في تصرف اله من عظمة وجلال، ولكن هل تتصور أن البشر، وهم جنس ضعيف متمرد، يملكون من القوة الروحية ما يملكه اله؟ لقد فهمت في تلك اللحظة أن حركة بسيطة هي أن تهم بالقاء نفسك في الفضاء كانت ستعني اغراء الرب، فلو قمت بها لكنت بطلب المعجزة تبرهن على قلّة ايمانك، فاذا حُرمت من الايمان تهشمت أسوأ تهشم على الارض التي جئت لتخلّصها وتنقذها، وتهلل الروح المحتال جذلاً وطرباً.

ولكنني أعود فأسألك: هل أمثالك كثيرون في هذا العالم؟ هل تعتقد ولو للحظة واحدة أن البشر يمكن أن يقاوموا هذا النوع من الاغراء؟ هل في طبيعة البشر أن يتنازلوا عن المعجزة وأن يعتمدوا على حكم القلب وحده في الساعات

العصيبة من الحياة، أمام المشكلات الخطيرة الأليمة التي تعرض للنفس؟ لقد كنت تعلم أن موقفك البطولي سينتقل بالكتب المقدسة الى آخر العصور، كنت تأمل أن يقتدي البشر بك فيقبلوا أن يظلوا وحيدين مع اللّه لا يطلبون معجزة من المعجزات. ولكنك لم تقدر أن الإنسان متى جحد المعجزة أسرع يجحد الرب، لأنه يبحث عن العجائب وليس عن الرب؛ وأنه لكونه لا يستطيع أن يحيا بغير معجزات، سيخلق بنفسه معجزات، وسيتبع أباطيل السحرة وخزعبلاتهم، ولو كان متمرداً وكافراً وملحداً. إنك لم تنزل عن الصليب حين دعاك الجمهور الى ذلك صائحاً من باب الاستهزاء: «إنزل عن الصليب فنصدّق أنك أنت». إنك لم تنزل، لأنك مرة أخرى لم تشأ أن تستعبد البشر بالمعجزة، وإنما أردت أن يجيئوا اليك بدافع الايمان لا بتأثير العجائب وكنت تريد أن يهبوا لك محبتهم احراراً لا أن ينصاعوا لك عبيداً، أذهلتهم قوتك. هنا أيضاً أسرفت في تقدير البشر وأنزلتهم منزلة أعلى من منزلتهم، ذلك أن البشر عبيد رغم أنهم مفطورون على التمرد. أنظر فيما حولك: ماذا أصبح البشر بعد انقضاء خمسة عشر قرناً؟ ما عدد اولئك الذين رفعتهم الى مستواك؟ أحلف لك أن الانسان أضعف وأسوأ مما ظننت! هل يستطيع هو الوضيع أن يحقق ما حققته أنت؟ إنك حين احترمته ذلك الاحترام كله قد تصرفت كمن فَقَدَ عطفه عليه، لأنك سألته فوق ما يطيق، أنت الذي أحببته أكثر من نفسك! فلو أنك قدّرته أقل مما قدّرته، اذن لطلبت منه أقل مما طلبت، ولكن موقفك عندئذ أقرب الى المحبة، لان العبء عليه يكون عندئذ أقل ثقلاً. إن الانسان ضعيف وجبان. لا يهمني أن يكون الآن قد ثار في كل مكان على سلطتنا، وأنه يرى في عصيانه الآثم هذا مجداً يعتز به. ذلك غرور الاطفال، إن البشر يشبهون تلامذة صغاراً ثاروا في المدرسة وطردوا معلمهم.

ولن تدوم فرحتهم، وستكلّفهم ثمناً باهظاً . سوف يهدمون المعابد، ويجري الدم سيولاً على الأرض. وسوف يدرك هؤلاء الصبية الاغبياء، أن ضعفهم لن يتيح لهم أن يعيشوا زمناً طويلاً في التمرد والعصيان. وسيعترفون وهم يسكبون دموعاً

باطلة أن الذي وهب لهم روح العصيان قد غرر بهم وسخر منهم . سيقولون هذا بحزن، وسيكون كلامهم تجديفاً يجعلهم أعظم شقاء، لأن الطبيعة الانسانية لا تحتمل التجديف، ولا بد أن تثأر لنفسها منه آخر الأمر. القلق، الاضطراب، العذاب، ذلك هو المصير الذي كُتب على البشر الآن، بعد أن تحملت أنت كل ما تحملته من أجل أن تهب لهم الحرية!

يروي رسولك الكبير أنه قد شاهد، في رؤيا، جميع المشتركين من البعث الاول، فرأى اثني عشر ألفاً من كل سبط. لقد كانوا، مهما يكثر عددهم، أقرب الى آلهة منهم الى بشر: قاسوا ما قاسيت وعاشوا عشرات السنين في الصحراء القاحلة، وأضناهم الجوع، واقتاتوا بالجراد والنبات. ان في وسعك أن تعتز بابناء الحرية هؤلاء الذين وهبوا لك محبتهم أحراراً، وارتضوا طائعين مختارين أن يُضحوا في سبيلك بأنفسهم في صورة رائعة. ولكن تذكر أن هؤلاء ليسوا الا بضعة آلاف، وأنهم أشبه بآلهة منهم ببشر. والآخرون؟ ما ذنب الآخرين اذا هم لم يستطيعوا أن يحتملوا ما احتمله الاقوياء من محن؟ هل تأثم النفس الضعيفة حين لا تعرف كيف تسمو الى فضائل مخيفة الى هذا الحد؟ أتراك جئت من أجل هذه الصفوة وحدها؟ هل أنت لا تفكر الا فيها ولا يخطر ببالك من عداها؟ اذا كان الأمر كذلك فهو سر يفوق ما نملك من قدرة على الفهم؛ ومن حقنا في هذه الحالة نحن أيضاً أن نلجأ الى السر، وأن نُعلم الجماهير أن الأمر الأساسي ليس هو المحبة ولا الخيار الحر للقلب، وإنما هو الخضوع الأعمى لما لا سبيل الى معرفته، وأن يطيعونا اذن ولو عارضهم في ذلك ضميرهم. وهذا بعينه هو ما فعلناه.

لقد قمنا باصلاح العمل الذي قمت به، فبنيناه على «السر» و«المعجزة» و«السلطة». وابتهج الناس اذ رأوا أنفسهم يُقادون من جديد كما يُقاد قطيع، ورأوا أنفسهم يتحررون من تلك الهبة المشؤومة التي وهبتها لهم، فكانت مصدر أنواع من العذاب قاسوها. هل كنا على صواب حين عملنا على هذا النحو؟ هل يمكن أن يؤخذ علينا حقاً أننا لم نحب الانسانية حباً كافياً، لعلمنا بضعفها الروحي، وخففنا

عنها الحمل في كثير من الالحاح حتى لقد أبحنا لها أن ترتكب الخطيئة، شريطة أن تستأذننا في ذلك؟

فلماذا تجيء الآن لتبث الفوضى في عملنا؟ ما لك تحدّق اليّ هكذا صامتاً بعينيك الرقيقتين النافذتين؟ أحرى بك أن تغضب. إنني لا أريد مجيئك، لأنني أنا نفسي لا أحبك. ولست أحاول أن أخفي عنك ذلك. لأنني أعلم من ذا الذي أخاطب، أليس كذلك؟ ثم إنك تعرف كل ما قد أقوله لك، أقرأ ذلك في عينيك. ففيم المواربة والحالة هذه؟ إن سرّنا لن يخفى عنك . فلعل ما تريده اذن هو أن تسمع هذا السر من فمي؟ ليكن لك ما تريد: ألا فاعلم أننا لسنا معك، بل معه «هو». وذلك هو سرّنا. لقد كففنا عن أن نكون معك منذ زمن طويل، وتحيّزنا له «هو». منذ ثمانية قرون قبلنا منه ما سبق أن رفضته أنت بقوة، أعني الهبة الأخيرة التي عرضها عليك وهو يشير لك الى ممالك الأرض، لقد قبلنا أن نأخذ من يديه روما وأن نأخذ السيف من قيصر، وأصدرنا قراراً بأن نكون لهذا العالم ملوكه الوحيدين، رغم أننا لم ننجز الى الآن عملنا. ولكن من المذنب في هذا؟

إن هذا العمل ما يزال في بدايته، ولكنه بدأ ولا بد من الصبر طويلا قبل أن نصل به الى غايته، ولكننا سنبلغ هدفنا وسنصبح سادة الكون. وسيتاح لنا عندئذ أن نفكر في سعادة مشتركة تنعم بها الانسانية. لقد كان في وسعك أن تقبل السيف من قيصر في الماضي، فلماذا رفضت تلك الهبة الاخيرة؟ لو أتبعت الوصية الثالثة التي نصحك بها الروح القوي، لكان في وسعك أن تحقق كل ما تتمناه الانسانية، وهو أن تعرف من تطيع، وإلى من تعهد بقيادة ضميرها، وبأي وسيلة توحّد جميع البشر في مجتمع كمجتمع النمل، مجتمع واحد كبير منظّم. ذلك أن الحاجة الى الوحدة الشاملة هو ثالث هموم النفس الانسانية وأكثرها قوة. لقد حاولت الانسانية في جميع الازمان أن تنظّم نفسها على أساس شامل. إن هناك أمما كثيرة عظيمة كان لها تاريخ مجيد، ولكن شقاءها كان كبيراً على مقدار نبلها، لأنها أحست أكثر من غيرها من الشعوب بالحاجة الى توحيد النوع البشري. إن الغزاة الكبار، من امثال

تيمورلنك وجنكيز خان، الذين مروا على الارض مرور إعصار مخرب وعاصفة مدمرة، كانوا يتوقون الى أن يصبحوا سادة العالم باسره، ولكن شوقا عميقا واحدا الى توحيد جميع الشعوب كان يحرّكهم دون أن يشعروا بذلك. فلو أنك قبلت قانون القياصرة، لكان في وسعك أن تبني الامبراطورية الشاملة وأن تكفل السلام للانسانية الى الابد. على من يقع عبء حكم البشر إن لم يقع على اولئك الذين يحكمون النفوس منذ الآن ويملكون مصادر رزقهم؟ لقد اخذنا السيف اذن من قيصر واذا فعلنا ذلك فقد انكرناك أنت لتتبعه «هو». ستنقضي قرون طويلة يغيب فيها الفكر الحر وتنتشر نظرياتهم العلمية واكل لحوم البشر، ذلك أنهم ما داموا قد شرعوا في بناء برج بابل بدوننا لا بد أن ينحدروا حتما الى اكل لحوم البشر. ولكن «الوحش» سيأتي بعد ذلك الينا زاحفا، وسيلعق أرجلنا التي سيبللها بدموعه الدامية. وسوف نركبه، ونرفع نحو السماوات كأسا نقشت عليه هذه الكلمة: «السر». ويومئذ إنما ستدق ساعة السلام والسعادة للانسانية.

إنك فخور بصفوتك المختارة، ولكن الصفوة وحدها معك، اما نحن فسوف نعرف كيف نحمل الطمأنينة الى جميع النفوس. ما أكثر الذين كانوا يتطلعون الى خدمتك، بين أبناء هذه الصفوة المختارة، وهؤلاء الاقوياء، فانتظروك عبثا، ثم سئموا من هذا الصبر الطويل العقيم، فوقفوا قوى فكرهم وحماسة قلبهم على غايات ارضية صرفة، وانتهى بهم الامر الى رفع راية حريتهم عليك! الست انت الذي اعطيتهم راية الحرية هذه؟ امّا نحن الذين نهشُ على البشر بعصانا، فان البشر سيكونون سعداء معنا، وسيعزفون عن التمرد علينا، ولن يبيد بعضهم بعضا كما يفعلون بفضل الحرية التي تركتها لهم.

وسوف نعرف كيف نقنعهم من جهة اخرى بأنهم لن يكونوا احرارا إلاّ متى تنازلوا عن حريتهم، وسنكون قد الزمناهم بخضوع لا رجعة عنه. هل ما نقوله لهم هو الحقيقة ام هو كذب؟ إنهم لن يلبثوا أن يدركوا أنه هو الحقيقة، لأنهم سيتذكرون العبودية والآلام التي قادتهم اليها حريتك. إن العلم وحرية الفكر ستؤدي

بهم الى طريق غير نافذة، لأنه سيلقيهم في اضطراب لا مخرج منه، زاخر بالمعجزات المحيِّرة، فأما العصاة الاقوياء منهم فسيدمِّرون انفسهم، وأما العصاة الضعاف فسيقتل بعضهم بعضا. ولكن الجمهرة الكبرى من الضعاف، فإنهم سيزحفون على اقدامنا قائلين لنا: «انتم على حق. إننا نعترف بهذا الآن، لأنكم كنتم وحدكم تملكون اسراره. نحن نعود اليكم، أنقذونا من انفسنا!»

وعندما يتلقون الخبز من ايدينا، سيرون حق الرؤية أنهم هم الذين أنتجوه بعملهم، وأننا اخذناه منهم لنوزعه بعد ذلك بدون أيّة معجزة. سيفهمون أننا لم نقلب الحجارة الى خبز، ولكنهم سيغتبطون بأنهم أطعموا على ايدينا وليس من الخبز نفسه، لن ينسوا قط أن الخبز الذى صنعوه كان، بدوننا، يتحول في ايديهم الى حجارة، حتى اذا رجعوا الينا تحولت الحجارة خبزا لهم. سيعرفون كيف يقدِّرون بعد الآن قيمة الخضوع النهائي! وحتى يعرف الناس ذلك لن تكون حياتهم الا شقاء. فمن ذا الذي ساهم أكثر من غيره في قلة الفهم تلك؟ من الذي خرَّب تلاحم القطيع وبعثره في طرق مجهولة؟ ولكن القطيع سيتجمع من جديد وسيعود الى طواعيته، الى الابد في هذه المرة. وسوف نهب عندئذ لهذه الكائنات الضعيفة الجبانة سعادة متواضعة وادعة هي السعادة الوحيدة التي تناسبهم. سنعلمهم اخيراً أن لا يزهوا بأنفسهم، لانك قد رفعتهم فجعلتهم متكبرين. سنبرهن لهم على أنهم لا قوّة لهم ولا شجاعة، وأنهم اطفال يُرثى لحالهم، ولكن سعادة الأطفال هذه هي اعذب سعادة. سوف يصبحون خجولين وينظرون الينا نظرتهم الى حماة يحمونهم، وسوف يتراصون حولنا خائفين كما تتراص افراخ الدجاجة حول أمها. سوف يدهشهم ويرعبهم أن يلاحظوا قوّتنا، فخورين بأن لهم سادة يبلغون هذا المبلغ من القوة والذكاء، عرفوا كيف يسيطرون على هذا القطيع المكوَّن من آلاف الملايين من البشر. سوف يرتعشون خوفاً امام غضبنا، وتتخدر عقولهم وتدمع اعينهم كالنساء والاطفال. ولكنهم باشارة منا، سوف ينتقلون بمثل هذه السرعة الى الفرح والمرح والغبطة، ضاحكين مغنين كالصبية الصغار. وسنجبرهم على العمل طبعا، ونهيئ لهم في ساعات فراغهم حياة مليئة باللعب والغناء والرقصات البريئة.

وسنسمح لهم ايضا بأن يأثموا ما داموا ضعافا الى هذا الحد من الضعف، وسيحبوننا كالاطفال بسبب تسامحنا. ستقول لهم إن كل خطيئة يمكن التكفير عنها اذا هي ارتكبت بموافقتنا. سنبيح لهم أن يأثموا لاننا نحبهم، اما العقاب فسنأخذه على عاتقنا. سوف يحبوننا على أننا مخلصون لهم، لأننا نقبل أن نكون مسؤولين عن خطاياهم وذنوبهم امام الرب. ولن يكتموا عنا سرا، سنبيح لهم او نحظّر عليهم، تبعاً لدرجة طاعتهم، أن يعيشوا مع نسائهم او خليلاتهم، وأن يُنجبوا الاطفال او لا ينجبوا، وسيخضعون لتوجيهاتنا فرحين. سيُفضون الينا بأخفى ما يعانون من آلام، واخفى ما يضطرم في ضميرهم من انواع العذاب. وسنفصل في جميع الحالات، وسيرتضون حلولنا سعداء، لأنها ستحررهم من القلق الذي يعانيه المرء متى كان عليه أن يتخذ قراراً حراً. وسيكون جميع الناس سعداء، جميع هؤلاء الملايين من البشر، باستثناء بضع مئات من الالوف الذين ستقودهم، سنكون وحدنا اشقياء، نحن الذين نملك السر. سيكون في هذا العالم مئات الملايين من الاطفال السعداء، لن يكون فيه الاّ مائة الف من الاشقياء هم الذين اخذوا على عاتقهم تحمُّل عذاب المعرفة، معرفة الخير والشر. وسوف يموت اولئك موتا غامضا، ينطفئون باسمك وادعين مسالمين، فلا يجدون في الحياة الآخرة الا العدم. ولكننا سنعرف كيف نحتفظ بسر الموت، ومن اجل سعادتهم سوف نصف لهم جمال المكافآت السماوية والحياة الابدية. لئن كان بعد القبر حياة اخرى فلا شك أن هؤلاء ليسوا ممن ستوهب لهم تلك الحياة.

إن النبوءات تزعم أنك ستعود في يوم من الايام لتحقق نصرا جديدا على الشر، وأنك ستظهر محاطا بمن اصطفيت من أصحاب النفوس القوية المتكبرة الذين انقذتهم. لسوف نجيب عندئذ بأن هؤلاء إنما انقذوا انفسهم وحدها، اما نحن فقد جئنا بالخلاص للناس كافة. يقال إن الزانية الدنيئة التي تركب «الوحش» وتحمل بيديها «كأس السر» سيجللها الخزي والعار ذات يوم، وأن الضعاف سيثورون من جديد فيمزقون رداءها ويعرون جسدها «النجس». ولكنني سأنهض عندئذ فأشير الى آلاف الملايين من الاطفال السعداء الذين يجهلون كل خطيئة، ونحن الذين نكون قد

اخذنا على عاتقنا خطاياهم لنحقق سعادتهم، سوف نمثل أمامك ونقول لك: «احكم علينا اذا كنت تستطيع، اذا كنت تجرؤ!». الا فاعلم أنني لا اخشاك، وأنني عشت أنا ايضا في الصحراء اقتات بالجراد وجذور النبات، وباركت الحرية التي وهبتها للبشر. وكنت أتهيأ لأن ادخل سلك صفوتك المختارة، وأن أكون واحداً من الاقوياء المتكبرين الذين يتألف منهم جيش اتباعك الصغير، وكنت احترق شوقا الى أن «اكمل عددهم». ولكنني رجعت الى صوابي، ولا أريد أن اخدم عقيدة طائشة. لقد عدت وانضممت الى صف اولئك الذين يعملون في «اصلاح ما قمت انت به». تركت المتكبرين وانضممت الى المساكين لأعاون في تحقيق سعادتهم. إن ما أعلنه لك اليوم سيتحقق، وإن مملكتنا ستُبنى في هذا العالم. أعود فاكرر لك: إنك سترى غداً هذا الجمهور المطيع يسرع باشارة مني الى إضرام السنة اللهب، لأني سآمر بحرقك لأنك جئت لإعاقة ما نقوم به من عمل. لئن وجد من يستحق أن يهلك في النار، فهو انت. سوف تُحرق غداً. انتهى كلامي.

صمت المفتش الكبير واخذ ينتظر من سجينه رداً. ولكن صمت السجين قد أثقل على نفسه. لقد اقتصر اسيره طوال مدة كلامه على أن يحدق اليه بنظرة رقيقة نافذة، عازما على أن لا يدخل في مناقشة معه. كان العجوز يؤثر على ذلك أن يجيبه السجين ولو بكلمات لاذعة او رهيبة. ولكن السجين لم ينطق بكلمة واحدة. وهذا هو يقترب من العجوز فجأة فيطبع قبلة رقيقة على شفتيه الشاحبتين شحوب شفتي من بلغ من عمره التسعين، كان ذلك كل جوابه. ارتعش العجوز بتأثير هذه القبلة، واختلج شيء ما في طرفي فمه، وأتجه نحو الباب ففتحه وقال لسجينه: «اذهب الآن، ولا تعد بعد اليوم ابداً!». وأومأ بيده الى «الشوارع المظلمة المقفرة من المدينة». وانصرف السجين.

وماذا حصل للعجوز؟

«حرقت القبلة قلبه، ولكنه لم يعدل عن فكرته».

ثورة الانسان

ضد الله

التمـــرُّد

إن قصة «التمرُّد» في رواية الاخوة كارامازوف تاتي مباشرة بعد قصة «المفتش الكبير». وهذه القصة، مثل القصة السابقة، موجهة من قبل ايفان الى اليوشا كارامازوف، الاخ الاصغر، الذي كان راهبا مبتدئا يعيش في دير خارج المدينة.

بدأ ايفان كلامه يقول: يجب أن أعترف لك بهذا الأمر: إنني لم أستطع في يوم من الأيام أن أفهم كيف يحب المرء الناس القريبين منه. فإني اعتقد أنه يصعب علينا أن نُحب أقرب الناس إلينا، أكثر مما يصعب علينا أن نحب غيرهم. إن الإنسان لا يحب إلا من بعد. لقد قرأت في موضع ما أن متشرداً جائعاً كان يرتعد من شدة البرد قد تضرَّع الى القديس يوحنا الرحيم في ذات يوم لكي ينجده ويدفئه، فأضجعه على سريره وأحاطه بذراعيه ونفخ في فمه النتن المتقيِّح المصاب بمرض رهيب. إنني أعتقد بأن اندفاع هذا القديس مصطنع، وأنه لا يقوم بفعله هذا من تلقاء نفسه، وإنما هو يُلزم نفسه به إلزاماً باسم حب لا يشعر به، فكأنه قد قام بهذا الفعل بدافع التكفير عن ذنبه، فهو يعاقب نفسه على افتقادها المحبة. إننا لا نستطيع أن نحب إنسانا إلا إذا ظل مختفيا عن نظرنا. فمتى لمحنا وجهه تبدد الحب.

قال أليوشا: «هذه ملاحظة طالما ردَّدها الشيخ زوسيما. كان يقول إن وجه الإنسان يخلق في كثير من الأحيان حاجزاً يعيق الحب لدى أولئك الذين لم يتعلَّموا الحب بعد. ومع ذلك فإن في الإنسانية الكثير من المحبة؛ إن هناك محبة تكاد تشبه محبة المسيح، أنا أعرف ذلك بتجربة يا ايفان».

حسنا، إني لم أستطع أن ألاحظ ذلك ولا أن أفهمه، وما أكثر الناس الذين يشبهونني من هذه الناحية! وإنما السؤال هو: هل يرجع هذا إلى خبث القلب الإنساني أم هو قانون طبيعي. وإني لأرى أن محبة المسيح للناس معجزة لا يمكن أن تتحقق على هذه الأرض. إن المسيح اله ونحن بشر. لنفرض مثلاً إنني قادر على أن اتألم كثيراً. إن من الصعب على شخص آخر غيري أن يعرف عمق الألم الذي أعانيه، وذلك لسبب بسيط هو أنه ليس أنا بل آخر. ثم إنه يعز على المرء دائماً أن يسلّم بألم غيره (كما لو كان ذلك عزة واباة). فهل تعلم لماذا يعزُّ عليه أن يسلّم بألمي؟ ربما لأن رائحة فمي كريهة، أو لأن وجهي غبي، أو لأنني دست على قدمه في يوم من الأيام! على أن الآلام أنواع: فهناك آلام تخفض قيمتنا أو تنقص قدرنا، كالجوع مثلاً؛ فالناس تحب أن تصدّقنا فيما يتعلق بهذا النوع من الآلام، ليجعلوا من أنفسهم محسنين إلينا بعد ذلك. أما إذا كان الألم أرفع من ذلك، وتحتمله في النضال من أجل فكرة مثلاً، فإن الناس يرفضون أن يصدّقوه، باستثناء قلّة قليلة. وهم لا يصدّقونه لأنهم حين نظروا إلى صاحبه رأوا أن وجهه ليس الذي لا بد أن يكون في نظرهم وجه من يتألم في سبيل قضية. وهم عندئذ يأبون أن يتعاطفوا معه، دون أن يكون في موقفهم هذا شيء من روح الشر على كل حال. إن على الشحاذين المستعطين، ولا سيّما حين تكون نفوسهم نبيلة، أن يظلوا مختبئين عن الأنظار، وأن لا يطلبوا الإحسان إلا بإعلانات ينشرونها في الجرائد. إن من الممكن أن يُحب الإنسان جاره حباً مجرداً، وأن يُحبه في بعض الأحيان عن بعد، أما عن قرب فذلك يشبه أن يكون مستحيلاً. لو كانت الأمور تجري كما تجري على المسرح، في باليه نرى فيه الشحاذين لابسين أسمالا من حرير ومغطّين بقطع ممزقة من القماش، ويطلبون الصدقة راقصين برشاقة، فقد نعجب بهم عندئذ، نعجب بهم ولكن دون أن نحبهم.

لقد قلت ما فيه الكفاية حول هذا الموضوع. فقد كان في نيّتي أن أحدّثك عن آلام الإنسانية عامة، ولكنني أظن أنه من الأفضل أن نقتصر على آلام الأطفال

وحدهم. وأن هذا سيُفقد حجّتي تسعة أعشار دلالتها. رغم ذلك فإنني أظل أحسب أن هذا أفضل. سوف تكون المناقشة أقل قوة بطبيعة الحال، ولكن الأطفال يمتازون على الأقل بأن المرء يستطيع أن يحبهم عن قرب، مهما تكن وساختهم ودمامتهم (وإن كُنت أعتقد أن الطفل لا يمكن أن يكون قبيحا)؛ ثم إنني لا أحب أن أتكلم عن الكبار، لا لأنهم يبعثون على الاشمئزاز ولا يستحقون الحب فحسب، بل لأنهم يتمتعون من جهة أخرى بتعويض: فهم قد أكلوا تفاحة شجرة المعرفة وأصبحوا «شبيهين بالآلهة» وما يزالون يأكلون منها. أما الأطفال فإنهم لم يذوقوا تلك الثمرة، وما زالوا ابرياء.

هل تحب الأطفال يا أليوشا؟ أنني أعلم أنك تحبهم، ولسوف تفهم إذن لماذا لن أحدثك إلا عنهم. إذا تألم الأطفال ألماً قاسياً في هذا العالم، ومن أجل أن يكفّروا عن خطيئة آبائهم، وأن يعاقبوا بدلا من آبائهم، الذين اكلوا تفاحة شجرة المعرفة، فإن هذا الفهم ليس من هذا العالم، وسيظل قلب الإنسان على هذه الأرض عاجزاً عن إدراكه. إن من الظلم أن يعذّب أبرياء ـ أبرياء إلى هذه الدرجة من البراءة ـ لذنب اقترفه غيرهم. أنا أيضا أحب الأطفال كثيراً يا أليوشا، تخيّل هذا.. سجّل هذا! إن القساة الضواري أصحاب الأهواء الجامحة، من أمثال آل كارامازوف، كثيرٌ ما يحبُّون الأطفال. ويختلف الأطفال عن الكبار ما داموا صغاراً لم يتجاوزوا السابعة من أعمارهم، حتى لكأنهم ينتمون إلى نوع آخر لأن طبيعتهم ليست كطبيعتنا. إنني أعرف حالة لص من اللصوص كان سجيناً في أحد السجون. لقد اتفق لهذا اللص أثناء حياته أن قتل أُسراً بكاملها في المنازل التي تسلل إليها ليلاً ليسرقها، فلم يوفّر الأطفال. واستبدت بهذا الرجل أثناء وجوده في السجن عاطفة قوية نحو الصغار، فكان يقضي وقته ناظراً من خلال الكوة إلى الصبية يلهون ويتسلّون في الساحة أمام السجن، واستطاع أخيراً أن يكسب مودة واحد منهم، فكان هذا يجيء يتحدث معه بدون خوف واقفاً تحت الكوة. لا شك في أنك تتساءل يا أليوشا لماذا أقص عليك هذا كله؟ إن بي صداعاً، وها أنذا أشعر بحزن.

قال أليوشا قلقاً: إنك تتكلم بطريقة عجيبة غريبة، كأنك لا تمتلك نفس.

وتابع ايفان كلامه يقول وكأنه لم يسمع ملاحظة أخيه: لقد قصّ عليّ بلغاري في الآونة الأخيرة بموسكو أن الأتراك والشركس يعمدون في بلاده بلغاريا إلى أنواع شديدة من القسوة بغية إرهاب الشعوب السلافية التي يخشون أن تثور عليهم ثورة عامة شاملة. فهم يحرقون القرى، وينهبون الأرزاق، ويذبحون السكان، وينتهكون النساء والأطفال، ويسمّرون بعض السجناء من آذانهم بسياج، ويدعونهم هناك طول الليل ثم يعودون إليهم في الصباح ليشنقوهم. أمور تفوق الخيال. يُقال أحيانا أن الإنسان «حيوان كاسر». إلا أن في هذا القول إهانة للحيوانات لا داعي لها، فالحيوانات لا تبلغ مبلغ البشر في القسوة أبداً، وهي لا تتفنن كالانسان في قسوتها. يكتفي النمر بتمزيق فريسته والتهامها. إنه لا يمضي إلى أبعد من ذلك، ولا يخطر بباله يوماً أن يسمّر أحداً من أذنيه بسياج، ولو قدر على ذلك. وأولئك الأتراك يتسلّون خاصة بتعذيب الأطفال تعذيباً سادياً، إنهم ينزعون بالسيف الاطفال قبل ولادتهم من ارحام أمهاتهم، ويقذفون بهم في الهواء فيتلقفهم آخرون بأسنة الرماح على مرأى من أمهاتهم اللواتي يُعدُّ حضورهن أهم عنصر من عناصر المتعة. وهذا مشهد آخر اظن أنه يثير الدهشة. كانت الأم ترتجف جزعاً وهلعاً وفي يديها طفل صغير؛ وأتراك يحيطون بها ويتخيلون لعبةً صغيرة. إنهم يلاعبون وجه الطفل ويلاطفونه ويضحكونه. والطفل سعيد فها هو يمد إليهم ذراعيه. وفي تلك اللحظة يصوّب إليه أحد الأتراك مسدسه، فينفجر الطفل ضاحكاً، ويمد يديه الصغيرتين ليتناول المسدس، فيضغط احد الاتراك عندئذ على الزناد فينطلق الرصاص ويهشم جمجمة الصبي. أليس هذا فناً في الواقع؟ يظهر أن الأتراك يُحبُّون الحلوى كما يقولون.

سأل اليوشا: أخي، إلى ماذا تريد أن تنتهي؟

أعتقد أنه إذا لم يكن الشيطان موجوداً، وإذا كان الإنسان قد خلقه، فلا شك في أن الإنسان قد خلقة على صورته هو.

«كما خلق الله ايضاً» اجاب اليوشا.

إنك تجيد قلب الألفاظ كما يقول بولونيوس في «هملت» كذلك قال ايفان ضاحكاً، وتابع كلامه يقول: إنك تحوّل كلماتي ضدي، وأنا مسرور. ألا فاعترف مع ذلك أن الٰهك جميل إذا كان الإنسان قد خلقه على صورته. لقد سألتني إلى أين أريد أن أنتهي؟ إنني مولع بنقل بعض الحقائق التي اقتطفها احيانا من الجرائد أو من الكتب. لقد جمعت كمية كبيرة منها تتعلق بالاتراك، ولكن هؤلاء من الاجانب. وأنا أملك كذلك وقائع كثيرة عن حالات محلية تفوق الوقائع التي قام بها الاتراك. إنك تعرف اننا نفضّل الضرب خاصةً بالسوط والعصا. هذا شيء نتميز به إن صح التعبير. نحن لا نسمّر الناس من آذانهم، لأننا أوروبيون رغم كل شيء. ولكننا في مقابل ذلك نملك السياط والعصا، وما من أحد يستطيع أن ينتزعها منا. يظهر أن الناس في البلاد الأجنبية قد عدلت عن هذه الأساليب. فإما أن العادات هناك أصبحت أقرب إلى اللين، وإما أن القوانين النافذة هناك أصبحت لا تُجيز للإنسان أن يجلد أخاه الإنسان، على أن الإنسان قد وجد هنالك ما يعوّض به ما افتقده تعويضاً يتّصف بطابع محلّي خاص، فيبدو للوهلة الأولى مستحيلاً في بلادنا. على أن هنالك علامات تدل، والحق يقال، على أن أساليب التعويض هذه قد أخذت تتسرب إلينا منذ زمن، ولا سيما بفضل الحركة الدينية التي تنتشر لدى الطبقة الارستقراطية من مجتمعنا.

إنني أملك كتيبا شائقاً مترجماً عن الفرنسية يروي قصة إعدام مجرم في مدينة جنيف وقعت قبل خمس سنين. والقاتل شاب اسمه ريتشارد في الثالثة والعشرين من عمره، فيما أظن، قد ندم على فعلته واعتنق المسيحية قبل أن يصعد إلى المقصلة. وكان ريتشارد طفلا غير شرعي قام أبواه بتسليمه وهو في السادسة من عمره إلى رعاة في الجبال السويسرية. فقاموا بتربيته لكي يعمل لهم بعد ذلك. شبّ الصبي كحيوان صغير متوحش، والرعاة الذين تبنوه لم يعلّموه شيئاً، وأرسلوه يحرس القطعان منذ بلغ السنة السابعة من عمره دون أن يلبسوه او يطعموه تقريباً،

وذلك في جميع الفصول والأجواء، وكانوا يعاملونه هذه المعاملة دون أن يشعر ضميرهم بأي عذاب، لأن الصبي كان قد «أُهدي» إليهم كما يهدي شيئاً من الأشياء، فهم لذلك لا يعتقدون أن من واجبهم أن يُطعموه لقاء ما يقوم به من عمل. وقد روى ريتشارد أمام المحكمة، أنه كان يتفق له خلال هذه السنين، كالابن الضال الذي يحدّثنا عنه الإنجيل، أن يشتهي أن يأكل من ثمار الخرُّوب التي كانت تُعلف بها الخنازير المسمنة للبيع. ولكن لم يكن يُسمح له بذلك، وكان يُضرب إذا سرق بعضها من المذود. هكذا عاش ريتشارد سني طفولته وشبابه إلى الساعة التي شب فيها عن الطوق وشعر بأنه أصبح قويا وقادرا على أن يصبح سارقا.

وأصبح هذا المتوحش يجني رزقه في جنيف من العمل بأجر يومي، ولكنه كان ينفق ما يجنيه في السكر ويعيش حياة كريهة مستهجنة. وانتهى به الأمر إلى قتل رجل عجوز في سبيل أن يسلبه ما معه. وقد اعتُقل وحوكم وحُكم عليه بالإعدام. إن الناس ليسوا عاطفيين في تلك البلاد. وسرعان ما وجد نفسه في السجن محاطاً بقسيسٍ بروتستانتي وأعضاء جمعيات دينية مختلفة، وسيدات من مترئسات الأعمال الخيرية، الخ؛ فإذا هو أثناء مدة اعتقاله يُعلَّم القراءة والكتابة ويفسَّر له الإنجيل، ويُرد إلى الصواب، ويُلام ويقرع، ويؤنَّب ويوبخ، وتُشرح له العقيدة ويُلقَّن تعاليم المسيحية، فإذا هو يُعلن جهاراً في ذات يوم أنه نادم على فعلته وأنه تاب. وقد وجّه إلى المحكمة رسالة يصف فيها نفسه بأنه كان شيطاناً رجيماً، وأضاف إلى ذلك قوله إن الرب قد أدركه أخيراً برحمته فهداه إلى الحق وأتم عليه نعمته. وقد اهتزت المدينة كلها للأمر، فإذا جنيف الفاضلة العاقلة الحكيمة تغلي وتفور، وإذا جميع الناس في المجتمع الراقي، يريدون أن يزوروه في سجنه: حضنوه وعانقوه وقبّلوه، وقالوا له: «أنت أخونا وقد أدركت نعمة اللّه»، فكان ريتشارد يبكي حنانا ويكرر قوله: «نعم لقد أدركتني نعمة اللّه. كنت أثناء طفولتي وشبابي أحسد الخنازير على طعامها، وها هو ذا الرب يرسل إلي الآن

نعمته. سأموت في صلح مع اللّه»؛ فيجيبه الآخرون: «نِعْمَ ما تقول يا ريتشارد، ستموت متصالحاً مع الرب. لقد سفحت دماً فيجب أن تموت. صحيح أنك لم تكن مذنباً إذ كنت تجهل وجود الله أيام كنت تحسد الخنازير على علفها، وأيام كنت تُضرب إذا أنت سرقت بعض هذا العلف من مذودها (وأنت مخطئ في ذلك على كل حال لأن السرقة حرام)، ولكنك سفكت دماً فلا بد أن تموت.» وحان اليوم الأخير. فكان ريتشارد، وقد ضعف ضعفاً شديداً، ما ينفك يردد بغير كلل: «هذا أسعد يوم في حياتي، فإنني ذاهب الى ملكوت الرب»، وكان رجال الدِّين، والقضاة، والسيدات رئيسات الجمعيات الخيرية يرددون بعده متنافسين: «هذا أسعد يوم في حياتك، لأنك ذاهب إلى ملكوت الرب!». وقد رافق هذا الجمهور ريتشارد إلى المقصلة، فبعضهم يتبع عربة العار التي تقل الجاني راكباً وبعضهم يتبعها سيراً. ووقف الجميع أمام المقصلة، وأخذ الصياح يتعالى من كل مكان قائلاً: «مت أيها الأخ، مت في صلح مع اللّه، لأن نعمة اللّه قد أدركتك.» ودُفع ريتشارد إلى المقصلة تغمره القبلات، وأضجع عليها، وقُطع رأسه بصورة اخوية، لأن نعمة اللّه قد أدركته. أليس هذا شيئا يتميَّز بطابع خاص؟

لقد تُرجم هذا الكتيب عن اللغة الفرنسية، ترجمه أشخاص ينتمون إلى الأوساط اللوثرية والجمعيات الخيرية من أعلى طبقات المجتمع الروسي، وأرسلوا منه أعداداً ضخمة إلى جميع الصحف لتوزَّع مجاناً في سبيل تثقيف شعبنا. «إن حالة ريتشارد هذا شائقة بما تتصف به من طابع قومي. فنحن في بلادنا، والحق يقال، لا نقطع رأس رجل لأنه أصبح أخانا ولأن نعمة الله قد أدركته. ولكننا نملك شيئاً لا بأس به هو أيضاً. نحن في بلادنا نضرب ضرباً قاسياً مبرحاً، وقد أصبح هذا نوعا من تقليد تاريخي ومتعة مألوفة طبيعية مشروعة. لقد صوَّر نكراسوف، في إحدى قصائده، شقاء حصان كان الفلاح يضربه بالسوط على «عينيه الوديعتين»، من ذا الذي لم يشهد في يوم من الأيام منظراً كهذا المنظر الشائع كثيراً، «الروسي» إن جاز التعبير؟ إن ذلك الحيوان المسكين الضعيف الذي كان

يجر عربة مثقلة بأحمال فوق طاقته، قد سقط في الوحل ثم لم يستطع أن يتخلص منه. فيأخذ الفلاح يضربه ثم يضربه وهو يرفع سوطه في الهواء ويهوي به على الحيوان بضراوة وحشية وقسوة ويضاعف ضرباته دون أن يشعر بما يفعل، قائلاً: مهما «أصبحت ضعيفا أيها الحيوان، عليك أن تجر العربة حتى الموت!». وأخذ الحيوان يتخبط، فما كان من الفلاح وقد استبد به غضب أعمى، إلا أن أخذ يجلده على عينيه اللتين تتضرعان طالبتين الرأفة والرحمة، على «عينيه الوديعتين» العزلاوين اللتين لا تملكان ما تدفعان به عن نفسهما الأذى. واستطاع الحيوان بوثبة مستميتة قصوى أن يتخلص من سقطته فيقف على قوائمه فيستأنف سيره مرتعشاً مجللاً بالخزي والعار، لا يكاد يستطيع أن يتنفس، يتقدم بخطى متقطعة مقهورة تبعث الشفقة في القلب. إن أشعار نكراسوف هذه تحدث في النفس أثراً رهيباً. والأمر مع ذلك أمر حصان، ونحن نعلم أن الرب قد وهب لنا الخيول لتضربها، أو هذا على الأقل ما تعلّمناه من التتر الذين أورثونا السوط هدية تذكّرنا بهم.

ولكن البشر يُضربون أيضا. إنني أعرف حالة سيّد مرموق مثقف تعاون مع زوجته في ضرب ابنته الصغيرة وهي طفلة في السابعة من عمرها. لقد دوّنت الواقعة بجميع تفاصيلها. كان للعصا أشواك، فسُرّ الأب من ذلك أعظم سرور. قال: «لتشعرن بالعقوبة شعوراً أقوى» وأخذ يضرب ابنته. هناك أشخاص ـ وأنا أعلم ذلك علم اليقين ـ يسكرون من الضربات التي يكيلونها، ويبلغون من النشوة بها حد اللذة الجسدية، ويتمتعون بالضرب تمتعاً وحشياً متزايداً. ضُربت الصبية دقيقة، فخمس دقائق، فعشر دقائق، ضرباً ما ينفك يزداد قوة وضراوة. والصبية تصرخ وتبكي، ثم تقول مختنقة الصوت بدموعها: «بابا، بابا،!» وبمصادفة شيطانية غير لائقة، رُفعت القضية إلى المحكمة. واستعان الأبوان بمحام. ويسمي الشعب الروسي المحامي منذ زمن طويل: «ضمير يؤجّر نفسه». واخذ المحامي يصيح قائلا امام المحكمة: «ما هذا إلا حادث عادي من حوادث الحياة العائلية. أب أدّب ابنته، ومن عار هذا العصر الذي نعيش فيه أن تُرفع هذه القضية إلى المحكمة!».

وقد تأثر المحلفون أشد التأثر بأقوال المحامي، وأعلنوا حكمهم بالبراءة، وضج الجمهور فرحا حين سمع الحكم ببراءة الجلاّد. ولسوء الحظ أني لم اكن هناك، وإلا لاقترحت إنشاء صندوق إعانة، تكريماً لهذا الأب الجلاد! هذه لوحة جميلة يا أليوشا.

غير أنني أملك صوراً أخرى ربما كانت أجمل منها، وهي تتعلق خاصة بالأطفال من الروس. إليك قصة بنيّة في الخامسة من عمرها، غضب منها أهلها، وهم «أناس محترمون، موظّفون مثقّفون، نشأوا نشأة كريمة وأحسنت تربيتهم». أؤكد لك جازماً يا أليوشا أن هناك أناساً يشعرون بميل خاص إلى تعذيب الأطفال دون سواهم. إن هؤلاء الجلادين يبرهنون في تعاملهم مع سائر البشر على كثير من الدماثة والليونة، كما يليق ذلك بأوروبيين متعلّمين متنورين. ولكنهم يجدون لذة كبيرة في تعذيب الصغار، رغم محبتهم لهم بطريقة ما. إن منظر هؤلاء الاطفال الذين لا يُحسنون الدفاع عن انفسهم، ولا يعرفون كيف يشتكون، والى أين يذهبون، وبماذا يعتصمون، مع ما يتصفون به من ثقة ملائكية، يملك القدرة على إيقاظ القسوة الغريزية في نفوس أولئك الناس. لا شك أن في قرارة كل إنسان شيطانا نائماً، يلتذ بسماع صرخات ضحيته، تنطلق بكل قسوة، شيطان المرض الذي يلي عمل الشر.

لقد أنزل الأبوان المثقفان في ابنتهما المسكينة أنواعا من التعذيب لا يتصورها الخيال. كانا يضربانها ويجلدانها ويدوسانها بدون أي سبب، حتى أنهك جسم البنية المسكينة وامتلأ بقعاً زرقاء. وشيئاً فشيئاً توصلا إلى صور من القسوة فيها كثير من التفنن. من ذلك أنها كانت لا تطلب الخروج لقضاء حاجاتها في حينها (كأن طفلا في الخامسة من عمره يستطيع دائماً أن يستيقظ من نومه الهادئ العميق في الوقت المناسب للذهاب إلى المرحاض)؛ وكانا يلطّخان لها وجهها بغائطها نفسه «لتربيتها»، ويجبرانها على أن تبلعه، وكانت أمها، هي التي تفعل ذلك. وكانت هذه الأم تستطيع أن تنام بعدئذ نوماً هادئاً دون أن تهزها صرخات طفلتها السجينة

في ذلك المكان الموبوء! فهل تستطيع أن تتخيل يا أليوشا ذلك الكائن الصغير الذي ما يزال عاجزاً على أن يفهم ما يجري له، هل تستطيع أن تتخيله لاطماً صدره المختنق بيديه الصغيرتين في غياهب الظلام والبرد ضارعاً إلى «الرب الرحيم» بدموع شقية بريئة أن يحميه؟ هل تستطيع أن تفهم ذلك ايها الصديق والاخ، أنت يا من تتهيأ لأن تكون راهباً ينذر حياته للرب تقياً متعبداً؟ هل تفهم لماذا يسمح بهذا الشر؟ يزعم بعضهم أن الوجود على هذه الأرض لا يمكن تصوُّره خاليا من الألم ومن الظلم اللذين يستطيعان وحدهما أن يهبا للإنسان معرفة الخير والشر! لماذا تلك المعرفة إذا كان ثمنها يكلف غاليا! إن كل ما في العالم من علم لا يكفي للتكفير عن دموع تلك الطفلة التي تتوسل إلى «الرب الرحيم» أن ينجدها. لن أقول شيئاً عن الآلام التي يعانيها الكبار. فإن الكبار قد أكلوا الثمرة المحرمة، فليجنوا جزاء ما فعلوا، وليأخذهم الشيطان جميعا. أما الأطفال الصغار الأبرياء، فما ذنبهم؟ ألاحظ أنني أعذبك بهذا الحديث يا أليوشا. إن في وجهك حزناً وشقاء. سأصمت عن الكلام إن شئت».

تمتم أليوشا يقول: لا . . . إنني أحب أن اتألم أنا ايضاً.

لن أقص عليك إلا قصة واحدة أخرى، لأنها شائقة جدا، ولأنها تتسم بطابع مميز حقا، لقد قرأتها منذ زمن قصير في مجلة «الآثار الروسية»، لقد نسيت الاسم، فيجب التحقق من ذلك. لقد وقعت هذه القصة في أحلك عهود الرق عند بداية هذا القرن. عاش محرر الشعب! كان يعيش في ذلك الزمان جنرال له علاقات ارستوقراطية، ويملك أطيانا واسعة. وهو واحد من أولئك الرجال (وقد أصبحوا قلّة نادرة حتى في ذلك الزمان) الذين يعتقدون حين يحالون على التقاعد أنهم بما قدّموا للدولة من خدمات قد أصبح لهم على اقنانهم حق الحياة والموت. لقد وُجد أمثال هؤلاء في الماضي.

كان ذلك الجنرال يعيش في أراضيه التي يعمّرها ألفان من الأقنان. وكان يصطنع العظمة، وينظر نظرة استعلاء إلى جيرانه المتواضعين، متظاهراً بأنه يُعدُّهم

مهرّجين أو طفيليين. وكان يملك بضعة مئات من كلاب الصيد لها ما يقرب من مائة خادم يجرون وراءها على خيولهم، لابسين زياً واحداً. ففي ذات يوم كان قن صغير هو صبي في الثامنة من عمره يتسلّى برمي الأحجار، فاذا به يصيب بأحدها الكلب المفضل لدى الجنرال سهواً وغفلة. وسأل الجنرال مستطلعاً: «لماذا يعرج هذا الكلب الذي هو خير كلابي؟» فقيل له إنه قد جرح بحصى رماها ذلك الصبي. قال الجنرال وهو يتفرس في الصبي: «هل أنت السبب؟». ثم أضاف: «احبسوه!». انتزع الصبي من أمه، وألقي في زنزانة مظلمة ضيّقة لبث فيها طول الليل. وفي ساعة مبكرة من صباح الغد تهيأ الجنرال للذهاب إلى الصيد في احتفال عظيم. إنه يمتطي صهوة جواده وقد أحاط به طفيليُّوه وكلابه وخدمه الذين يجرون وراء الكلاب يطاردون الفرائس، وقد امتطوا صهوات خيولهم جميعا. وأمر الجنرال بجمع الخدم في الحوش لتلقينهم درساً، وجُعلت أم الصبي الجاني في أول صف من صفوفهم.

أُخرج الصبي من زنزانته. كان ذلك في صباح كالح بارد يملؤه الضباب، يوم من أيام فصل الخريف، صباح يبشّر بصيد وافر. وأمر الجنرال بأن تُخلع عن الصغير ثيابه فخُلعت حتى صار عاريا، وكان يرتعش مصفراً من الخوف، ولا يجرؤ أن يفتح فاه.. قال الجنرال آمراً: «اجعلوه يركض»، فأخذ المطاردون يدفعون الصبي قائلين له: «أركض، أركض» فأطاع الصبي أمرهم وأخذ يركض، فإذا بالجنرال يعول صائحا: «عليه!» مهيباً بكلابه أن تطارده، فانطلقت الكلاب تمزق جسم الصبي على مرأى من أمه. أعتقد أن الجنرال قد حُجر عليه بعدئذ. فما رأيك؟ أما كان يستحق أن يُعدم رمياً بالرصاص؟ ألم يكن من الضروري إعدامه تهدئة للضمير الأخلاقي؟ هلا أجبت يا أليوشا!.

قال أليوشا بصوت خافت وهو يرفع عينيه نحو أخيه ويرسم على شفتيه المرتعشتين ابتسامة ضعيفة: نعم كان يجب رميه بالرصاص.

فصاح إيفان يقول بنوع من الحماسة: مرحى! ما دمت تقر بذلك، أنت

بنفسك، فأنت راهب جيد! ذلك هو الشيطان الذي تحتفظ به في قلبك يا أليوشا كارامازوف!.

قال اليوشا: لقد قلت سخافة، ولكن..

صاح ايفان: هذا هو الأمر: ولكن... فأعلم أيها الراهب المبتدئ أن السخافات لازمة لوجود هذا العالم. إن العالم يقوم على سخافات بدونها قد لا يوجد شيء. نحن نعلم ما نعلم!.

ـ ماذا تعلم؟

استأنف ايفان كلامه قائلا في هذيان: لست أفهم شيئا. أريد أن أكتفي بالوقائع. لقد قررت منذ زمن طويل أن لا أحاول تأويلها. فلو حاولت أن أفهم، لشوّهت الوقائع فوراً، وأنا أحرص على أن أبقى في الواقع لا أخرج منه.

صاح أليوشا يقول بمرارة: «الماذا تجرّبني؟ هلا قلت لي ماذا تعني في نهاية الامر؟»

سأقول لك. ذلك ما كنت أريد الوصول إليه منذ البداية. أنت عزيز في نفسي يا أليوشا، ولا أريد أن أتنازل لصاحبك زوسيما بدون كفاح.

قال ايفان ذلك وصمت لحظة مظلم الوجه، ثم أردف يقول:

أصغ الي الآن. لقد اخترت لأمثلتي أطفالاً حتى يكون برهاني أكثر اقناعاً. ولن أقول شيئاً عن سائر الدموع الإنسانية التي تتبلل بها الأرض، إنني أحصر موضوع مناقشتنا بصورة متعمدة. ما أنا إلا حشرة صغيرة من الحشرات. وإنني لأعترف ذليلا كل الذل بعجزي عن فهم نظام هذا العالم. هل يجب أن نؤمن بأن البشر مسئولون وحدهم عن شرورهم؟ لقد وُهبت لهم الجنة، ولكنهم آثروا أن يتالوا حريّتهم واختطفوا النار من السماء، وهم يعلمون سلفاً أنهم بذلك يجلبون لأنفسهم الشقاء، فلا داعي إذن إلى أن نشفق عليهم ونرثي لحالهم. ولكن عقلي، عقلي المسكين الاقليدي الأرضي يؤكد لي، على عكس ذلك، أن العذاب موجود

دون أن يكون هنالك مذنبون، وأن جميع الأفعال الإنسانية ينحدر بعضها من بعض بالضرورة، وأن كل شيء ينقضي آخر الأمر، وأن التوازن يقوم مرة أخرى من تلقاء نفسه. ذلك على الأقل «وهم اقليدي»، أعرف هذا... وأنا لا أقبل أن أحيا في عالم مثل هذا العالم. فيم يهمني أن أعلم أنه ليس هناك مذنبون؟ إنني بحاجة إلى عدل، وإلاّ دمرت نفسي. وهذا العدل الذي أطالب به، أنا لا أريده في «لا نهاية» لا يمكن الوصول إليها، وفي «أبدية» تفوتني، وإنما أريد أن أراه بعيني على هذه الأرض. لقد آمنت، وأريد أن أشهد انتصار الحقيقة! فإذا كنت ميتاً ساعة انتصارها فلأُبعث حياً! لسوف يُسيء إلي كثيراً أن يتحقق هذا المجد للإنسان في غيابي. هل تألمت أنا من أجل أن أمهد الطريق بخطاياي وآلامي لانسجام مقبل لن ينتفع به إلا آخرون؟ إنني أريد أن أرى الحَمَلَ بعينيّ يستلقي أمام الأسد في هدوء وسلام، وأن أرى الضحية مرتدة إلى الحياة تعانق قاتلها. أريد أن أكون حاضراً حين ينكشف سر هذا العالم للجميع. إن هذا الانتظار هو القاعدة التي تقوم عليها جميع الأديان، وأنا أومن.

ولكن الأطفال ما ذنبهم؟ كيف نسوغ عذاب الأطفال؟ تلك مشكلة لا أجد إلى حلّها سبيلاً. أعود فأقول لك للمرة المائة: إن هناك في هذا العالم مشكلات كثيرة، ولكنني اخترت مشكلة الأطفال، لأنها تتيح لي أن أعبّر عما يشغل بالي ويقض مضجعي تعبيراً واضحا. قل لي: إذا كان على البشر أن يتألموا من أجل أن يمهدوا بألمهم للانسجام الكلي، فلماذا يجب أن يتألّم الأطفال أيضا؟ لماذا حُبس الأطفال في هذه الدائرة، لماذا يجب عليهم هم أيضا أن يساهموا في الانسجام بعذابهم؟ ذلك أمر لا سبيل إلى فهمه اطلاقاً. ماذا جنوا حتى يجروا في هذه الزوبعة؟ قد أُسلّم عند الاقتضاء بتضامن البشر في الخطيئة، وتضامنهم في التكفير عنها، ولكن الأطفال لا يشاركون في الخطيئة. فإن قيل إنهم يحملون في أجسادهم خطايا آبائهم، وانهم متضامنون مع آبائهم في هذه الخطايا قلت: هذه حقيقة لن تكون من هذا العالم على كل حال، ولا يمكن أن يُدركها عقل! رُبَّ مازح خبيث يعترّض بقوله إن الطفل سيشتد ساعده وسيرتكب الخطيئة متى حان الوقت. ولكنني

أقول إن ذلك الصبي الذي ما يزال في الثامنة من عمره، لم يشتد ساعده بعد وقد مزقته الكلاب!

آه يا أليوشا، انني لا أجدف. إنني أتخيل كيف سيتهلل الكون فرحاً حين تدوي أصوات السماء والأرض جميعا منشدة للخالق نشيد الشكر معاً، وحين يهتف جميع الأحياء وجميع من كانوا أحياء قائلين: «أنت على حق يارب وقد فهمنا طرقك!». سوف تعانق الأم عندئذ الجلاد الذي أمر الكلاب بتمزيق ابنها، وسوف يقول الثلاثة عندئذ من خلال دموع الحنان، أنت على حق يارب. ستنجلي عندئذ جميع الأسرار وسيكون ذلك اليوم يوم تمجيد المعرفة. ولكن ذلك بعينه هو العقدة لأنني لا أقبل هذا الحل، وأنا أسارع إلى اتخاذ إجراءات ما دمت في هذا العالم. قد يحدث يا اليوشا حين أشهد ذلك الانتصار أن أُصبح أنا أيضاً مع الجميع، إذ أرى الأم والجلاد والطفل يتعانقون ويتصالحون: «أنت على حق يارب!». ولكنني لا أريد أن أفعل ذلك وأحرص على أن أحمي نفسي سلفاً من ذلك الاستسلام، ولهذا السبب تراني أتنازل تماما عن الانسجام الأعلى. إن هذا الانسجام لا يعادل في رأيي دمعة واحدة من دموع ذلك الطفل المعذَّب، الذي كان يلطم صدره بقبضتي يديه في مكان مويوء، ويضرع إلى الله الرحيم من خلال دموعه التي لا يكفِّر عنها شيء. نعم ما من انسجام مقبل سيكفِّر عن تلك الدموع، ولا بد من التكفير عنها، وإلا فلا يمكن أن يقوم الانسجام. ولكن بماذا يمكن التكفير عنها؟ ما الذي يمكن أن يمحوها؟ أهو القصاص الذي سينزل بالجاني؟ فما قيمة هذا القصاص؟ فيم يهمني هذا القصاص؟ أنني لا أريده! إنني لا أطالب بتعذيب الجلادين في الجحيم. إن جهنم لن تغيِّر من الأمر شيئاً، ولن تنفي أن الطفل قد عُذِّب. وأين عسى أن يكون الانسجام إذا كان ثمة جحيم؟ إنني أحب أن أغفر وأن أصالح. إنني أتمنى أن لا يبقى في الكون عذاب.

فإذا كانت دموع الأطفال أمراً لا بد منه ولا غنى عنه، لإكمال مقدار الألم الذي سيكون ثمنا للحقيقة، فإنني أعلن جازماً أن الحقيقة لا تستحق أن يُدفع ثمنها

باهظاً إلى هذا الحد، إنني لا أريد أن تُصالح الأم الجلاد الذي أمر كلابه بتمزيق جسد إبنها. ليس من حقّها أن تغفر له. لها أن تتغاضى عن ألمها هي، عن عذاب الأم العظيم الذي قاسته، لها أن لا تحتج على الجاني إن شاءت، ولكن ليس لها أن تعفو عن التعذيب الذي نال ابنها حتى ولو عفا عنه ابنها. فإذا كان الأمر كذلك، إذا لم يكن من حق الضحايا أن تغفر، فأين الانسجام؟ قل لي: أين الانسجام؟ هل في الكون فرد يجب عليه ويحق له أن يغفر؟ إنني لا أريد هذا الانسجام. بل أرفضه حباً بالإنسانية. إنني أفضل أن تبقى آلام هذا العالم بغير تكفير. إنني أؤثر أن يظل ألمي بغير فدية، وأن يظل استياتي متأججاً بغير ارتواء، ولو كنت على خطأ. إن الثمن المطلوب للانسجام باهظ جداً، وهو فوق ما نطيق أن ندفع من ثمن. لذلك أسارع فأرد بطاقة الدخول، واذا كنت انسانا شريفا، يجب علىّ أن أردّها بأقصى سرعة، وذلك ما أفعله. إنني لا أجحد الرب يا أليوشا، وإنما أقتصر على أن أعيد إليه بطاقتي بكثير من الاحترام.

قال أليوشا بصوت رقيق وهو يخفض عينه: هذا تمرُّد.

فقال ايفان بلهجة نافذة مؤثرة: «العصيان؟ لا أحب أن تحكم عليّ هذا الحكم. إن من المستحيل على المرء أن يحيا في العصيان، وأنا أمرؤ يحرص على أن يحيا. أجبني عن سؤالي أليوشا، ولكن أجبني بصراحة. فإنني أحرص على جواب عن هذا السؤال: لو كنت مهندس المصائر الإنسانية وأحببت أن تبني عالماً تجد فيه الإنسانية السعادة والهدوء والأمن أخيرا، أفتشرع في هذا العمل، إذا علمت أنه لن يتحقق إلا إذا كان العذاب ثمنه، ولو لم يكن إلا عذاب إنسان واحد صغير بريء، هو مثلاً تلك الطفلة التي كانت تلطم صدرها بقبضتيّ يديها؟ لو كان البناء لا يمكن أن يقوم إلا على تلك الدموع التي لا فدية لها، تذرفها تلك البنية الصغيرة، لو كان ذلك ضرورة لا مناص منها، ولا يمكن أن يتحقق الهدف بدونها، أفتظل توافق على أن تكون مهندس الكون في تلك الشروط؟ اخبرني، اخبرني الحقيقة.»

أجاب أليوشا بصوت هادئ: لا . . . لا أوافق.

وهل في وسعك أن تسلّم عدا ذلك بأن يقبل البشر الذين تبني لهم هذا العالم، أن يصبحوا سعداء على حساب آلام طفل بريء ودمائه، وأن يعرفوا السعادة إلى الأبد بعد أن يقبلوا ذلك.

لا . . . لا أستطيع أن أسلّم بهذا يا اخي. كذلك قال أليوشا ثم صاح فجأة، وقد سطعت عيناه: «لقد قلت منذ لحظة: هل في الكون كائن في وسعه ومن حقه أن يغفر؟ إن هذا الكائن موجود يستطيع أن يغفر كل شيء، وأن يغفر لجميع الناس، لأنه وهب هو نفسه دمه البريء للإنسانية بأسرها. لقد نسيته أنت، وهو الذي يقوم عليه البناء كله، وهو الذي يقع عليه أن يصيح: «أنت على حق يارب فلقد أدركت طرقك».

آه . . إنك تتكلم عن «ذلك المبرأ وحده من الخطيئة وعن دمه!» لا يا أليوشا أنا لم انساه، وأنه ليدهشني أن تنتظر هذه المدّة الطويلة قبل أن تستشهد به، فأمثالك في العادة يبرزون هذه الحجّة منذ بداية المناقشة. إسمع يا أليوشا: هل تعلم أنني نظّمت قصيدة قبل عام تقريبا؟ لا تسخر مني. فإذا وافقت على أن تضيع في صحبتي بضع دقائق أخرى قلت لك هذه القصيدة.

ـ لقد كتبت قصيدة؟

ضحك ايفان قائلا: كلاّ انا لم أكتبها، ولم أكتب أي بيت من الشعر في حياتي. ولكني كتبت هذه القصيدة النثرية وأنا لا ازال اتذكرها. لقد كنت سارحا في الخيال عندما نظمتها. ستكون أنت أوّل من يسمعها. . هذه هي أيها المستمع.

ثم ضحك ايفان وقال: لماذا يجب أن يكون للمؤلف مستمع واحد؟ هل عليّ أن اقولها لك.

رد اليوشا قائلا: كلّي آذان صاغية لك.

تُدعى قصيدتي «المفتّش الكبير»، إنها شيء تافه، ولكني أريد أن ألقيها عليك.

هذا هو حلم هذياني او كابوس ايفان كارامازوف. ومن المحتمل أن يكون هذا النص فريدا من نوعه في الادب العالمي، كمحاولة لتصوير تعبير «الأنا»الحرّة عن نفسها لدى الملحد الواعي الذي يعرف عن اللّه أكثر من معظم المؤمنين. وللحلم صلة خفية بالرواية بصورة عامة. ويعاني ايفان من مرض الحمّى الدماغية وهو مرض جسدي ناتج عن ظروف خارجية، ولكن هلوساته تعبّر عن المضمون العاطفي العميق في لاوعيه.

وكان ايفان قد عانى من هزّة داخلية بعد بدء مرضه مباشرة. فقد اعترف له سمردياكوف، الخادم والابن غير الشرعي لوالد ايفان المقتول، بأنه هو الذي قتل كارامازوف الاكبر، وليس أخي ايفان غير الشقيق ديمتري الذي كان في السجن بسبب الجريمة. ولكي يبرهن صحة اعترافه سلّم سمردياكوف الى ايفان ٣٠٠٠ روبل التي من اجلها اقتُرفت جريمة القتل. واستمر يقول له بأن ايفان نفسه هو الذي حرّضه بشكل رئيسي على ارتكاب هذه الجريمة. ولم يكن هذا العمل نتيجة لالحاده وانكاره المستمر لوجود اللّه، ولكن الامر أكبر من ذلك، فلقد اقتنع سمردياكوف بشكل ثابت بعد محادثة مع ايفان قبل جريمة القتل، أنه بارتكابها سيكون يعمل حسب رغبات ايفان الكاملة. ولا يمكن لايفان أن يشك في صدق هذه الاعترافات. وبناء على ذلك يرى نفسه فجأة كقاتل ابيه. ولكي يهرب من اليأس فإنه الآن بحاجة الى اللّه الذي لم يكن على استعداد للاعتراف به من قبل.

أحسب أنه قد آن لي، رغم أنني لست طبيباً، أن أقدّم للقارئ بعض

الإيضاحات عن طبيعة مرض ايفان. ولا أريد أن أستبق الاحداث، سأقتصر على أن أقول هنا إنه كان في ذلك المساء نفسه على أهبة أن يُصاب بنوبة حمّى في دماغة. تغلّب المرض أخيراً على جسمه الضعيف الذي كان مع ذلك ما يزال يقاوم مقاومة عنيفة. ورغم جهلي بالطب، فسوف أجازف فأفترض أنه كان قد استطاع، بفضل توتُّر إرادته توتراً شديداً، أن يتغلّب ـ إلى حين ـ على ذلك المرض الذي كان يدمّره، آملاً أن يقضي عليه فيما بعد، كان يعرف أنه مريض، ولكنه يكره أن يكون مريضاً في هذه الآونة التي يجب عليه فيها أن يملك جميع قواه، ليتكلّم بحرّية ووضوح، «ليبرر نفسه أمام نفسه».

ذهب إلى الطبيب الذي وصل من موسكو منذ مدة قصيرة، والذي استدعته كاترين ايفانوفنا بدافع النزوة وحدها، كما سبق أن ذكرت. وبعد أن أصغى الطبيب إلى كلام ايفان، وبعد أن فحصه، انتهى إلى أنه مصاب باضطراب دماغي، ولم يستغرب الاعتراف الذي اعترفه له ايفان على مضض. وقال له الطبيب: «من الممكن جداً أن توافيك هلوسات، رغم أن الأمر يحتاج إلى مزيد من التأكيد... وكيف كان الحال، فيجب عليك أن تشرع في معالجة نفسك بدون إبطاء، خشية حدوث أسوأ العواقب». ولكن ايفان فيدوروفتش، حين خرج من عيادة الطبيب، قرّر أن لا يلقي إلى هذه النصيحة بالا، وأن يأوي الى الفراش، ثم أهمل العلاج. قال يحدّث نفسه: «ما أزال قادراً أن أمشي، وما أزال أملك من القوة ما يمكّنني من أن أسعى مهتماً بشؤوني. ويوم أنهار وأسقط فليصنعوا بي ما يشاءون، ويعاملوني كما يحلو لهم». بهذا ختم كلامه.

جلس ايفان وهو يُدرك في تلك اللحظة أنه في حالة هذيان. وكان كما قلت منذ هنيهة يحدّق تحديقاً قوياً إلى شيء موجود قرب الجدار المقابل من الغرفة. ذلك أنه على الكنبة المستندة إلى ذلك الجدار، كان قد ظهر منذ هنيهة شخص دخل الغرفة لا يدري الا اللّه كيف، لأن هذا الشخص لم يكن موجوداً حين دخل ايفان غرفته عائداً من عند سمردياكوف. إن هذا الشخص سيّد روسي، أو ما يشبه

ذلك، متقدّم في السن قليلاً، يناهز الخمسين من العمر، كما يقول الفرنسيون. له شعر قاتم طويل كثيف أشيب في بعض المواضع وكذلك لحيته الصغيرة المدببة. وهو يرتدي صدرية قديمة بنيّة اللّون، رائعة التفصيل، بليت «موضتها». لا شك أن عمر ثيابه ثلاث سنين، ولا يرتدي اليوم مثل هذه الثياب أحد بين رجال المجتمع الثري. إن القميص والكرافته الطويلة التي تشبه أن تكون منديلاً، أنيقان أيضاً، وهما مما يلبسه في العادة سادة يهتمون بهندامهم، ولكنك تشك في نظافتهما إذا أنت أمعنت فيهما النظر من قرب. تبدو الكرافته مهترئة، ويرتدي الزائر سروالاً ذا مربعات، من النوع الجيد، رغم أن لونه فاتح جداً، وضيّق قد اندثرت موضته. ويصدق هذا أيضاً على قبعته المصنوعة من لباد أبيض لا يناسب هذا الفصل البارد من فصول السنة.

خلاصة القول أن الرجل يبدو سيداً محترماً لكنه لا يملك إلا موارد محدودة. فلا شك أنه ينتمي إلى فئة ملاّكي الأراضي القدماء الذين كانت أوضاعهم مزدهرة في عهد العبودية. وهو يجيد الآداب الاجتماعية، فلا شك أنه خالط المجتمع الراقي، وما يزال محافظاً على بعض العلاقات والصلات. غير أن هذا السيّد، وقد صار شيئاً بعد شيء إلى فقر سببه تبذيره في إبّان شبابه، وإلغاء نظام العبودية في الآونة الأخيرة، حيث أصبح طفيلياً يتنقل بين أصدقائه وأصحابه القدامى فيحسن هؤلاء استقباله لما يتحلّى به من طبع دمث وتربية حسنة، حتى لقد كان من الممكن استقباله في المآدب على الموائد بصحبة أعلى الناس قدراً وأوسعهم جاهاً، شريطة أن يعيّن له مكان متواضع بطبيعة الحال. وإن الطفيليين الذين هم من هذا النوع، الذين يرجعون إلى محتد طيب ويملكون طبعاً حلواً ويعرفون رواية الحكايات والنوادر، ويجيدون المشاركة في لعبة بالورق، ولا يترددون عن القيام بالخدمات عندما يرجون أن يقوموا بها، إن هؤلاء يكونون في أكثر الأحيان أرامل أو عازبين. وقد يكون لهم أولاد، لكن أولادهم يعيشون دائماً بعيداً عنهم، تربيهم عمّةٌ أو خالة يتحاشى السيّد أن ينطق باسمها، كأنه يخجل أن تكون له قرابة كهذه

القرابة. وينسى هؤلاء السادة أولادهم تقريباً بمرور الزمن، ويتلقّون منهم في أحيان متباعدة تهنئات بأعياد ميلادهم أو بأعياد الميلاد، وقد يردُّون على هذه التهنئات وقد لا يردُّون.

كان الزائر لطيف الهيئة، محبب الوجه، يشعر المرء أنه قادر على التأقلم مع الظروف في اي لحظة. ولم يكن يحمل ساعة، ولكنه في مقابل ذلك يضع على عينه نظّارة لها حمّالة من صدف، مربوطة بشريط أسود، وكانت إصبعه الوسطى تزدان بخاتم كبير من ذهب، له فص من حجر بخس الثمن.

تأمّل ايفان زائره الدخيل بعين مرتابة محاذرة، ورفض أن يبدأ الحديث. كان يبدو على ضيفه أنه ينتظر، ويلتزم وضع الاحترام الذي يلتزمه طفيلي هبط من الغرفة المخصصة له في الطابق الأول ليشرب الشاي مع صاحب الدار ويقضي الوقت بصحبته، حتى إذا رأى رب الدار غارقاً في تأملاته متعكّر المزاج، أمسك عن الكلام ما لم يبادره بالخطاب رب الدار. ومع ذلك يدرك المرء أنه مستعد للاندفاع في حديث لطيف كيّس حلو متى أُتيحت له الفرصة. وفجأة أصبح وجه الزائر يعبّر عن همٍ، وقال يخاطب ايفان:

«اعذرني إذا أنا ذكّرتك بذلك: لقد زرت سمردياكوف على نيّة أن تعرف تفاصيل زيارة كاترين ايفانوفنا له، ولكنك تركته دون أن تعرف شيئا. أغلب الظن أنك نسيت...»

هتف ايفان يقول وقد أظلم وجهه: «صحيح، صحيح لقد نسيت ...» ثم دمدم يقول وكأنه يحدّث نفسه: «لا بأس الآن، سيتم هذا كلّه غداً». ثم استأنف يقول في حنق وهو يلتفت إلى زائره: «أمّا أنت فأعلم أنني أدركت بنفسي هذا النسيان الذي كانت روحي بسببه قلقة معذّبة. ما تدخُّلك أنت في الأمر؟ أتراك تتخيل أنك أنت الذي ذكّرتني مع أنني تذكّرت من تلقاء نفسي؟».

قال السيّد المهذب وهو يبتسم ابتسامة عذبة جداً: «يستوي أن أكون أنا الذي

ذكّرتك، وأن لا أكون. إن الإيمان الذي يتم بقسر وإكراه لا قيمه له. ثم إن البراهين لا يمكن أبداً أن تصلح أساساً يقوم عليه الإيمان، ولا سيّما البراهين المادية. إن القدّيس توما لم يؤمن لأنه رأى المسيح يُبعث، بل لأنه كان ظامئاً إلى الإيمان قبل ذلك. أنظر مثلاً إلى الذين يدعون بالأرواح... أنا من جهتي أحبهم كثيراً... تخيّل أنهم يتصوّرون أنهم ينفعون الدّين، لأن الشيطان يُظهر لهم قرونه من حين إلى آخر». فانظر إلى هذا التفكير: يؤمنون بالعالم الآخر ويريدون براهين مادية. ثم ... هبهم برهنوا على وجود الشيطان، فهل يترتب على ذلك أن اللّه موجود أيضاً؟ فلي نيّتي أن أنتسب إلى جمعية من جمعيات المثاليين لأنشئ فيها حزباً معارضاً. سأقول لهم: «أنا واقعي، لا مادي...!»

قال ايفان وهو ينهض فجأة عن الطاولة: إسمع. يخيّل إليّ أنني الآن أهذي... أنا أهذي يقيناً... فتكلّم واكذب ما شاء لك هواك... سيّان عندي ... لن تفلح في إثارة غضبي وغيظي كما فعلت في المرة الماضية. ولكنني أشعر بخجل وعار... لا أدري لماذا... أتمنى أن أمشي في الغرفة... هناك لحظات تغيب فيها عني، فلا أراك ولا أسمع صوتك، تماماً كما في المرة الماضية، ولكنني أحزر دائماً ما ستقوله لي، «لأنني أنا، أنا نفسي، الذي أنطق بهذه الأقوال، لا أنت»! وإني أتساءل من جهة أخرى هل حلمت في المرة الماضية، أم أنت ظهرت لي في الواقع أثناء اليقظة؟ سأغطّس هذه الخرقة في الماء البارد فأضعها على رأسي، فلعلّك تختفي عندئذ.

اتجه ايفان نحو زاوية الغرفة، وتناول فوطة وبللها بالماء ووضعها على جبينه. وأخذ يمشي بعد ذلك في الغرفة طولاً وعرضاً.

قال الزائر: يسرّني حقاً أن نتحدث الآن بدون حرج.

فأجابه ايفان ضاحكاً: الا أنك لغبي! أتراك تتخيّل أنني سأكون رسميا في مخاطبتك؟ أنا في هذه اللحظة منشرح النفس منطلق المزاج، غير أنني أشعر بأوجاع في رأسي... وفي قمّة رأسي ... فأرجوك أن لا تتحدث بالفلسفة كما فعلت في

ذلك اليوم. إذا لم يكن في وسعك أن تغيب، فتكلّم في أمور مسلّية، تحدّث عن الشائعات. ذلك يناسبك ويليق بك ما دمت طفيلياً. يا لك من كابوس فظيع! ولكنني لا أخاف منك، سأنتصر عليك آخر الأمر. لن أسمح بذهابي إلى مستشفى المجانين.

كلام جميل! أنا طفيلي؟ حقاً، ذلك هو حالي الطبيعي. هل أنا في الواقع إلاّ طفيلي؟ بالمناسبة: لقد شعرت حين أصغيت إلى كلامك بشيء من الدهشة والاستغراب. لكأنك أخذت تعدُّني شيئاً واقعاً لا شبحاً من صنع خيالك كما زعمت في المرة الماضية بعناد وإصرار...

هتف ايفان يقول حانقاً: ما وعدتك شيئا واقعا في لحظة من اللحظات. أنت تكذب. إنك مرضي. ما أنت إلا شبح. ولكنني لا أعرف كيف أتحرر منك، وألاحظ أن عليّ أن اتحمّل حضورك زمناً. أنت هلوسة في دماغي المُتعَب. أنت تجسّد ذاتي، ولكنك تجسد جانباً واحداً من جوانب طبيعتي... إنك تمثل من أفكاري وعواطفي أسوأها وأغباها. وكان يمكن، من هذه الناحية ولهذا السبب، أن يعنيني أمرك قليلاً، وأن أهتم بك بعض الاهتمام، لو كان في وقتي متسع...

ـ لحظة ... لحظة، سوف أثبت ذلك. في هذا المساء، قرب مصباح الشارع، ثرت على أخيك أليوشا صارخا: «هل علمت هذا منه هو؟ فمن أين علمت أنه يزورني؟». لقد كنت تقصدني أنا إذن. معنى هذا أنك كنت خلال لحظة قصيرة تؤمن بوجودي، وتعدني شخصاً موجوداً في الواقع. قال السيد ذلك وهو يبتسم ابتسامة لطيفة.

ـ نعم، كانت تلك لحظة من ضعف طبيعي جداً... ومن المستحيل أن أكون قد آمنت بأنك واقع لا وهم. إني لأتساءل هل نمت أم سرت في الغرفة في المرة الماضية. فلعلني لم أرك عندئذ إلاّ في الحلم لا في الواقع.

ـ هلاّ قلت لي لماذا كنت قاسياً تلك القسوة كلّها مع أليوشا منذ قليل؟ إنه

فتىً لطيف غاية اللطف! وإني لأشعر بأنني آثم في حقه بسبب حكاية الأب زوسيما تلك.

هتف ايفان يقول ضاحكاً: أمنعك من ذكر اسم أليوشا. كيف تجرؤ أن تفعل ذلك أيها الدنيء.

ـ تشتمني وتضحك في آن واحد. هذه علامة حسنة. ثم إني ألاحظ أنك اليوم أرقى في معاملتك كثيراً مما كنت في المرة السابقة. إنني أفهم سبب هذا: هو ذلك القرار العظيم النبيل الذي اتخذته.

صرخ ايفان يقول وقد عصف به الحنق من جديد: حذار أن تقول كلمة واحدة عن قراري.

ـ أفهم، أفهم كل الفهم. هذا عمل نبيل ورائع. أنك تنوي أن تدافع عن أخيك، وأن تضحّي بنفسك في سبيله... هذه شجاعة!...

ـ أسكت وإلاّ هويت عليك ركلاً!

ـ لن أكون آسفاً ابداً. هذا يناسبني من جهة، وبه يتحقق هدفي. ذلك أن لجوءك الى استعمال العنف معي سيكون برهاناً على أنك أصبحت تؤمن بوجودي واقعاً لا وهماً. هل يركل أحد شبحاً؟ ولكن دعنا من هذه السخرية. إشتمني اذا كان يحلو لك ذلك... سيّان عندي... ولكن من الأفضل للمرء أن يكون على شيء من الأدب والكياسة والتهذيب حتى في معاملتي أنا. لقد وصفتني بأنني غبي ودنيء! فما هذه التعابير! عيب أن تصدر عنك هذه الألفاظ!

عاد ايفان يقول ضاحكاً: حين أضربك فإنما أضرب نفسي. ما أنت الا أنا.. أنت نفسي وروحي، ولكن في وجه غير وجهي. أنت لا تزيد طول الوقت على أن تعبر عن أفكاري وتُفصح عن خواطري في نفس اللحظة التي توافيني فيها هذه الأفكار والخواطر.. أما أن تقول لي شيئاً جديداً لا أتوقعه فذلك ما أنت عاجز عنه كل العجز!

ردّ عليه السيّد بوقار فيه رقة ورفاهة: اذا كانت الأفكار التي أعبر عنها هي أفكارك أنت أيضاً، فلا يسعني ألاّ أن أعتز بهذا التوافق بيننا.

ـ ولكنك لا تختار من أفكاري إلاّ أسوأها، و أغباها على وجه الخصوص. أنت غبي ودنيء. أنت غبي بصورة رهيبة، ولا أطيق أن أحتمل حضورك! ما العمل؟ ما العمل؟ كذلك هتف ايفان حانقاً.

استأنف الزائر كلامه قائلاً باعتزاز الطفيلي: أمّا أنا يا صديقي فأحرص على أن أبقى رجلاً مهذبا وأن أُعرف بذلك. صحيح أنني فقير، ولكن... دون أن أزعم أنني أشرف من غيري... أستطيع أن أقول إن من المسلَّم به في المجتمع عامة، أنني ملاك وقع في الخطيئة. شهد اللّه أنني لا أستطيع أن أتخيّل كيف أمكن أن أكون في الماضي ملاكاً. وهبني كنت في الماضي ملاكاً، فإن ذلك يرجع الى عهد بعيد لا ضرر في أنني نسيته. وكل ما أحرص عليه الآن هو أن يعرف أنني رجل لائق محترم. إنني أحب الناس حباً صادقاً، وطالما تم الافتراء علي. حين أجد نفسي بينكم من حين الى آخر، فإن وجودي يتخذ عندئذ صورة محسوسة واقعية، وذلك ما يحلو لي أكثر من أي شيء آخر. ذلك أنني أنا أيضاً مصاب مثلك بخيال مضطرب مختل، ولهذا فإنني أحب الواقعية في الأرض. إن كل شيء في نظركم محدد تحديداً دقيقاً، وإن كل شيء عندكم يتم التعبير عنه بصيغ معينة، فالهندسة هي الظاهرة المنتصرة. أما عندنا، فإننا نظل الى الأبد في معادلات غير محددة. أنا هنا أحلم وأتنزه. ما أكثر ما أحب أن أحلم. ثم أنني متى وُجدت على الأرض أصبحت أؤمن وأصدق الأوهام. لا تسخر مني، أرجوك: لشد ما يحلو لي أن أؤمن بالخرافات وأن أصدّق الأوهام. إنني أتعوّد جميع عاداتكم الدنيوية. لقد أصبحت أحب الاختلاء الى الحمّامات العامة، وأصبح يحلو لي أن أجد نفسي في حمّام البخار بين التجّار والقسس. أن أُخفي رغبة تجيش في نفسي هي أن أتجسد (ولكن تجسداً نهائياً لا عودة عنه) في زوجة تاجر سمينة بدينة تزن مائة باوند، وأن اؤمن بكل ما تؤمن به؛ وسيكون مَثلي الأعلى عندئذ أن أدخل كنيسة فأشعل شمعة

باندفاعة صادقة من القلب. سيكون ذلك خاتمة آلامي. وإني لأجد لذة كبيرة كذلك في أن أداوى كما تداوون. في هذا الربيع انتشر في البلاد وباء الجدري، فذهبت التمس أن القح كسائر الناس. لا تستطيع أن تتخيل مدى ما شعرت به من سعادة في ذلك اليوم. حتى لقد تبرّعت في تلك المناسبة بعشرة روبلات لمساعدة السلافيين المضطهدين!... ولكني ألاحظ أنك لا تصغي الى كلامي. إنك تبدو لي مريضاً جداً هذا المساء، هل تعلم؟ وأنا أعرف أنك ذهبت الى الطبيب أمس... فماذا قال لك الطبيب؟ كيف حال صحتك؟

فقطع ايفان أسئلته قائلاً: أبله!

ـ أمّا أنت فذكي جداً. لقد عدت الى الفظاظة: أنا لم أسألك عن صحتك من باب التعاطف معك والمودة لك، وإنما لأقول أي شيء. لا تجبني إن شئت. لقد عاد مرض الروماتيزم ثانية...

كرر ايفان قوله: أبله!

ـ ولكن هذا لا ينفي أنني أُصبت في السنة الماضية بأوجاع روماتيزم ما زلت أتذكرها حتى هذا اليوم.

ـ هل يمكن أن يُعاني شيطان آلام روماتيزم؟

ـ لِمَ لا يمكن ذلك، ما دمت أتجسّد أحياناً؟ انني أقبل جميع نتائج ذلك. «أنا شيطان، ولا شيء مما هو إنساني غريب عني».

ـ كيف؟ ما هذا الذي تقول؟ «أنا شيطان ولا شيء مما هو انساني...»، ليس هذا الكلام غباءً كبيراً حين يقوله شيطان!

ـ يسعدني أن أحظى أخيراً برضاك عني.

قال ايفان فجأة وقد توقف عن المشي، كأنما دهش وذُهل:

ولكنك لم تستعر هذه العبارة مني أنا! إن هذه الجملة الذكية لم تخطر ببالي في يوم من الأيام! هذا عجيب.

ـ كلام فيه جدّة وطرافة، أليس كذلك؟ على أنني سأكون أميناً شريفاً هذه المرة، فأشرح لك هذا اللغز... كثيراً ما يحدث في الأحلام، ولا سيّما الكوابيس التي تنشأ عن اضطراب في المعدة مثلاً، أو عن أي سبب آخر ـ أن تخطر أمام البصر مشاهد فنية جداً، وقطع حقيقية صادقة من الحياة بصورة عميقة ومعقدة، أحداث تربط بينها وتشد بعضها إلى بعض فكرة موجهة، وتملؤها تفاصيل غير متوقعة، تتراوح بين أعلى تجلّيات الوجود الإنساني كما تقولون، وأحقر السفاسف التافهة. إن القصص التي يعيشها المرء على هذا النحو في الحلم يمكن أن تكون لها قيمة فنية تبلغ من العظمة أن ليون تولستوي نفسه لا يستطيع أن يتخيلها. ومع ذلك فليس الكتّاب على وجه العموم هم الذين يرون أحلاماً من هذا النوع، إنما يرى هذه الأحلام أناس من طراز عادي جداً، أناس ليسوا أكثر من موظفين او صحفيين أو قسس... والحق أن هذه الظاهرة تثير مشكلة وتلقي سؤالاً: لقد صرّح لي احد رجال الدولة في ذات يوم أن أخصب الأفكار إنما توافيه عادة وهو نائم. ذلك بعينه هو ما يحدث لك في هذه الساعة. مهما تكن مجرد هلوسة صادرة عن دماغك، فهذا لا ينفي أنني أقول أشياء فيها جِدّة وطرافة وأصالة، كما يقع ذلك في كابوس. فأنا لا أردد إذن أفكارك أنت، ومع ذلك لست إلاّ كابوسك لا أكثر.

ـ كذبت! إن هدفك هو أن تقنعني بأن لك وجوداً واقعياً وبأنك لست مجرد رؤيا تتراءى لفكري. ثم ها أنت ذا تعلن بنفسك أنك لست حلماً.

ـ إعلم يا صديقي أنني قد اصطنعت اليوم اسلوباً جديداً وتبنّيت طريقة جديدة. سأشرح لك هذا في المستقبل إذا واتت الفرصة، لحظة ... الى أين وصلت في الحديث؟ ها... نعم... قلت لك إنني أُصبت ببرد. ومع ذلك لم يحدث هذا على الأرض، وإنما حدث هناك أيضاً..

ـ هناك؟ أين؟ قل لي: هل تنوي أن تمكث عندي زمناً طويلاً أيضاً؟ ألا ترتحل أخيراً؟

كذلك هتف ايفان وهو يشعر باليأس. وكف عن المشي وجلس على الديوان

متكئاً بكوعيه على المائدة، ضاغطاً رأسه بقوة. ثم نزع الخرقة المبللة عن جبينه ورماها بحركة أسف وحسرة: لم تنفعه هذه الوسيلة في شيء.

قال السيّد المهذب بلهجة منطلقة ومودة: أعصابك مضطربة. تثور عليّ لأنني أُصبت ببرد، مع أن هذا قد حدث لي على نحو طبيعي جداً. كنت قد وصلت الى حفلة استقبال دبلوماسية أقامتها سيدة عظيمة من سان بطرسبرج تستقبل شخصيات هامة ذات نفوذ في الوزارة. كنت مرتدياً أذن ثياباً رسمية مع كرافته بيضاء وقفازين. ولكنني كنت قد تأخرت، لأنني اضطررت أن أذهب قبل ذلك الى مكان ما، فكان علي حتى أصل اليكم على الأرض أن أقطع فضاوات واسعة بين الكواكب... المسألة مسألة ثوان طبعاً... ومع ذلك تعلمون اليوم أن أشعة الشمس تستغرق ثماني دقائق حتى تصل الى الأرض. كنت اذن ـ لا تنس هذا ـ ارتدي ثياباً رسمية مع صدرية مفتوحة جداً. إن الأرواح لا تتجلد من البرد، هذا معروف. غير أن تجسد الروح يعترضها أحياناً بعض العواقب السيئة. الخلاصة أنني ارتكبت في ذلك المساء شيئاً من الطيش والخفة حين مضيت في طريقي الى الأرض مرتدياً تلك الثياب. وليتك تعلم ما أشد البرد في تلك الفضاوات، في الأثير، هذا السائل... إنه برد فظيع، برد لا يكفي أن نقارنه بالصقيع هنا. الصقيع؟ هه... تصوّر أن درجة البرودة كانت مائة وخمسين تحت الصفر! أنت تعرف اللعبة التي تلعبها الفتيات في قراكم، فحين يشير الترمومتر الى الثلاثين تحت الصفر، يطلبن من فتى ساذج غير ذي خبرة أن يلحس بلسانه حديد فأس، فاذا بلسانه يتجلد فوراً، واذا بالغبي يسلخ جلد لسانه لينتزعه من الحديد. هذا إذا كانت درجة البرودة ثلاثين فحسب. أما اذا بلغت مائة وخمسين، فأحسب أنه يكفي أن تقرب إصبعاً من الفأس حتى تزول... شريطة أن يكون في الأثير فأسٌ طبعاً...

سأله ايفان بذهول وبلهجة متقززة: هل يمكن أن يكون في الفضاء فأس؟ كان ايفان يشد جميع قواه في سبيل أن لا يصدّق أنه يهذي، وذلك حتى لا يتردى الى الجنون نهائياً.

سأله الزائر مدهوشاً: فأس؟

فهتف ايفان يقول فجأة بعناد غاضب: نعم نعم، ما عسى يحدث للفأس هناك؟ يا لها من فكرة عجيبة. لو رميت الفأس الى مسافة بعيدة جداً عن الأرض، فأظن أنها ستأخذ تدور حول الارض هذه دون أن تعرف تماماً ما هو الهدف وأين المستقر، كما يحدث لقمر من الأقمار؛ وسيحسب علماء الفلك ساعة طلوعها وساعة مغيبها حساباً دقيقاً؛ وسيدوّن جانسوك ذلك في التقاويم، وهذا كل شيء.

ثم قال مغتاظاً: أنت غبي جدا. حاول أن تكذب بصورة ذكية على الأقل، وإلاّ كففت عن الاستماع اليك. إنك تحاول أن تقنعني عن طريق الواقعية في كلامك، وأن تجعلني بذلك أسلم لوجودك. ألا فاعلم أنني لا أريد أن أسلم بهذا، إنني أرفض أن أصدقه! لن اصدقه!

ـ أنا مع ذلك لا أكذب. إن كل ما أقوله حق. من سوء الحظ أن الحقيقة لا تكون مفرحة في يوم من الأيام. أنت مثلاً تتوقع مني، فيما ألاحظ، أفكاراً خارقة، وربما رائعة. يؤسفني هذا كثيراً، لأنني لا أستطيع أن أعطي إلاّ ما أملك...

ـ دعك من التفلسف، أيها الحمار!

ـ أفتظن إذن أنني اشتهي أن أتفلسف والجانب الأيمن كله من جسمي يكاد يكون مشلولاً؟ إني أتمنى بدلاً من ذلك، أن أئنّ وأتوجع! لقد استشرت عدداً من الأطباء، إنهم يملكون قدرة هائلة على تشخيص المرض، ويشرحونه بأدق التفاصيل... أما أن يشفوه فذلك أمر يعجزون عنه... حتى لقد أتيحت لي فرصة التحدث مع طالب متحمس من طلاب الطب، فقال لي فرحاً: «لو أنك مت من هذا المرض... لسوف يتيح لك ذلك في أقل تقدير أن تعرف على وجه اليقين حقيقة الداء الذي أمامك». وانظر بعد ذلك الى طريقتهم تلك في إرسالك إلى أخصائيين حين يقولون لك: «مهمتنا نحن تقتصر على تشخيص المرض. بقي عليك الآن أن تذهب إلى الأخصائي فلان أو فلان، فهو الذي سيشفيك».

واحسرتاه! إن الطبيب الجيّد القديم الذي عرفناه في الزمان الماضي وكان يداوي من جميع العلل والامراض قد اختفى تماماً، أؤكد لك!... لم يبق اليوم إلا الأخصائيون، والصحف ملأى بالإعلانات عنهم. إذا شعرت بالألم في الأنف، أرسلوك إلى باريس: يظهر أن في باريس أخصائياً له شهرة في أوروبا كلها، يعرف معرفة رائعة كيف يعالج كل ما له علاقة بالأنف. وتذهب إلى باريس فيفحص الأخصائي أنفك، فيقول لك: «أنا لا أستطيع أن أشفي إلا الجانب الأيمن، لأنني لا أهتم أبداً بالجانب الأيسر، فهو لا يدخل في دائرة اختصاصي. فعليك بعد اتباع معالجتي أن تذهب إلى فيينا حيث يوجد أخصائي حاذق جداً سيفعل لك ما يجب فعله لمعالجة الجانب الأيسر من انفك». ما العمل في هذه الحالة؟ لجأت عندئذ الى استعمال الأدوية الشعبية. وصف لي طبيب الماني أن أدلك جسمي بعد الحمام بمزيج من عسل وملح. ذهبت الى الحمامات العامة لا لشيء الا لاستمتع بوجودي مرة في حجرة البخار، وهنالك وسّخت جسمي بذلك المزيج اللزج الذي لم يُجْدِني نفعاً. فلما يئست كتبت الى الكونت ماتيه في ميلانو، فأرسل الي نشرة وقطرة. غفر اللّه له! تخيّل أن مستحلب الشعير الذي ينتجه «هوف» هو الذي شفاني تقريباً. اشتريته صدفة، فما شربت زجاجة ونصف زجاجة حتى شعرت بأنني شفيت، حتى لقد تمنيت أن أرقص. زالت أوجاعي كلها. فحلفت لأنشرن في الصحف رسالة شكر أطري فيها مزايا هذا الانتاج. كان يدفعني الى ذلك شعور صادق بالامتنان، ولكن لهذا قصة جميلة جداً! تخيل أنني لم أجد جريدة واحدة ترضى نشر رسالتي... قالوا لي: «إن تصريحك هذا يتصف بشيء من الرجعية. ثم إن أحداً لن يصدقك. فالشيطان لا وجود له». ونُصحت بأن أنشر شكري في رسالة لا تحمل اسم صاحبها. ولكن ما قيمة شكر لا يحمل اسم صاحبه؟ مازحت موظفي مكاتب تلك الجرائد، فقلت لهم: «إن الإيمان باللّه هو الذي يمكن أن يُعَدّ شيئاً رجعياً في زماننا هذا. أما أنا الشيطان، فإنه مباح تماماً أن أُصدق». فأجابوني بقولهم: «إننا نفهمك حق الفهم. فمن ذا الذي لا يؤمن بالشيطان؟ ومع ذلك يستحيل نشر رسالتك، لأن هذا مخالف للسياسة التي تلتزمها جريدتنا. اللهم إلاّ أن

تريد أن تسبغ على رسالتك طابع الهزل!». قلت لنفسي: «لا بد أن يخلو الأمر من روح الفكاهة اذا هو جعل هزلاً». وهكذا لم يُكتب لشكري أن يظهر في الصحف. هل تصدق؟ وقد بقيت هذه الحكاية تثقل على قلبي. إن أنبل عواطفي، كعاطفة الشكر مثلاً، قد حكم عليها أن تظل مكتومة لا أفصح عنها، بسبب وضعي الاجتماعي.

قاطعة ايفان مغتاظاً يقول: ها أنت ذا تسترسل في التفلسف من جديد!

ـ وقانا الله شر التفلسف. أنا لا أتفلسف البتة، وإنما يجوز للمرء أن يشتكي من حين الى حين. أنا كائن تُقال في حقي نمائم خطيرة. لقد اتهمتني أنت نفسك بأنني غبي. هذا موقف يقفه شاب. إعلم يا صديقي أن الذكاء ليس أهم شيء. لقد ولدت طيب السريرة مرح الطبع. «وقد كتبت أيضاً مسرحيات هزلية» . يبدو أنك تحسبني مثل «هلستاكوف» جديد، مع أن لمصيري شأناً أخطر من ذلك كثيراً. قبل بدء الزمان، وبقرار ما زلت أجهله، قدّر لي أن «أجحد»، مع أنني في حقيقة الأمر صادق النية طيب القلب عاجز عن الإنكار. «لا مفر، يجب عليك أن تنكر وأن تجحد رغم كل شيء. فبدون إنكار لا يكون هناك نقد، وكيف يمكن تخيل جريدة أو مجلة خيالية من زاوية موقوفة على النقد. إن الكون لن يكون بغير النقد إلاّ تسبيحاً متواصلاً. ولكن الحياة لا يمكن أن تقوم على تسبيح الله فقط، وعلى تمجيد خلقه فحسب. لا بد لاندفاع البشر الى شكر الله وحمده من أن يمر بحفرة الشكوك.» على أنني لا أطمع في أن أقضي برأي في هذا النظام، فلست أنا من تخيّله ووضعه، ولست مسؤولاً عنه البتة. كل ما هنالك أنني جُعلت كبش فداء، وأُمرت أن أقوم بوظيفة ناقد الى الابد. هكذا نشأت الحياة الأرضية. إننا نحن أيضاً نشعر شعوراً كاملاً بدناءة هذه المهزلة التي أُريد لنا أن نمثلها. وإني من جهتي أطالب بأن أستطيع الارتداد الى العدم. فأجاب: «بل يجب عليك أن تحيا، فبدونك لن يجري أمر. اذ لو كان كل ما على الأرض معقولاً، لما حدث في الأرض شيء البتة. بدونك لن يكون ثمة أحداث، وهل عن الأحداث غنى؟». أنا

إذن أقوم بوظيفتي محطّم القلب مهدود النفس، من أجل أن يكون ثمة أحداث، وأشيع الضلال في هذا العالم بأمر أعلى. والبشر المساكين يأخذون هذه المهزلة مأخذ الجد، رغم ما وُهب لهم من ذكاء عظيم. وذلك هو ما يجعل مصيرهم فاجعاً، وحياتهم أليمة. إنهم يتعذبون عذاباً لا نهاية له... هذا صحيح... ولكنهم في مقابل ذلك يحيون حياة واقعية، لا وهمية. لأن العذاب هو الحياة. ما عسى تصير اليه الفرحة بالحياة في هذا العالم إذا لم يوجد الألم؟ لن يكون هنالك عندئذ إلاّ نشيد متصل ولطف لا ينتهي. وذلك شيء نبيل ومقدس، ولكنه باعث على أشد الملل وأعمق السأم. وأنا؟ أنا أيضاً أتألم، ومع ذلك لا أحيا. أنا حرف «س» في معادلة غير ذات حدود، أنا شبح، أنا طيف أضاع فكرة الزمان، وانتهى حتى إلى نسيان اسمه الحقيقي. أتضحك؟ لا ... أنت لا تضحك... وإنما تغضب من جديد. إنك تغضب دائماً. إنك لا تريد أن تسمع إلا أشياء جيدة. ولكنني أعود فأقول لك: إنني مستعد لأن أتنازل، راضيا، عن حياتي السماوية، وعن جميع امتيازاتي العالية وألقابي الرفيعة، في سبيل أن أستطيع التجسُّد في نفس زوجة تاجر تزن ٢٥٠ باوند وتقدّم شموعاً الى هيكل للرب.

سأله ايفان وهو يبتسم ابتسامه حاقدة: هل معنى هذا أنك أصبحت لا تؤمن باللّه أنت أيضاً؟

ـ بم أجيبك؟ اذا كنت تلقي عليّ هذا السؤال جاداً...

صاح ايفان يسأله بعناد وحنق: هل اللّه موجود أم غير موجود؟

ـ ها... أنت جاد اذن؟ شهد اللّه يا صديقي العزيز أنني أنا نفسي لا أعرف عن هذا الأمر شيئاً. وهذا ما قلته قبل قليل .

ـ كيف لا تعرف عن هذا الأمر شيئاً مع أنك ترى اللّه بعينيك؟ لا، ليس لك وجود واقعي؛ أنت أنا... ما أنت إلاّ أنا، ... أنت دخان لا أكثر، أنت ثمرة خيالي أنا.

- بل قل إن فلسفتي هي فلسفتك. ذلك أصوب. : «أنا أفكر، فأنا إذن موجود»، تلك العوالم البعيدة، اللّه، والشيطان، لست أملك برهاناً على وجودهم، أهذه وقائع موجودة بذاتها، أم هي صادرة عن فكري تحققاً مادياً تدريجياً للأنا، لهذه الأنا التي لا يكون عندئذ وجود لسواها، والتي تكون قد وُجدت منذ الأبد؟... ولكني أمسك عن الكلام، لأنني أرى أنك تهم أن ترتمي عليّ لتشبعني ضرباً.

قال ايفان بلهجة فيها ألم: خير من هذا الكلام كله أن تروي لي نادرة فكهة أو نكتة مسلية.

- أعرف نادرة تتصل بموضوع حديثنا. والحق أنها ليست نادرة بالمعنى الأصلي، بل هي أقرب الى الأسطورة. إنك تأخذ عليّ امتناعي على التصديق، ويدهشك أن تراني لا أومن بالأسرار التي أبصرها بعينيّ. فاعلم إذن أن هذه الحالة ليست حالتي وحدي، وأننا جميعاً، نحن الذين نعيش في المناطق السماوية، تهزنا روح الاضطراب والقلق بسبب الاكتشافات العلمية. إنكم تفسّرون العالم بالذرة والحواس الخمس، والعناصر الأربعة، يظل الأمر مقبولاً بعض الشيء. ثم إن الأقدمين كانوا يعرفون الذرة. ولكن حين ذاعت بيننا الشائعة التي تقول إنكم قد اكتشفتم الذرّة الكيماوية، والبروتوبلازما، وما لا أدري أيضاً، فإن أصحابنا قد انتبهوا لذلك، وحدث في صفوفنا اضطراب نفسي شديد، وأصبحنا في فوضى شاملة، وانتشرت في بيئتنا الخرافات والأوهام. لاحظ أن عندنا نمائم بقدر ما عندكم وأكثر. ومنذ ذلك الحين أخذت الوشايات تُعيث فساداً في السماء. يجب أن تعلم، في هذه المناسبة، أن عندنا نحن أيضاً شرطة سرية تجمع بعض «المعلومات» ... والأسطورة التي سأرويها لك يرجع عهدها إلى قروننا الوسطى - أقول قروننا الوسطى نحن، لا قرونكم الوسطى أنتم - وهذه أسطورة أصبح لا يصدقها أحد منا الآن، باستثناء الزوجات اللواتي يزنّ ٢٥٠ باوند، ليست زوجاتكم القديمة بل زوجاتنا. إن كل ما يوجد في الأرض يوجد أيضاً في عالمنا. ذلك سر

أكشف لك عنه اليوم من باب الصداقة الخالصة، رغم أن هذا محظور علينا. والأسطورة التي سأرويها لك تتعلق بالجنة: يقال إنه كان يعيش على أرضكم في ذات يوم فيلسوف «يُنكر كل شيء، يُنكر القوانين والشعور والإيمان»، ويرفض خاصة أن يسلم بوجود الحياة الآخرة. وقد مات هذا الفيلسوف وهو على يقين من أنه يغيب في غياهب العدم، فإذا هو يرى نفسه فجأة أمام أبواب الحياة الآخرة. كانت دهشته من ذلك عظيمة، وأعظم منها كان استياؤه. صاح يقول: «لست أريد الحياة الآخرة هذه، لإنها تخالف عقيدتي». فحوكم وحكم عليه بسبب هذه القولة الطائشة... معذرة إذا أنا قصصت عليك الأمور على نحو ما قُصَّت علي... ما هذه إلاّ أسطورة على كل حال... حكم على الرجل بأن يقطع في الظلمات، سيراً على الأقدام، مسافة كادرليون كيلومتر (إن كل شيء يعد عندنا الآن بالكيلومترات)، وبعد ذلك تُفتح له أبواب الجنة، ويُغفر له كل شيء.

قاطعه ايفان سائلاً بانتعاش قوي وحرارة شديدة: ما هي أنواع العذاب التي يمكن أن يتحملها الانسان في الحياة الآخرة، عدا هذا الكادرليون من الكيلومترات؟

ـ أي أنواع من العذاب؟ آه... لا تسأل عن ذلك!... في الماضي كنا نعرف أنواعا مختلفة من العذاب. أما الآن فقد أُلغيت جميعها واستُبدلت «بعذاب الضمير»، وخزعبلات من هذا النوع. لقد استوردنا هذا من عندكم، وهو ثمرة من ثمرات ما وصلت إليه عاداتكم وأخلاقكم من «لطف ورقة». فمن ذا الذي جنى من هذا النظام فائدة، في رأيك؟ إن الأشرار وحدهم انتفعوا لهذا النظام وأفادوا منه. كيف لهؤلاء أن يعرفوا «آلام الضمير» وليس لهم ضمير؟ وفي مقابل ذلك كان على النفوس الصادقة التي احتفظت بشيء من الاستقامة والشرف والأمانة أن تتألم من ذلك! ذلك ما يحدث حين يُراد إدخال إصلاحات في تربة لم تتهيأ لقبولها، وحين تُقلَّد أنظمة غريبة، فتكون النتائج وخيمة جدا! إلاّ أن نار جهنم القديمة كانت خيراً من هذا. ولنعد إلى فيلسوفكم الذي حُكم عليه بأن يقطع مسافة كادرليون كيلومتر، إنه لم يزد على أن رفع كتفيه غير مبالٍ، ثم رقد في وسط الطريق قائلاً: «أرفض

أن أمشي، تمسُّكاً بالمبدأ!». خذ نفس ملحد روسي مثقف، وامزجها بنفس النبي يونس الذي لبث في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال يلعن حظه، تخرج من ذلك الحالة النفسية لصاحبنا المفكّر هذا الذي رقد على الطريق مصراً معانداً.

ـ على أي شيء رقد؟

ـ لا بد أنه رقد على شيء هنالك. هل أصبحت لا تضحك الآن؟

هتف ايفان يقول وهو على تلك الحالة نفسها من الانتعاش والحرارة (وكان يصغي الآن بنهم غير متوقع): حسنا! ألا يزال راقداً على الطريق بالعرض حتى الآن؟

ـ هذا هو الشيء الهام، فلقد لبث على ذلك الوضع قرابة ألف سنة، ثم عاد ينهض وأخذ يمشي.

صاح ايفان بضحكة عصبية: يا له من حمار!ثم بدا على ايفان أنه يفكر تفكيراً عميقاً، ثم استأنف كلامه فقال: ولكن أليس يستوي، على كل حال، أن يبقى راقداً الى الأبد وأن يقطع مسافة كادرليون كيلومتر؟ أظن أنه سيحتاج من أجل ذلك الى بليون سنة، أليس كذلك؟

ـ أكثر أكثر! لو كان معي قلم وورقة لأجريت لك هذا الحساب بسرعة، على كل حال، لا قيمة لهذا، ما دام قد انتهى من قطع هذه المسافة منذ زمن طويل. وعند ذلك إنما تبدأ النادرة أو النكتة.

ـ انتهى من قطع المسافة؟ كيف هذا؟ من أين جاء ببليون سنة؟

ـ لماذا لا تزال تفكر بأرضنا الحالية! والواقع أن هذه الأرض لعلها قد عرفت الوجود بلايين المرات قبل وجودها الحالي. وهي في كل مرة قد شاخت وتغطت بالثلج وتشققت في كل اتجاه ثم تحلّلت وارتدّت الى عناصرها الأولى، فساد ملكوت المياه من جديد، ثم ظهر مذنّب جديد فشمس جديدة ولدت بدورها أرضاً. وتكرر هذا التطور عدداً لا نهاية له من المرات بهذه المراحل نفسها، وهذه التفاصيل ذاتها. ذلك ضجر قاتل بغير حياء.

ـ حسنا، فماذا حدث حين انتهى من قطع مسافة الكاردليون كيلومتر؟

ـ لماذا، في اللحظة التي فُتحت له أبواب الجنة ودخلها، فما أن انقضت على دخوله ثانيتان (رغم أن ساعته لا بد أن تكون في رأيي قد فسُدت في جيبه أثناء رحلته) حتى هتف قائلاً هن هاتين الثانيتين لا تعدل قيمتهما مسافة الكادرليونات مرفوعة إلى أسّ الكادرليون أيضاً. وأخذ يرتل «هوشعنا» وبلغ من الغلو في التسبيح حتى أن بعضهم ممن كانت لهم أفكار أكثر تطوراً وأرفع نبلاً، قد رفضوا في الآونة الأولى أن يصافحوه، لاعتقادهم بأنه فقد بالغ في الانحدار إلى المحافظة. تلك هي طبيعة الروس. ولكنني أعود فأكرر لك أن هذه أسطورة أرويها لك على علاّتها. تلك هي المفاهيم السائدة عندنا اليوم في هذه الشئون.

هتف ايفان يقول بفرح يشبه أن يكون فرح طفل، كأنه قد تذكر في هذه اللحظة شيئاً ما على حين فجأة: ضبطتك! إن هذه النكتة التي ترويها عن الكادرليون من السنين إنما اخترعتها أنا بنفسي. كنت حينئذ في السابعة عشرة من عمري، وكنت في المدرسة الثانوية. تخيلت هذه النكتة وقصصتها في تلك الآونة على رفيق من رفاقي اسمه كوروفكين. كان ذلك في موسكو... إن هذه النكتة تبلغ من تميز أفكاري بها أنني ما كان لي أن أستمدها من غير أفكاري هذه. ولكنني نسيتها بعد ذلك الزمان... وقد عاودت ذاكرتي الآن على غير شعور مني. فأنا الذي تذكرتها إذن، ولم تقصصها عليّ أنت! إنه ليحدث هكذا أن تنبجس من النسيان طائفة من الأشياء بغتة عند الانسان حين يقاد الى التعذيب، أو حين لا يزيد على أن يحلم وهو راقد في سريره. فما أنت إذن إلاّ حلم، ما أنت إلاّ صورة فكري وليست مخلوقاً حياً .

قال السيّد وهو يضحك مشرق المزاج: إنني ألاحظ رغم قوة انكارك لوجودي أنك تؤمن بي مع ذلك.

ـ أنا؟ أؤمن بك؟ أبداً ... لا توجد لدي أي ذرة ايمان بك!.

ـ ولكن ربما آمنت بي جزءاً من ألف جزء! ان معالجة الداء بالداء نفسه قد تكون هي الأقوى أثراً. هلا اعترفت بأنك تؤمن بي، ولو جزءاً من عشرة آلاف جزء مثلاً!

هتف ايفان يقول: ولا لحظة من اللحظات! ثم أضاف بعد ذلك بصوت رقيق غريب: لكنني أود لو أؤمن بك.

ـ آه، هذا اعتراف! إنني طيب القلب، وإنني أريد أن أهبَّ الى نجدتك. إسمع: أنا الذي ضبطتك، وليس أنت الذي ضبطتني. لقد تعمّدت أنا أن أروي لك نكتتك التي كنت قد نسيتها، وإنما فعلت ذلك بغية أن أقودك الى أن تشك فيّ شكاً نهائياً.

ـ كاذب! أنت جئت لزيارتي لتقنعني بوجودك.

ـ صحيح. ولكن اعلم أن إحداث الشكوك والقلق، والصراع بين الايمان وعدم الإيمان يمكن أن يورثا الانسان الذي يملك شعوراً مرهفاً مثلك، عذابات تبلغ من الهول أن الانتحار شنقاً خير منها. ولمّا كنت أعلم أنك تؤمن بي قليلاً، فقد زرعت الشك في نفسك برواية تلك النادرة لك. فبذلك أقودك من الايمان الى الشك ومن الشك الى الايمان مرة بعد مرة على التناوب. وحين أفعل ذلك فإنما أهدف الى غاية. وأنا أطبّق هنا أسلوباً جديداً: فمتى شككت في وجودي شكاً نهائياً أردت أن تبرهن لي على أنني لست إلاّ حلماً وعلى أنني غير موجود في الواقع. ذلك أنني أعرفك. فبهذه الوسيطة أكون قد حققت هدفي، وهو في الحقيقة هدف نبيل جداً. فأنا أرمي في الواقع الى أن أضع في نفسك بذرة إيمان متواضعة، فإذا بشجرة قويّة من أشجار السنديان تخرج من هذه البذرة في المستقبل، تبلغ من القوة بحيث إنك سترغب في أن تعيش في جِماها حياة ناسك وقديس. والحقيقة أن هذه هي رغبتك الخفية المستترة المكتومة منذ زمن طويل. ولسوف تحقق هذه الرغبة يوماً، فتعيش في الصحراء وتأكل من الجراد ساعياً إلى خلاص نفسك.

ـ يا لك من شقي! أفي سبيل خلاص روحي إنما تحملت نفسك إذن هذا العناء؟

ـ لا بد لي، أنا أيضاً، من أن أقوم بعمل خير من حين الى آخر. ولكنني أرى أنك تغضب غضباً شديداً!

ـ مجنون! هل أغريتهم وأغويتهم أيضاً أولئك الذين يقتاتون بالجراد ويقضون في الصحراء سبعة عشر عاماً وهم يُصلُّون وتغطيهم الطحالب؟

ـ لم أفعل سوى هذا يا صديقي العزيز. ما أسهل أن ينسى أحدنا الكون وعوالمه التي لا تعد ولا تحصى من أجل أن يتعلق بواحد من أولئك الرجال، لأنهم في نظرنا بمثابة جواهر ثمينة جداً. إن نفساً واحدة من هذا النوع تعدل في بعض الأحيان كوكباً مع جميع توابعه. لدينا وسيلة لتقدير هذه الاشياء. إن نصراً نحققه على واحد من هؤلاء الرجال لهو في نظرنا ذو قيمة عظيمة. أؤكد لك أن بينهم، أناساً لا يقلُّون عنك ثقافة وذكاء، رغم أنك لا تريد أن تسلم بهذا، أنا أعرف ذلك... وهم قادرون أن يسبروا، في لحظة واحدة بعينها، أعماقاً من الشك والايمان، حتى ليحسب المرء في مثل تلك الهنيهات أنهم يوشكون أن يسقطوا «وأرجلهم في الفضاء» على حد تعبير الممثل جوريتوف.

ـ حسناً؟ هل تمت شد انفك من مفاصله؟

أجاب الزائر بحماس: يا صديقي لأن ينصرف المرء مشدود الأنف خير في بعض الأحيان من أن ينصرف بدون أنف تماما، كما قال ذلك في الآونة الأخيرة مركيز مريض أثناء اعترافه لكاهن يسوعي (أغلب الظن أن المركيز كان قد عهد بأنفه الى عناية أخصائي). هتف المركيز يقول وهو يلطم صدره: «رد اليّ أنفي»، فقال له الكاهن الطيّب هامساً: «يا بني، إن أوامر الله لا يسبر غورها ولا تدرك حكمتها أحياناً. فرب بلاء ظاهر هو ينبوع سعادة عظيمة، وإن لم تكن هذه السعادة غير بادية للنظر أحياناً. لئن شاء حظ قاس أن يحرمك من أنفك، إن في ذلك لميزة

واحدة على الأقل، هي أن أحداً لن يجرؤ بعد الآن أن يجرك من طرف أنفك»، فاستأنف المريض اليائس كلامه قائلاً: «ذلك عزاء هزيل!. لسوف يسرني ويسعدني ويفرحني أن أُجَرَّ كل يوم من طرف أنفي، شريطة أن يكون أنفي في مكانه»، فأجابه الكاهن متنهدا: «يا بني، لا يمكن أن يملك المرء جميع النعم والخيرات في آن واحد؛ وإن الأمنية التي أفصحتُ عنها الآن لهي في حد ذاتها معصية اللّه الذي ما نسيك في هذه الحالة، لأنك حين تؤكد أنه سيسعدك أن تُجَرَّ كل يوم من طرف أنفك، كما أعلنت هذا بنفسك منذ هنيهة، فإنما أنت تحقق أمنيتك على نحو غير مباشر، إنك إذا فقدت أنفك قد احتفظت به مع ذلك، بالمعنى المجازي...».

صاح ايفان قائلاً: ما أغبى هذا الكلام!

ـ يا صديقي، إنما كانت غايتي الوحيدة حين رويت لك هذه النادرة هي أن أسلّيك وأضحكك. ولكنني أحلف لك أن هذا مثال على الجدل اللاهوتي الذي يمارسه اليسوعيون. إن هذا الأمر قد حدث كما رويته لك تماماً، كلمة كلمة. وهو حالة وقعت في الآونة الأخيرة وأحدثت لي متاعب جمة وأورثتني هموماً كثيرة. إن ذلك الشاب المسكين الذي حدثتك عنه قد انتحر في تلك الليلة نفسها حين عودته الى البيت بعد الاعتراف. وقد لبثت بقربه الى آخر لحظة... أما كراسي الاعتراف لدى اليسوعيين فإنني اتردد اليها كثيراً، وتلك في الواقع تسلية من تسلياتي المفضلة، حين يوافيني ضجر ويلم بي سأم وحزن. وسأقص عليك الآن حالة أخرى يرجع عهدها الى بضعة أيام خلت. استقبل كاهن يسوعي عجوز على كرسي الاعتراف فتاة شقراء، نورماندية، صبية في العشرين من عمرها، جميلة يفتن جمالها العقل... أما جسمها فإن لُعابي يسيل حين أتصوره. ولها عدا هذا طبيعة من تلك الطبائع... ما شاء الله... جثت على ركبتيها، ودمدمت تعترف بخطيئتها من خلال القضبان. هتف الكاهن الصارم يقول: «هل يمكن حقاً يا ابنتي، أن تكوني قد سقطت من جديد؟ أوه! يا مريم العذراء! ماذا أسمع! مع رجل آخر؟ الى أين تمضين يا بنيّتي؟ ألا تخجلين؟ فأجابته الخاطئة تقول وقد غرق وجهها في

الدموع ندماً وحسرة: «آه يا أبتاه! إن ذلك يحدث له هو لذة عظيمة، ولي أنا ألماً قليلاً!». جواب عظيم، هه؟ ما رأيك؟ لقد دهشت أنا نفسي من هذا الجواب. كانت تلك صيحة الطبيعة . . . بدا لي ذلك أطهر من البراءة نفسها، غُفرت لها خطيئتها فوراً، وبينما كنت أهم أن أنصرف، رأيتني اضطر الى أن أعود أدراجي، فقد سمعت الكاهن يتواعد مع الفتاة خلال القضبان على أن يلتقيا في المساء. وكان الكاهن مع ذلك شيخاً صارماً شديد العبوس، لقد سقط في مدى لحظة. لقد ظهر أن الطبيعة هي الأقوى. لماذا تعبس؟ أغضبت من جديد؟ حقاً لقد أصبحت لا أدري ما الذي يجب علىّ أن أخترعه حتى اسبب لك السرور.

صاح ايفان يقول بصوت موجع فيه أنين، لأنه كان يحس أنه عاجز عن التخلص من هلوسته: دعني! إنك تحدث وجعا في دماغي كالكابوس. إن حضورك يضجرني ضجراً قاتلاً. لقد أصبحت لا أطيق احتمالك. إنني مستعد بالتضحية بأي شيء في سبيل أن أتخلص منك!

ـ أكرر أن عليك أن تخفّف من غلوائك، وأن تعدل عن طلب الأفكار الرفيعة العظيمة، وسترى كيف أننا سنتفاهم حينذاك. الواقع أنك حانق عليّ لأنني لم أمثل أمامك في إطار أكثر مهابة، تحيط بي هالة حمراء، وتصحبني بروق ورعود، وبجناحين كبيرين محمرين بنار جهنم، ولا تغفر لي أنني جئت إليك بهذا الشكل المتواضع. إنك تشعر بإساءة الى مشاعرك الجمالية الفنية أولاً، وكبريائك وعزتك ثانياً، كيف يستقبل رجل عظيم هذه العظمة زيارة شيطان مسكين! صحيح! إن هذه السمة الرومانسية التي طالما ندّد بها الناقد بيلنسكي هي جزء من طبيعتك. ولكن ما حيلتي أيها الشاب الطيّب؟ منذ قليل، حين كنت آتياً اليك، خطر ببالي أن أرتدي ثياب جنرال محال على التقاعد سبق له أن خدم في القفقاس، فهو يضع على رداته وسام «الأسد» و «الشمس». ولكني شعرت بخوف من عمل ذلك، لانك عنفتني لأني تجرأت على وضع وسام الاسد والشمس على معطفي بدلا من النجمة القطبية او سيريوس. لا تكف عن تذكيري بأنني غبي. إني أطلب الرحمة علي، وإني لا

أدّعي أني أنافسك في الذكاء. حين جاء مفستوفيليس الى فاوست قال إنه يريد الشر ثم لا يستطيع أن يفعل إلاّ الخير. حسنا، إن ذلك شأنه هو أما أنا فعلى نقيض هذا. ربما كنت في الكون بأسره الانسان الوحيد الذي يحب الحقيقة بإخلاص، ويصبو الى الخير صادقاً. لقد كنت حاضراً حين صعدت «الكلمة» الى السماء، بعد موتها على الصليب، حاملة على صدرها روح اللص الذي كان مصلوبا على اليمين. وسمعت صيحات الفرح التي صدحت بها أصوات الكاروبيم مسبّحين بحمد الله، وسمعت الأناشيد الصاخبة يضج بها الساروفيم الذين هزّوا السماء بأصواتهم المرعدة وأرعشوا بها الخليقة كلها. فيمينا بكل ما أقدس في هذا العالم، لقد تمنيت عندئذ أن أنضمّ الى جوقة المنشدين مسبّحاً بحمد الله أنا أيضا. كان صدري يرتفع، وكلمات الحمد والثناء تندفع الى شفتي ... ذلك أنني حساس جدا، وقد أوتيت عاطفة فنية قوية. ولكن العقل ـ هذه الملكة اللعينة في طبيعتي ـ قد صدّتني في تلك المرة أيضا، وأضطرتني الى القصد والاعتدال، فأفلتت مني اللحظة الرائعة والفرصة الوحيدة. تساءلت عندئذ: «ما عسى يحدث بعد أن أغنّي نشيد تمجيد الرب؟ سوف ينطفئ حينذاك كل شيء في هذا العالم، فلا تحدث بعد ذلك أحداث». وقد كبتّ في نفسي ذلك الاندفاع الطيب الخيّر الكريم، بسبب وظائفي ووضعي الاجتماعي، وبقيت وفياً لما أقوم به من أعمال الدناءة. إن شخصا آخر قد احتكر لنفسه ما يرتبط بالخير من شرف ومجد، ولم تترك لي أنا إلا خطة الشر. ولكنني لا أحسد أولئك الذين يعيشون في السهولة واليسر، فما أنا بالطمّاع. ولكني أتساءل مع ذلك: لماذا كتب عليّ أن أُذعن لهذه المساوئ حين أتجسد. أنا أعلم أن في هذا سراً، ولكنهم يأبون أن يظهروني على هذا السر. ربما كانوا يعرفون أنني، يوم أعرف السر، سأسبّح أنا أيضا بحمد الله، فسرعان ما يتبدد عندئذ ما في هذا العالم من عيوب ضرورية، وينتصر الرشاد، فيكون ذلك نهاية كل شيء، حتى الجرائد والمجلات. إذ من ذا الذي يخطر بباله عندئذ أن يشترك في الجرائد والمجلات إذا هي أصبحت خاضعة لسلطان العقل والرشاد. لست أجهل طبعاً أنني سأتصالح آخر الأمر مع الخليقة، وأنني بعد أن أقطع ما يجب عليّ أن

أقطعه من مسافة تبلغ كادرليون كيلو متر، سأعرف السرّ . ولكن الى أن يتحقق ذلك، سأظل في صف المعارضة، فأقوم بعملي على مضض، وأنهض بأعباء مهمتي متألماً أشد الألم، أهلك ألوفا لأنقذ واحدا. كم من نفس وجب إهلاكها، وكم من سمعة وجب تلطيخها، من أجل الوصول الى رجل صالح واحد مثل أيوب، الذي من اجله جعلوا مني شخصا مجنونا في الايام الماضية؟ وما دام السر خافيا عليّ، فسيبقى هنالك حقيقتان في نظري، حقيقة السماء التي أجهلها الآن جهلاً تاماً، وحقيقتي أنا. ولا يدري أحد حتى الآن أي الحقيقتين أشرف . . . ولكنك نمت فيما أرى؟

قال إيفان في أنين وغضب خفي: وكيف لا أنام؟ إن أسخف ما كان في ذهني من أفكار تجاوزتها منذ زمن طويل ونبذتها نبذ القاذورات، تأتي أنت الآن فتقدمها لي كما لو كانت شيئا جديدا.

ـ ارى أنني لم احصل على رضاك! كنت آمل أن أفتنك بأسلوبي الأدبي. أحسب مع ذلك أنني أجدت وصف التسبيح الذي غنّته الأصوات في السماء. ما رأيك في هذه اللهجة الساخرة التي تقتفي آثار «هايني»؟ يخيل اليّ أنها تناسبني . . . ألا ترى ذلك؟

ـ لا، أنا لم أكن في يوم من الأيام إمّعة من هذا الطراز! كيف أمكن أن تلد نفسي إمّعة مثلك؟

ـ يا صديقي، أعرف شابا روسيا من أسرة طيبة، هو فيلسوف، وهو يهتم بالأدب ويعنى بالفن. وقد ألّف قصيدة تلوح فيها موهبته الشعرية منذ الآن، عنوانها: «المفتش الكبير». وفيه وحده إنّما كنت أفكّر!

صاح ايفان يقول وقد احمرّ وجهه خجلا: أمنعك من الكلام عن «المفتش الكبير»!.

ـ و«التحوّل الجيولوجي»؟ هل تتذكر؟ تلك قصيدة!

ـ أسكت وإلا قتلتك!

ـ تقتلني أنا؟ دعني أكمل أولاً ما كنت أريد أن أقوله لك. فمن أجل أن أحصل على هذه المتعة إنما جئت. إنني أعبد أحلام أصدقائي الشباب الذين يفيضون حرارة وحماسة ونبضاً وحياة. كنت تقول لنفسك في الربيع الماضي وأنت تستعد للمجيء الى هذه المدينة: «سأجد هنالك أناساً جدداً. إنهم ينوون أن يحطّموا كل شيء، وأن يعودوا للبداية، أي من أكل لحوم البشر! يا لهم من حمقى! لماذا لم يستشيروني؟ لا حاجة الى تحطيم شيء، وإنما يكفي أن نطرد من أذهان البشر فكرة الإله الانسان. بهذا إنما ينبغي لنا أن نبدأ مهمتنا. ذلك هو المنطق الحقيقي الذي يجب أن ننطلق منه في عملنا، وهؤلاء العميان لم يدركوا من هذه الحقيقة شيئا. فمتى نبذت الإنسانية الإيمان باللّه دفعة واحدة. وأنا مقتنع بأن هذا العصر آت لا ريب فيه، ليحل محل العصور الجيولوجية الأخرى التي تعاقبت حتى الآن، فإن المفاهيم القديمة عن الكون ستختفي من تلقاء نفسها، دون أن يكون من الضروري أن نرتد الى عهد أكل لحوم البشر. وستزول الأخلاق القديمة خاصة، وسيُبنى عالمٌ جديدٌ بعد أن يُمحى الماضي. سوف يتحد البشر ليردوا الى الحياة الحد الأقصى مما تستطيع الحياة أن تعطيه من سعادة وبهجة ومتعة، ولكن في هذا العالم وحده. وسيشعر الإنسان بعزة عظيمة وكبرياء جبارة تحركه وتحمله، لأنه يكون قد أصبح «إلهاً ـ إنساناً». إن ما سيحققه الإنسان من انتصارات على الطبيعة لا انقطاع لها ولا حدود لها، بفضل إرادته وعلمه، ستُغمر نفسه في كل ساعة بفرح يبلغ من السمو والرفعة أنه سينسيه ما كان يوعد به في الماضي من ثواب سماوي. سيعرف كل إنسان أنه فانٍ، وأنه لا بعث بعد الموت، ولكن جميع الناس سيقبلون الموت بهدوء وعزة كالآلهة. سيعدل الإنسان يومئذ، من شدة أنفته وكبريائه، عن الشكوى من القدر، والاستياء من أن حياته طارئة ووجوده عارض. وسوف يُحب الإنسان أخاه الإنسان حباً مُبرأً من المنفعة، لا يرجو أن ينال على حبّه ثوابا فيما بعد. صحيح أن الحب لن يتفتح إلا لحظات قصارا، ولكن قصره

نفسه سيجعل سناءه وقوته أشد وأعنف، بينما كان في الماضي يضيع في احلام غامضة الى حب أبدي ولو من خلف القبر... وهلمّ جرا.

- شيء جميل!

كان ايفان قد سدّ أذنيه بيديه، وأطرق الى الأرض وهو جالس على الديوان، وأخذ جسمه كله يرتجف. تابع الصوت كلامه يقول:

- «إن المسألة المطروحة الآن - هكذا كان يفكر فيلسوفنا الشاب - هي: هل سيأتي عصر من هذا النوع أم لا؟ فإذا كان الجواب على هذا السؤال بنعم، فسوف تحل المشكلة، وسوف تنتظم الإنسانية على أسس جديدة. ولما كان ذلك مستحيلا قبل انقضاء ألف سنة أخرى، بسبب حماقة البشر، فإنه يترتب على ذلك أن من حق كل فرد، وقد وعى الحقيقة منذ الآن، أن يبني حياته على النحو الذي يناسبه، والمبادئ الجديدة. وبهذا المعنى «فإن كل شيء مباح». وهب أن ذلك العصر الجديد لن يأتي، فإنه ليظل صحيحا أنه لا وجود للإله، ولا خلود للنفس، فمن المباح إذن للإنسان الجديد أن يصبح «إلها إنسانا» ولو وجب عليه أن يكون الوحيد كذلك في الكون كله. وواضح أنه سيستطيع، في دوره الجديد، أن يتحرر فرحاً من الضغوط الأخلاقية التي كان يخضع لها «الإنسان العبد» في الماضي، وسيكون عليه أن يتحرر هذا التحرر كلّما بدا له ذلك ضروريا. فلا قوانين تفرض على إله، وأي مكان يكون فيه الإله فهو مكانه. إن كل ما سأفعله بعد اليوم هو خير، وسأحتل المكان الأول ... كل شيء مباح، وكفى!» هذا كلّه جميل جداً، ولكنني أتساءل لماذا يكون الإنسان في حاجة الى أن يتدثر بدثار الحقيقة، ما دام قد قرر أن يعيش وأن يخادع؟ فيم هذا التأييد للحقيقة؟ هذا هو الإنسان الروسي المعاصر، إنه في حاجة الى تأييد الحقيقة ولو قرر أن يغش ... فإلى هذا الحد يبلغ حبه الحقيقة ...

كان الزائر يبدو مسرورا ببلاغته وفصاحته. فهو يرفع صوته أكثر فأكثر، وينظر الى صاحب البيت فاحصاً في مكر. ومع ذلك لم يستطع أن يكمل كلامه، فإن

إيفان تناول الكأس الموضوعة على المائدة فجأة، فرمى بها الخطيب البليغ بكل ما أوتي من قوة.

فهتف الخطيب يقول وهو ينهض متعجلاً، ويمسح بأصابعه قطرات الشاي التي تناثرت على ثيابه: لقد تذكر «محبرة» لوثر. هو يدَّعي أنني لست إلا حلماً، فيقذف الأقداح الى الرأس الخيالي الذي ظهر له في هلوسته! لكأنه امرأة حقا . . . يا لهذا المنطق ما أغربه! . . . كنت أقدّر فعلاً أنك تتظاهر بسدّ أذنيك، بينما كنت في الواقع تسمعني وتصغي اليّ. . .

وفي تلك اللحظة سمعت طرقاتٍ شديدة على زجاج النافذة، فنهض إيفان عن ديوانه واثبا؟

يجري تقديم الامير مايشكين في نهاية رواية «الأبله» الى حفل في مجتمع راقٍ في بيت الجنرال ابانشين كخطيب محتمل لاجلايا صغرى بنات ابانشين. يسمع مايشكين بصورة غير متوقعة عن اعتناق نيكولاي اندريفتش بافلتشيف الذي يرعاه ويحميه للكثلكة. فيسبب هجوم مايشكين ضد الكثلكة الاحراج للجمع المحترم ولكن الضحك يعم المكان عندما يكسر مزهرية ضخمة مصنوعة من الصيني.

وتعبّر هذه القطعة عن الولع الكبير للامير مايشكين بروح روسيا وقلبها. ويعكس غضبه فشل المسيحية بصورة عامة بعد قسطنطين والقرن الثالث: «السيادة السياسيّة للعالم» التي يقبض عليها «السيف» الذي يحل محل الايمان «الأكثر قداسة» والذي تتم مقايضته باكثر الأشياء بُعداً عن القداسة. ويُمكن ان يعبّر مايشكين دوستويفسكي عن حزنه على كنيسة المسيح الأولى التي انطلقت بشكل صحيح في هذا العالم لكي تصبح مكاناً للعدل والمحبة، وهي الكنيسة التي تظهر في صلاة يسوع: «ليأتِ ملكوتك، لتكن مشيئتك على الارض...!».

قال مايشكين فجأة: كان بافلتشيف رجلاً صافي الذهن راجح العقل، ومسيحياً حقيقياً. فكيف يمكن أن يعتنق ديانة... ليست مسيحية؟ واضاف بصورة مفاجئة: «إن الكاثوليكية دين ليس من المسيحية في شيء!» وكان يجيل بصره على

من حوله، كأنه يريد أن يشمل الحضور كافةً بنظرةٍ واحدة.

دمدم العجوز يقول وهو يرشق الجنرال اباتشين بنظرة تنم على الدهشة: «اظن أن في هذا بعض الغلو!»

«وانبرى ايفان بتروفتش يسأل الامير قائلاً له وهو يستدير على كرسيه: «افليست الكاثوليكية ديانة مسيحية؟ فما هي إذن؟»

استأنف الأمير كلامه بانفعال شديد ولهجة قاطعة الى اقصى الحدود: هي أولاً ديانة ليس فيها شيء من المسيحية، هذه نقطة اولى، اما النقطة الثانية فهي أن المسيحية الرومانية أسوأ من الالحاد نفسه في رأيي! نعم، ذلك هو رأيي! إن الالحاد يقتصر على المناداة بالعدم، أما الكاثوليكية الرومانية فهي تمضي الى أبعد من ذلك، إنها تبشّر بمسيح شوّهته وأفسدت صورته، إنها تبشّر بمسيح هو نقيض الحقيقة. إنها تبشّر بنقيض المسيح، أؤكد لكم! هذه قناعتي الشخصية منذ زمن طويل، وما أكثر ما عذبتني أنا نفسي.. إن الكاثوليكية الرومانية تؤمن بأن الكنيسة لا يمكن أن تبقى على الارض ما لم تمارس سلطة سياسية شاملة. بل إن الكنيسة الرومانية في رأيي ليست ديانة. وإنما هي استمرار للامبراطورية الرومانية الغربية. فكل شيء فيها خاضع لهذه الفكرة، حتى الإيمان. لقد استولى البابا على الارض، وأصبح ملكاً ارضياً، وحمل السيف. ولم يتغيّر شيء منذ ذلك الحين، اللّهم إلاّ أن يكون السيف قد أضيف اليه الكذب والمكر والخديعة والتعصُّب والخرافات والنذالات. لقد عبثوا بأقدس عواطف الشعب وانقاها واكثرها سذاجة وبراءة، وقوّة وحرارة. لقد باعوا كل شيء بالمال!... باعوا كل شيء بسلطة زمنية حقيرة. فكيف لا تكون هذه العقيدة نقيض المسيحية؟ وكيف يمكن أن لا تكون الكاثوليكية سبب الإلحاد؟ لقد خرج الإلحاد من الكاثوليكية الرومانية نفسها! ثم قوي الإلحاد بالكره الذي حمله لهم الناس. إن الإلحاد ثمرة اكاذيبهم وعجزهم الاخلاقي. ما يزال الإلحاد في بلادنا لا يُرى إلاّ في بعض فئات المجتمع، لا يُرى إلاّ لدى «المجتثة جذورهم» على حد التعبير الموفّق الذي استعمله اوجين بافلوفتش. أمّا

هناك، في اوروبا، فإن جماهير كبيرة من الشعب قد بدأت تفقد الإيمان. كان عدم تديُّنها في الماضي ناشئاً عن الجهل والكذب. أمّا الآن فهو ناشئ عن التعصُّب وكره الكنيسة والمسيحية!

توقف الامير عن الكلام لاهثاً. تكلّم بحماسة، وهو الآن شاحب اللّون مختنق الصدر. تبادل الحضور نظرات الدهشة. واخيراً اخذ الشيخ الصغير يضحك بصورة واضحة. وأخرج الامير «ن» نظارته واخذ يحدّق بها الى الامير ليون نيقولايفتش. وترك الشويعر الالماني الركن الذي كان قد تلبث فيه حتى ذلك الحين، فاقترب من المائدة وعلى شفتيه ابتسامة حاقدة.

قال ايفان بتروفتش بصوت ممطوط، وقد لاح في وجهه الضجر والانزعاج: «انت تبالغ كثيرا! إن تلك الكنيسة يمثلها كذلك رجال فضلاء يستحقون كل احترام».

انا لم اتكلم عن ممثلي الكنيسة كأفراد، وإنما تكلمت عن الكنيسة الرومانية في حقيقتها، وعن روما، وهل يمكن أن تزول الكنيسة زوالا تاما؟ انا لم اقل هذا قط!

ـ موافق. ولكن كل ما تقوله معروف فلا داعي الى الكلام فيه. ثم إن هذه هي قضايا لاهوتيه . . .

ـ كلا، كلا، إنها ليست قضايا لاهوتيه، اؤكد لك أنها ليست كذلك! إنها أمور تهمنا جميعا أكثر مما تظن. هنا يكمن الخطأ عندنا، إننا لم نكتشف بعد، أن هذه المسألة ليست مسألة لاهوتية فحسب! لا تنسوا أن الاشتراكية هي ايضا ثمرة الكاثوليكية، فالاشتراكية مثل الإلحاد، وُلدت من اليأس. إنها رد على الكاثوليكية. إنها ترمي الى امتلاك السلطة الروحية التي فقدها الدين، تهدف الى إرواء الظمأ الشديد الذي يحرّف النفس الانسانية، وهي تنشد السلام لا في المسيح بل في العنف! إننا نرى هنا، كما نرى في الكاثوليكية، أناساً يريدون تأمين الحريّة بواسطة العنف، ويريدون تحقيق الاتحاد بالسيف والدم! «يُحرم الايمان بالله. ويُمنع

التملُّك. ويُمنع المرء من تكوين شخصية. الاخوّة او الموت، ولو قطع مليونا رأس». وقديما قيل: تعرفونهم من اعمالهم! يجب أن لا يذهب بكم الظن الى أن هذا كله لا اذى فيه، ولا خطر علينا منه! لا . . . يجب علينا أن نعمل بأقصى سرعة. ينبغي لهذا المسيح أن يشرق وينتصر في مواجهة الغرب. علينا أن ننتصب امامه، وأن لا نترك أنفسنا صيداً سهلاً للصنّارة اليسوعية، بل لنتفث فيهم حضارتنا الروسية. ولا يقل احدٌ لنا إنهم يعرفون كيف يبشّرون بلطف ورشاقة، كما قال واحدٌ منا منذ برهة. . .

أجاب ايفان بتروفتش قائلا وقد لاح في وجهه قلق شديد، وأخذ يلقي على ما حوله نظرات فيها دهشة ورعب: ولكن اسمح لي، اسمح لي . . . لا شك أن آراءك محمودة وتزخر بالوطنية، ولكن ذلك كله فيه غلو كثير، فمن الخير ان نقف عند هذا الحد لا نتجاوزه. . .

ـ كلا، ليس ثمّة شيء فيه غلو، بل إن ما أقوله هو دون الحقيقة، لأنني عاجز عن التعبير عن فكرى كله، ولكن. . . اسمح لي!

صمت مايشكن جامداً على كرسيه رافعاً رأسه، راشقاً ايفان بتروفتش بنظرة مشتعلة.

قال الشيخ الصغير بلهجة ودودة دون أن يخرج عن هدوئه: «يبدو لي أنك اخذت فعل صاحبك المُحسن اليك مأخذ الفاجعة. إن اعصابك مهتاجة. . . وربما كان مرد ذلك الى العزلة التي تعيش فيها. فلو عاشرت الناس، وانا آمل أن يحسن استقبال شاب ممتاز مثلك، لهدأت ثائرتك ولوجدت أن هذا كله ابسط كثيراً مما تتصوّر! . . . ثم إن هذه الحالات نادرةٌ جداً. . . وفي رأيي أن بعضها يرجع الى شعبنا، ويرجع بعضها الآخر الى السأم».

صاح مايشكين يقول: نعم. . . هذا هو الامر تماماً، هذه فكرة عظيمة! إنه «السأم»! إن سأمنا هو السبب، وليس من اللامبالاة. إنه الشوق الذي لم يرتو وليس

من اللامبالاة. هنا جافيت انا الصواب. فنحن أناس عطاش لم يرتوِ ظمؤنا. بل قل إن ظمأً محموماً يلتهمنا التهاماً! و...لا تظنوا أن ذلك ظاهرة تبلغ من تفاهة الشأن، إنها لا تستحق منا إلاّ الضحك. معذرة، يجب على المرء أن يحسن الاحساس بالامور قبل وقوعها، والتنبؤ بالاشياء قبل حدوثها. إن مواطنينا متى شعروا أن الارض تحت اقدامهم، ومتى اطمأنوا الى أنها هي الارض فعلا، يشعرون بالسرور والحبور. إنهم ما يلبثون أن يصلوا من ذلك الى اقصى الحدود. لم هذا؟ إن حال بافلتشيف تدهشكم، فأنتم تتصورون أنه فقد عقله او أنه انسان بسيط. وليس الامر كذلك في الحقيقة. إن تحمس النفس الروسية في مثل هذه الظروف لا يثير دهشتنا نحن وحدنا، بل يثير دهشة اوروبا كلها. حين ينتقل روسي الى الكاثوليكية فإنه لا بد أن يصبح يسوعياً، ولا بد أن يصبح من أكثر اليسوعيين تطرفاً وتعصباً. واذا اعتنق الروسي مذهب الالحاد، فإنه لا يتردد في المطالبة باستئصال الايمان باللّه بحد السيف! فما سبب التعصُّب المفاجئ؟ ألا تعرفون ذلك؟ سببه أن الروسي يعتقد أنه اكتشف وطناً جديداً، لأنه لم يُدرك أن له وطناً هنا، فاذا هذا الاكتشاف يملؤه فرحاً. لقد وجد شاطئ الامان، لقد وصل الى البر. فها هو ذا يهرع اليه ويعمره بالقبلات!

إن الروس لا يصبحون ملحدين أو يسوعيّين نتيجة لشعورهم بالزهو، وإنما يصبحون ملحدين أو يسوعيّين بتأثير ظمأ نفسي، بتأثير حنين إلى عالم أرفع واسمى، إلى ارضٍ ثابتةٍ وطيدة، الى وطن يحل محل الوطن الذي كفُّوا عن الايمان به، لأنهم لم يعرفوه في يوم من الايام! إن الشعب الروسي سهل الانتقال الى الإلحاد، أكثر من اي شعب في العالم. ومواطنونا لا يصبحون ملحدين فحسب، بل هم يؤمنون بهذا الإلحاد أيضا، كأنه دين جديد. لا يلاحظون أنهم بذلك يؤمنون بالعدم. فإلى هذا الحد نحن عطاش الى الايمان. «من لا وطن له لا دين له ايضا». ليست هذه الفكرة مني أنا، وانما عبَّر لي عنها تاجر التقيت به في سفر. والحقيقة أنه لم يقل هذا الكلام بنصه، وإنما قال: «من يجحد وطنه يجحد

إلٰهه ايضا». تصوُّراً أنه قد وجد في روسيا أناسا مثقفين ثقافة عالية انتموا الى ملّة «الخليين». والحق أنني اتساءل لماذا نعد هذه الملّة اسوأ من العدميين والبسوعيين والملحدين؟ إلاّ أن عقيدتهم قد تكون أعمق من عقيدة هؤلاء. ولكن ذلك ما يمكن أن يؤدي اليه قلق النفس!.. أروا رفاق كريستوف كولومب العطاش الملتهبين بشواطئ العالم الجديد، اكتشفوا للإنسان الروسي عن العالم الروسي، أتيحوا له ان يجد ذلك الذهب والكنز الذي تخفيه الارض عن بصره، أظهِروا ما سيتحقق للإنسانيه كلها من تجدُّد وانبعاث، ربما بفضل الفكر الروسي والإله الروسي والمسيح الروسي، إفعلوا ذلك كلّه تَرَوْا أي عملاق قوي عادل، حكيم حليم، سينتصب قائما أمام العالم المذهول. ذلك أنهم لا يتوقعون منّا إلاّ السيف والعنف، فهم اذ يقيسوننا بمقياس انفسهم، لا يستطيعون أن يتصوروا قوتنا في صور غير صور الهمجية. ذلك ما كان حتى الآن، وسيزداد هذا الظن الخاطئ في المستقبل.

في الطريق نحو اللّه

يروي هذه القصة الامير مايشكين في رواية «الأبله». ويرويها الامير لمعارفه الجدد واقاربه البعيدين، والنساء من عائلة ابانشين اللواتي يسألنه عن ماضيه. وقد عاد للتو الى روسيا في مهمّة عمل بعد فترة طويلة من العلاج الطبيّ في سويسرا على يد البروفسور شنايدر الاخصائي في مرض مايشكين. وقد تولّى شنايدر المسؤولية الكاملة عنه بعد وفاة بافلتشيف، المحسن اليه، قبل عامين. وتُظهر قصة ماري المأساوية والاطفال شخصية مايشكين ـ الذي يتقبل حبه الاستهزاء والسخرية كالأبله.

وأسرعت ادیلائید تقول: حسناً جداً، ولكن ما دمت من علماء الفراسة، فلا بد أنّك كنت في يوم من الأيام عاشقاً مغرماً. لم يخطئ ظني، فاقصص علينا قصّة حبّك!

قال مايشكين بذلك الصوت العذب الرصين نفسه: انا لم اكن عاشقاً، . . . وإنما كنت سعيداً بطريقةٍ اخرى.

ـ كيف؟ بماذا؟

ـ «حسناً، سأحكي لكن. .»، بذلك تمتم مايشكين وقد بدا شارد الفكر.

بدأ مايشكين يتحدث فقال: «في نظراتكن الميّ من شدّة الاستطلاع ما يدل على أنكن قد تغضبن اذا انا.لم ألبّ رغبتكن. ثم اسرع يقول مبتسماً: لا، كنت

أمزح! كان هناك اطفال، وكنت اقضي وقتي كلّه مع الاطفال وحدهم. هم اطفال القرية، هم كل المجموعة التي تذهب الى المدرسة. ليس معنى هذا أنني قمت بتعليمهم، فلقد كان يعلّمهم معلّم هو جول تيبو. جائز أنني كنت اعلّمهم قليلاً، ولكن المهم أنني كنت اقضي وقتي كلّه معهم، وفي ذلك إنما انفقت السنين الاربع التي امضيتها هناك. لم اكن في حاجة الى اي شيء آخر. وكنت اقول لهم كل شيء، ولا اخفي عنهم شيئا. وقد أصبح آباؤهم وامهاتهم وأُسَرهم يشعرون بالحقد علي آخر الامر، لأن الاولاد اصبحوا لا يستغنون عني، فهم دائماً حولي. أمّا المعلّم فقد أصبح عدوّي الاكبر. كان لي أعداء كثيرون بسبب هؤلاء الاطفال. حتى أن شنايدر نفسه اخذ يلومني . فما الذي كانوا يخشونه؟ إن في وسع المرء أن يقول للطفل كل شيء دوماً. لشد ما ادهشني دائماً مدى جهل الكبار بالصغار، بل ومدى جهل الآباء بأبنائهم انفسهم. ما ينبغي أن نُخفي عن الاطفال شيئاً بحجّة أنهم صغار، وأنه لم يأت الحين الذي يجب فيه أن يعلموا. يا لها من فكرة مؤسفة ضارة! إن الاطفال يُدركون بسهولة عظيمة أن آباءهم يرونهم أصغر سناً من أن يستطيعوا الفهم، مع أنهم في الواقع يفهمون كل شيء! إن الكبار يجهلون أن الطفل يستطيع حتى في أخطر ظرف أن يُسدي بنصيحة رائعة. وحين ينظر اليك هذا الطائر الصغير الجميل، حين ينظر اليك سعيداً واثقاً، فهل تستطيع أن تغشّه دون أن تشعر بالخزي؟ إنني اسمّيهم طيوراً صغيرة، لأن الطيور خير ما في العالم!

اريد أن أقول أن الناس حقدوا عليّ في القرية، بسبب شيء معيّن على وجه الخصوص، أما المعلّم تيبو فقد كان حقده غيرةً وحسداً. كان في أوّل الامر لا يزيد على أن يهز رأسه بدهشة حين يرى أن الاطفال يفهمون مني فهماً واضحاً، مع أنهم لا يكادون يفهمون شيئاً مما كان يعلّمهم. ثم أخذ يسخر مني ويتهكم عليّ، حين قلت له إننا لا نملك، أي شيء نعلّمهم اياه، وأنهم هم الذين يستطيعون أن يعلّمونا شيئا ما. كيف أمكنه أن يغار منّي وأن يشهّر بي مع أنه كان يعيش هو نفسه مع الاطفال؟ إن المرء لتبرأ نفسه وتشفى حين يعيش مع الاطفال! كان يوجد في

مصح شنايدر مريض من المرضى، كان انساناً شقياً كل الشقاء بائساً كل البؤس. إن شقاءه يبلغ من الهول والفظاعة مبلغاً بحيث لا يوجد له شبيه او نظير، كان يعالج هناك معالجة المجنون، ولكني اعتقد أنه لم يكن مجنوناً، وإنما كان انساناً يتألم الماً رهيباً لا اكثر، فذلك هو مرضه كلُّه. لِيَتَكُنَّ تعلمن ماذا أصبح الاطفال عنده آخر الامر!... ولكن الافضل أن أحدثكن عن هذا المريض فيما بعد. اما الآن فسأروي كيف بدأ هذا كله. كان الاطفال في البداية لا يحبونني. ذلك أنني كنت كبيراً واخرق. وانا أعلم أنني لست وسيم الطلعة. وهنالك عامل آخر هو أنّي اجنبي. كان الاطفال في البداية يستهزئون بي، بل إنهم رموني بالحجارة حين رأوني أقبّل ماريا. ولم اكن قد قبّلتها من قبل الا مرّة واحدة على كل حال... وهنا لاحظ الامير ابتسامات تلم بافواه الفتيات اللواتي كن يصغين الى حديثه، فأسرع قائلاً: لا تضحكن، لم يكن ذلك حباً، لو عرفتن مدى تعاسة تلك المخلوقة، لرثيتن لحالها مثلي.

كانت من قريتنا. وكانت أمُّها امرأةً عجوز دبّت فيها الشيخوخة وأضناها الهرم. وقد أذِنَ لها عمدة القرية بأن تحوّل احدى نوافذ كوخها الحقير الى بسطة تعرض عليها ما تبيعه من بريم وخيط وتبغ وصابون، بقروش قليلة تكاد تقيم بها أودها وتمسك عليها رمقها. كانت الام مريضة متورّمة الساقين دائماً، فهي تظل قابعةً وراء النافذة طوال الوقت، وكانت ابنتها ماريا وهي في نحو العشرين من عمرها، ضعيفة هزيلة نحيلة، لقد اضعفها مرض السل منذ مدة طويلة، ولكن ذلك لم يكن يمنعها من القيام باعمال الخدمة المضنية القاسية طوال اليوم في دُور مختلفة. كانت تغسل الارض وتنظف أواني المطبخ، وتكنس الاحواش، وتعتني باليهائم في الحظائر. وقد اغواها فرنسي هو مندوب محل تجاري كان ماراً بالقرية فأخذها معه، ثم لم يلبث أن تركها في عرض الطريق بعد اسبوع واحد، ومضى في سبيله. فعادت الى البيت، بعد أن تسوّلت واستجدت طوال الطريق، عادت رثة الاسمال قذرة الهيئة، ممزقة الحذاءين. ظلت تسير على قدميها أسبوعاً كاملاً،

وتنام حيث يُتاح لها أن تنام، فأصابها اثناء ذلك برد، وكانت قدماها مجرّحتي
مقرّحتين، ويداها متورّمتين متشقّقتين. ثم إنها لم تكن جميلة في يوم من الايا
باستثناء عينيها الطيبتين العذبتين البريئتين. وكانت تصمت صمتاً رهيباً. اخذت ذا
مرة تغنّي فجأة اثناء عملها. إني لأتذكر الآن أن جميع الناس قد دهشوا عند
وسخروا منها: «هه! ماريا تغنّي؟» فخجلت خجلاً شديداً واضطربت اضطراباً كبير
ومنذ ذلك اليوم صمتت الى الابد. في ذلك الأوان كان الناس ما يزالون يعاملو
معاملة لطيفة، ولكنها حين عادت مريضة ممزقة لم يشعر احد نحوها بأي عطف
شفقة. ما اقساهم في مثل هذه الظروف! ما أفظع ما تتصف به آراؤهم الراسخ
وافكارهم السابقة من عنف لا رحمة فيه ولا رأفة! أمُها نفسها كانت أوّل م
استقبلها بغضب واحتقار. قالت لها: «لقد لطّخت شرفي بالعار». كانت الأم أ
من تخلّى عنها من الخزي، فحين عرف سكان القرية أن ماريا رجعت، تواعد
جميعهم تقريباً على أن يلتقوا في البيت الحقير الذي تسكنه العجوز، شيوخ واطف
ونساء وفتيات، جمهورٌ كبير شرهٌ متعجّل! كانت ماريا مستلقية على الارض، ع
قدمي العجوز، جائعة رثّة الثياب. وكانت تبكي. فلما رأت جميع هؤلاء النا
اخفت وجهها في شعرها المنفوش ووضعت وجهها فوق الارض. كان الجم
ينظرون اليها نظرتهم الى بهيمة نجسة. كانت العجائز يوبخنها ويشتمنها والشبا
يسخرون منها وتحتقرها النساء ويؤنّبنها وينظرن اليها باشمئزاز وتقزّز كما ينظرن ا
دودة العنكبوت. لقد سمحت الام بهذا كله. وكانت تهز رأسها موافقة على ذلك
وتفاقم منذ ذلك الحين مرضها تفاقماً شديداً حتى لكأنها تحتضر. وقد ماتت ف
بعد شهرين. كانت تعلم أنها ستموت قريباً، ولكنها الى أن ماتت لم تفكر في
تصالح ابنتها. حتى إنها أصبحت لا تكلّمها، وصارت تجبرها على أن تبيت ع
المدخل، ولا تكاد تطعمها. وكانت الام في حاجة دائمة الى وضع قدمي
المريضتين في ماء ساخن، فكانت ماريا تهيئ لها ذلك كل يوم، وتعتني بها وتة
العجوز هذه العناية صامتة، فلم تقل لماريا كلمةً لطيفةً في لحظة من اللحظات
وكانت ماريا تتحمل كل شيء، وبعد ذلك حين تعرّفت اليها، لاحظت أنها

نفسها كانت تؤيّد وتحبذ المعاملة التي عوملت بها، وتُبعدُ نفسها أحقر الناس. وحين أصبحت الام لا تستطيع أن تنهض، أصبحت عجائز القرية تأتي اليها لتعتني بها واحدةً بعد واحدة، كما جرت العادة بذلك. ومنذ ذلك الوقت أصبح لا يُطعم أحد ماريا قط، وأصبح الناس في القرية يطردونها، ويرفضون أن يعهدوا اليها بعمل، حتى لكأنهم يبصقون عليها، وصار الرجال كأنهم لا يُعدُّونها امرأة، فهم ينطقون بحضورها كلمات بذيئة فاحشة. وكانوا في بعض الاحيان، حين يكونون سكارى يوم الاحد، يرمون لها على الارض دريهمات قليلة، فتجمعها ماريا صامتة. وكانت منذ ذلك الحين قد اخذت تبصق دماً. صارت اسمالها آخر الامر قطعا ممزقة، حتى أصبحت تستحي أن تظهر للناس في القرية. وكانت منذ عودتها قد أخذت تمشي حافية القدمين.

وفي تلك الفترة، اندفع الاطفال وهم مجموعة يبلغ عددهم قرابة اربعين طفلاً، يهاجمونها بضراوة ويرمونها بالوحل. طلبت ماريا من الراعي أن يسمح لها بحراسة الابقار، ولكن الراعي طردها. وأخذت مع ذلك تسير وراء القطيع الى المرعى كل صباح، من تلقاء نفسها دون ان يأذن لها الراعي بذلك. واذ لاحظ الراعي أنها تنفعه في عمله كثيراً، أصبح لا يطردها، حتى إنه اصبح يعطيها بقايا غذائه من الجبن والخبز احياناً، وكان يُعدُّ ذلك احساناً منه ونعمةً كبرى يمن بها عليها. «وحين ماتت امُّها، لم يخجل الكاهن من أن يهين ماريا على مسمع ومرأى من جميع الناس. كانت ماريا واقفةً تبكي وراء التابوت بثيابها البالية. وكان الناس قد توافدوا لينظروا اليها سائرين وراء النعش. قال الكاهن في تلك اللحظة، وهو رجل ما يزال شاباً ولا يطمح الى شيء إلاّ أن يكون واعظاً كبيراً، قال وهو يشير الى ماريا: «هذه هي التي كانت سبب وفاة تلك المرأة المحترمة (وهذا خطأ، فالعجوز مريضة منذ سنتين). ها هي امامكم لا تجرؤ أن ترفع عينيها، لأن الله قد دمغها الى الابد، ها هي حافية القدمين ممزقة الثياب، عبرة لجميع اولئك الذين يفقدون الفضيلة! ومن هي؟ هي ابنتها نفسها!»، وهلم جرا! وقد ارضى هذا

التصرُّف الشائن من جهة الكاهن جميع الناس تقريبا، إلاَّ أن شيئا قد حدث في تلك اللحظة، هو أن الاطفال قد تحزَّبوا لماريا، لأنهم في ذلك الاوان كانوا قد انحازوا جميعا الى صفي واخذوا يحبون ماريا.

اليكن تفصيل ما حدث: «كنت قد أردت أن أصنع شيئا لماريا. وكانت في حاجة ماسة الى شيءٍ من المال، ولكني لم اكن أملك قرشاً واحداً. لم اكن أملك الا دبوساً له فص من ماس، فلما مر بالقرية بائع متجوّل يتنقل من قرية الى قرية، بعته الدبوس بثمانية فرنكات. لا شك ان الدبوس تساوي قيمته اربعين فرنكاً. واخذْتُ أبحث عن ماريا وحدي، مدة طويلة. فالتقيت بها اخيراً وراء سور القرية في ممر بين الجبال قرب شجرة. فاعطيتها الثمانية فرنكات، واوصيتها بأن تحرص عليها لأنني لن املك غيرها. ثم قبّلتها وطلبت منها ألاَّ يذهب بها الظن الى أنني أطمع منها في سوء، ولم اقبّلها لأنني مغرم بها، بل لأنني ارثي لحالها، وقلت لها انني لم أُعِدَّها في يوم من الايام آثمة بل تعيسة. كنت أرغب رغبةً قويةً في مواساتها وتعزيتها واقناعها بأنها يجب عليها الاَّ تشعر بالمذلة تجاه الاخرين، ولكنها لم تفهم عني حتماً، وقد احسست أنا ذلك على الفور، رغم أنها ظلّت صامتة طول الوقت تقريبا، مُطرِقة الى الارض، خافضةً عينيها بخجل كبير. فلما فرِغْتُ من كلامي قبّلت يدي فاردت أن أقبل يدها تواً، لكنها انتزعت يدها بقوة. وفي تلك اللحظة فاجأتنا مجموعة الاطفال، وقد علمت فيما بعد أنّهم كانوا يراقبونني منذ مدة طويلة. اخذ الاطفال يصفّرون صفيراً عالياً ويصفّقون بايديهم تصفيقاً قوياً، ويضحكون ضحكاً عالياً، بينما كانت ماريا تهرب راكضة. حاولت أن اكلّمهم، ولكنّهم رموني بالحجارة.

وعلم جميع الناس بالنبأ في ذلك اليوم نفسه، علمت به القرية كلها. وسقط هذا كلّه مرة اخرى على رأس ماريا. فاخذوا يحتقرونها مزيداً من الاحتقار، حتى لقد سمعت أنهم يريدون معاقبتها، ولكن الامر لم يتجاوز حدود الكلام! غير أن الاولاد لم يتركوا لها بعد ذلك اليوم راحة. أصبحوا يطاردونها أكثر من ذي قبل،

واخذوا يرمونها بالوحل. وصارت حين يلاحقونها تحاول أن تهرب منهم، ولكن سرعان ما كانت انفاسها تنقطع بسبب مرض السل الذي يعيث في صدرها. صاروا لا يتركونها، وأخذوا يقذفونها بانواع السباب والشتائم، حتى لقد اضطررت مرة أن اقتتل معهم. وحاولت بعد ذلك أن اكلّمهم وأن اتحدّث اليهم كل يوم وفي كل مناسبة. فكانوا يقفون ليُصغوا الى كلامي مع استمرارهم في إطلاق الشتائم صراخاً عالياً. حدّثتهم عن مدى الشقاء الذي تعاني منه ماريا، فما هي إلاّ فترة وجيزة حتى أخذوا يكفُّون عن اهانتي، وتعوّدوا أن ينصرفوا صامتين. وتوصّلنا اخيراً الى أن نتبادل الحديث. لم أُخف عنهم شيئا، بل رويت لهم كل شيء، فكانوا ينصتون اليّ بكثير من الاهتمام، وسرعان ما اخذوا يرثون لحال ماريا، ويشفقون عليها. حتى لقد صار بعضهم يحيُّونها تحيّة لطيفة اذا التقوا بها عابرين. وكانت العادة في القرية أن يُحيي الناس بعضهم بعضاً اذا تلاقوا، سواء اكانوا متعارفين او غير متعارفين. تخيّلن دهشة ماريا. في ذات يوم حملت اليها طفلتان طعاماً، ثم جاءتا ترويان لي ذلك. قالتا إن ماريا اخذت تبكي، وانهما الآن تحبانها كثيراً. ولم تنقض مدة قصيرة حتى اخذ جميع الاطفال يحيُّونها، ويحيُّونني انا ايضاً في الوقت نفسه. اصبحوا يجيئون اليّ احياناً كثيرةً، ويطلبون مني أن اروي لهم شيئا ما. اظن أنني كنت أجيد الحديث، وكانوا يحبُّون الاستماع اليّ كثيراً، ثم أصبحت لا ادرس ولا اقرأ الا لكي أحكي لهم بعد ذلك ما درست وقرأت. وانقضت السنون الثلاث الاخيرة من حياتي هناك على هذا النحو.

«وفيما بعد، عندما اخذ الناس عليّ ـ ومنهم شنايدر ـ أنني اكلّم الاطفال الصغار كما لو كانوا اشخاصاً كباراً، دون أن أخفي عنهم شيئا، كنت أجيبهم جميعاً بأن من العار أن نكذب على الاطفال، لأنهم يعرفون كل شيء دون أن نحدّثهم عنه، ونحاول اخفاءه عنهم. وبأن ما نخفيه عنهم قد يتعلّمونه تعلُّماً فاسداً، اما انا فأطلعهم عليه بطريقة مناسبة. وحَسْبُ الانسان أن يتذكّر طفولته حتى يدرك صحة ما أقول. ولكنني لم أفلح في اقناعهم... «كنت قد قبّلت ماريا قبل موت أمّها بنحو

اسبوعين، ولكن حين القى الكاهن خطبته، كان جميع الاطفال قد انحازوا الى صفّي. واسرعت اقصُّ عليهم وأشرح لهم ما فعله الكاهن، فغضبوا جميعاً عليه، حتى إن بعضهم بلغ بهم الغضب أنهم كسروا له زجاج بيته بالحجارة وقد اوقفتهم عن ذلك، مبرهناً لهم على أن عملهم هذا شر. ولكن اهل القرية كانوا قد علموا بكل شيء، عندئذ اخذوا يتهمونني بأنني اضلل الاولاد عن الطريق القويم، وعلموا بعد ذلك أن الاولاد اصبحوا يحبُّون ماريا، فقلقوا قلقاً شديداً. ولكن ماريا كانت قد شعرت بسعادة كبيرة. وبلغ من اهل القرية القلق الى درجة أنهم حظَّروا على اولادهم مقابلتها، ولكن الأولاد كانوا يلحقون بها خفية الى حيث توجد مع القطيع في مكان بعيد يقع على مسافة نصف ميل من القرية تقريبا، فبعضهم يحمل اليها الحلوى، والآخر لا شيء، وإنّما يعانقونها ويقولون: «نحن نحبُّك يا ماريا»، ثم يعودون الى القرية راكضين بسرعة. غير أن ماريا اوشكت أن تصبح مجنونة من هذه السعادة المفاجئة، فإنها ما كانت تجرؤ أن تحلم بمثل هذا الانقلاب في يوم من الايام. والحقُّ أنها اصبحت مضطربة فرحة في آن واحد. أما الاطفال، ولا سيّما البنات، فقد كانوا يحبُّون خاصة أن يذهبوا اليها ليقولوا لها إنني أحبها، وإنني احدّثهم عنها كثيراً. وحكوا لها أنهم قد علموا مني كل شيء عنها، وأنهم الآن يحبُّونها ويرثون لحالها ويشفقون عليها، وسيظلُّون كذلك دائماً. وكانوا بعد ذلك يأتون اليّ بوجوه فرحة وجادة، ليقولوا لي إنهم رأوا ماريا وإنّها تسلّم عليّ. وكنت أذهب في المساء الى الشلال، وهناك ركن تخفيه اشجار الحور عن القرية اخفاءً تاماً، وكان الاطفال يأتون في المساء ليلتقوا بي، حتى إن بعضهم كان يأتي خفيةً وسراً. وكان حبي لماريا يسعدهم أكبر السعادة، وكان هذا في الواقع هو الامر الوحيد الذي كذبت عليهم فيه طول مدة اقامتي هناك، فإنني لم احاول أن ابدّد اوهامهم شارحاً لهم أنني لا احب ماريا، وانّما انا أرثي لحالها. كنت الاحظ أنّهم يفضلون أن يكون الامر على نحو ما تصوَّروا فيما بينهم. ولم اقل شيئا لهم أن يظنُّوا أنّهم عرفوا الحقيقة!

«وكانت قلوب هؤلاء الصغار تبلغ من رقة العاطفة والحنان لدرجة أنه بدا لهم، أنه اذا كان صديقهم ليون يحب ماريا هذا الحب كلّه، فلا يجوز أن تظل ماريا رثّة الثياب وتمشي حافية القدمين. هل تصدقون أنهم احضروا لها حذاء وجوارب، بل احضروا لها ثوباً. ولم استطع أن أعرف كيف استطاعوا أن يفعلوا ذلك. لقد اشتركت مجموعة الاطفال كلها على تنفيذ ذلك. فاذا سألتهم لم يزيدوا على أن يضحكوا، وكانت البنات تصفّق بايديها وتقبّلني. وكان يتفق لي في بعض الاحيان أيضاً أن ارى ماريا خفيةً. لقد تفاقم مرضها تفاقماً شديداً فلا تكاد تستطيع أن تمشي. ثم أصبحت اخيراً لا تنفع الراعي في شيء، لكنها ظلت تتبع القطيع كل صباح، وتجلس منتحية منزوية. كانت هنالك صخرة تهبط هبوطا عموديا وفيها ما يشبه أن يكون مصطبة ناتئة، فكانت ماريا تجلس في القاع على الصخرة مختفية من جميع الجهات، وتلبث على هذه الحال لا تكاد تتحرك، من الصباح حتى ساعة عودة القطيع الى القرية. لقد اوهنها السل حتى صارت في أغلب الاحيان تغمض عينيها وتستند الى الصخرة وتغفو وهي تتنفس بكثير من العناء. وبلغ وجهها من الهزال أنه أصبح اشبه بهيكل عظمي، وكان العرق يتصبب على جبينها وصدغيها.

«كنت اجدها على هذه الحال دائماً. وكنت لا اجيئها إلاّ لحظةً قصيرةً، فقد كنت أنا ايضاً أحرص على أن لا يراني احد. فما أن أظهر لها حتى تنتفض وتفتح عينيها وتهرع تقبّل يدي. اصبحت لا اسحب يديّ حين تقبّلهما، فقد لاحظتُ أن تقبيل يديّ يسعدها. وكانت ترتجف وترتعش وتبكي ما ظللت قريباً منها هناك. صحيح إنها حاولت أحيانا أن تتكلّم، ولكن كان يصعب على المرء أن يفهم منها. كانت في بعض الاوقات كالمجنونة، من فرط انفعالها الرهيب وانشداهها المذهل. وكان الاطفال يصحبونني احيانا. وقد الفوا في مثل تلك الاحوال أن يقفوا غير بعيد، ليقوموا بمهمة الحراسة والحماية، وكان ذلك يبهجهم كثيراً! حتى اذا انصرفنا بقيت ماريا وحيدة من جديد، لا تتحرك، مغمضة العينين، مسندة رأسها الى الصخرة. لعلها كانت تحلم.

«وفي ذات صباح لم تقو على أن تتبع القطيع، ولبثت في بيتها الصغير الخالي. وسرعان ما علم الاطفال بذلك، فجاؤوا يزورونها في النهار، كلُّهم تقريباً. كانت مستلقية على سريرها وحيدة تماماً. وانقضى يومان لا يعتني بها اثناءهما إلاّ الاطفال مناوبةً. حتى اذا عرف اهل القرية بعد ذلك أن ماريا تحتضر، جاءت عجائز تسهر عليها. يبدو أن الناس في القرية قد أخذوا يُشفقون عليها آخر الامر، او أنهم اصبحوا على الاقل، لا يُحرّمون على اولادهم مشاهدتها، ولا يؤنّبونهم اذا هم رأوها. وكانت ماريا طوال الوقت في حالة نوم، إلاّ أن نومها كان مضطرباً، وكان يمزّق صدرها سعالٌ رهيب. وكانت العجائز تطردُ الاولاد، إلاّ انهم كانوا يهرعون الى النافذة ولو لحظة قصيرة ليقولوا: «تحيّة يا صديقتنا الطيبة ماريا!» فكانت ما إن تراهم أو تسمعهم حتى تنتعش، فاذا هي تحاول أن تنهض على كوعها دون أن تستجيب لنهي العجائز، واذا هي تحييهم بهز رأسها وتشكرهم. واستمر الاولاد على أن يأتوها بحلوى، لكنها أصبحت لا تكاد تأكل من حلواهم شيئا. لكن اؤكد أنها ماتت بفضل الاولاد سعيدة. وبفضلهم نسيت شقاءها الأسود، كأنها حصلت على غفران خطاياها، ذلك أنها ظلت الى النهاية تعتقد أنها آثمة كبيرة. كان الاولاد يتدافعون على نافذتها تدافع العصافير تلطم الزجاج بأجنحتها، ويصيحون قائلين لها كل صباح: «نحن نحبك يا ماريا!»

«وماتت ماريا بسرعة وكنت اظن أنها ستعيش زمنا أطول من ذلك كثيراً. وذهبت عشية موتها لكي ازورها عند غروب الشمس، لا بد أنها تعرّفت عليّ، صافحتها مرة اخيرة. ما كان اشد يبوسة يدها! وفي اليوم التالي جاء من يقول لي إنها قد ماتت! أصبح يستحيل عندئذ ضبط الاطفال، فقد غمروا تابوتها بالازهار، ووضعوا اكليلا على رأسها. وامتنع الكاهن في الكنيسة في هذه المرة عن ذكر سيئاتها، ومهما يكن من امر، فإن الذين حضروا الدفن كانوا قلّة قليلة من الفضوليين، ولكن الأطفال هرعوا جميعاً حين وجب حمل النعش. واذ كانوا لا يقوون على حمله فقد حاولوا أن يساعدوا وأن يعاونوا، وركضوا وراء النعش،

وكانوا جميعاً يبكون. ومنذ ذلك الحين أصبح قبر ماريا ضريحاً يحجُّ اليه الاطفال، فهم في كل سنة يغمرونه بالازهار وقد زرعوا حوله الورود.

«ومنذ أن دُفنت ماريا أخذ أهل القرية يضطهدونني في امر الأولاد، وكان الكاهن والمعلم أكبر المحرضين على اضطهادي. حرّموا على الاولاد أن يروني، ووعد شنايدر بأن يسهر على تنفيذ ذلك. لكنّنا كنّا نستطيع أن يرى بعضنا بعضاً، فنتخاطب بالاشارات من بعيد. ثم سوّيت الامور من بعد، غير أن ما حدث كان حسنا جدا، فبفضل تلك المعاملة السيئة، اقتربت من الاطفال مزيدا من الاقتراب.

«في السنة الاخيرة تصالحت تقريباً مع المعلم والكاهن. اما شنايدر، فكان يكلّمني كثيراً، ويناقش «مذهبي» السيّئ في معاملة الاولاد. اي مذهب؟ لقد اطلعني شنايدر اخيراً على فكرة غريبة جداً كانت قد خطرت بباله ـ حدث هذا قُبيل سفري مباشرةً ـ فقال لي إنه مقتنع اقتناعاً تاماً بأنني انا نفسي طفلٌ حقاً، طفلٌ من جميع النواحي، وأنني ليس لي من صفات الرجل البالغ الراشد إلاّ القامة والوجه، أما من ناحية النفس والطبع والتكوين وربما الذكاء، فما أنا بالرجل البالغ الراشد، وأنني قد اظل على هذه الحال ولو عشت ستّين عاماً. ضحكت من كلامه. فلا شك أنّه لم يكن على حق. وإلاّ ففي أي شيء يمكن أن أُعدَّ طفلاً؟ هناك شيء واحد صحيح، هو أنني لا احب صحبة الكبار فعلاً، لقد لاحظت هذا في نفسي منذ مدة طويلة. وما زلت لا أُحب صحبة الكبار، ولا أحسن أن أكون معهم. ومهما يُظهروا لي من طيب ونبل، فانني اظل أشعر بضيق ما بقيت معهم، حتى اذا استطعت أن اتركهم وأن امضي الى رفاقي احسست بارتياح وغبطة، ورفاقي هم دائما اطفال، لا لإنني انا نفسي طفل، بل لإنهم يجتذبونني لا أكثر! إنني منذ بداية اقامتي في تلك القرية، اثناء نزهاتي التي أقوم بها في الجبل وحيداً حزيناً، كنت اذا التقيت احياناً، ولا سيّما عند الظهر، ساعة الخروج من المدرسة، بتلك المجموعة الصاخبة من الاطفال الذين يركضون حاملين حقائبهم وألواحهم، يصرخون ويضحكون ويلعبون،

كنت اشعر أن نفسي كلُّها تتجه اليهم وتندفع نحوهم على حين فجأة. لا ادري كيف أفسّر هذا وكيف اعلله، ولكنني ما التقيت بهم مرّة إلاّ شعرت بسعادة قويّة تملأ قلبي وتغمر نفسي. كنت اتوقف وأضحك سعيداً، حين أنظر الى سيقانهم الصغيرة المتحركة النشيطة المتواثبة دائماً، وحين أرى هؤلاء الصبية والبنات يركضون، وحين أراهم يضحكون او يبكون (ذلك أن عدداً منهم كان يتّسع الوقت لديهم اثناء الطريق من المدرسة الى المنزل، للمشاجرة والبكاء والمصالحة واللعب). كنت عندئذ أنسى حزني. وبعد ذلك طوال تلك السنين الثلاث، أصبحت لا استطيع حتى أن أفهم كيف ولماذا يمكن أن يشعر البشر بالحزن. لقد كانت حياتي كلُّها مرتبطة بالاطفال.

«لم افكّر يوماً في أن أترك تلك القرية، ولا خطر ببالي ساعة أنني استطيع أن اعود الى روسيا في يوم من الايام. كان يخيّل اليّ أنني مُقيم هناك الى الابد. لكنني فهمت اخيرا أنني لا استطيع أن أكون عالة على شنايدر، وفي ذلك الاوان إنّما حدث امرٌ يبلغ من خطورة الشأن، فيما يظهر، أن شنايدر نفسه استحثّني على الرحيل، وكتب الي هنا باسمي. سوف ارى ما هو الامر، وسوف أطلب النصح. ولعل مصيري يتغيّر بذلك تغيراً تاماً، ولكن المسألة ليست هنا، وليس هذا اهم شيء، فإنما الشيء الهام أن حياتي قد تغيّرت تغيُّراً كاملاً منذ الآن. لقد تركت هناك اشياءَ كثيرةً جداً. لقد زال كل شيء، قلت لنفسي وانا في القطار: «انا الآن ذاهب الى الناس، وربما كنت لا أعرف شيئا، غير أن حياةً جديدةً قد بدأت». قرّرت أن انفّذ مهمتي بثبات وصلابة، إنني أقدّر أن حياتي مع الناس ستكون شاقة ومُملة. فقررت أن أكون مهذباً مع الجميع، وأن أكون صريحاً، ولا شك في أنهم لن يطالبوني بأكثر من ذلك! وربما عدُّوني طفلاً هنا ايضاً. لا بأس! ثم إن الجميع يُعدُّونني أبله! إني لاتساءل لماذا؟ صحيح أنني مرضت في الماضي حتى صرت أشبه بأبله، ولكن في اي شيء أنا الآن أبله، ما دمت أُدرك أنهم يُعدُّونني أبله، وانا مع ذلك ذكي، ثم هم لا يخطر لهم هذا على بال»!؟ كثيرا ما تدور هذه الفكرة في رأسي.

«حين تلقّيت بمدينة برلين الرسائل الصغيرة التي استطاعوا أن يرسلوها اليّ
ن هناك، أدركت اخيراً مدى ما يحملونه لي من حب. إن الرسالة الأولى تثير
ثيراً من الالم دائماً! ما كان أشد حزنهم حين صحبوني الى محطة القطار. كانوا
ذ بدأوا يستعدُّون لرحيلي منذ شهر قائلين: «ليون مسافرٌ الى الابد.» اصبحنا نلتقي
رب الشلال في كل مساء ونأخذ نتحدّث عن فراقنا المرتقب، ونكون احياناً مرحين
كمرحنا في السابق، لكنّهم تعوّدوا حين يتركونني ليذهبوا الى النوم، أن يضمُّوني
أذرعهم ضماً قوياً فيه كثير من المحبّة والحنان، وذلك امر لم يفعلوهُ من قبل.
وكان بعضهم يأتي مُنفرداً، خفية عن الآخرين، ليُقبّلوني على مهلهم دون رقيب.
وفي يوم رحيلي، جاؤوا مجموعة واحدة ليصحبوني الى المحطة. إن المحطة تبعد
عن القرية مسافة ميل. كانوا يكبحون شعورهم ويخفون عاطفتهم فيُمسكون عن
البكاء، غير أن بينهم من كانوا لا يُفلح في ذلك فإذا هم ينشجون باصوات عالية،
ولا سيّما البنات. سرنا بخطى سريعة حتى لا نصل متأخرين، لكن واحداً منهم
انفصل عن الآخرين فجأة، وارتمى عليّ في منتصف الطريق، وطوّقني بذراعيه
الصغيرتين، وأخذ يقبّلني، فاستوقف بذلك موكبنا كلّه. وحين ركبت وتحرّك القطار
صاحوا يودّعوني بصوتٍ واحد، ولبثوا في اماكنهم الى أن اختفى القطار عن
ابصارهم اختفاءً تاماً، وكنت انا ايضاً انظر اليهم . . .».

يصف هذا المقطع من رواية «الأبله» لقاء الامير مايشكين الاول مع ناستازيا فيليبوفنا، التي تصل بصورة غير متوقعة الى بيت غانيا (جافريل ارداليونوفيتش) الذي طلب منها أن تتزوجه. ولم يكن دافعه للزواج بها حبُّه لها، ولكن المال الذي عرضه عليه ملاّك الاراضي الغني توتسكي. اراد توتسكي الذي قام بتربيتها وهي يتيمة ثم هياها لتكون عشيقته، أن يحرّر نفسه منها، ولكن عائلة غانيا تعارض خطة الزواج بسبب سمعتها السيئة.

وقد اجتمع في اللقاء العائلي نينا الكسندروفنا، وامُّ غانيا، ولخته فاريا (المخطوبة الى بتيتسن، مُقرض الاموال)، وكوليا لخوه الأصغر. امّا فيرديشتشنكو فقد كان يسكن في البيت. واليوم هو عيد ميلاد ناستازيا فيليبوفنا وقد وعدت بان تُعلن قرارها حول زواجها المتوقّع خلال حفل المساء.

وكان روجوزين شخصاً مزعجاً وحديث الثراء، ويحب بجنون ناستازيا فيليبوفنا. وقد احضر معه مجموعة من الاصدقاء المشاكسين ومن ضمنهم لبيديف. وكان الامير مايشكين قد انتقل للتو للسكن في هذا المنزل.

اجتاز مايشكين قاعة الطعام ليصل الى القاعة الكبرى ثم الى غرفته، فلمّا وصل الباب الامامي، سمع احداً وراء الباب يحاول أن يشدّ حبل الجرس، ولكن

الجرس كان معطلاً فيما يظهر، فهو لا يزيد على أن يتحرك تحركاً ضعيفاً دون أن يُسمع له اي صوت. فسحب الامير المزلاج، وفتح الباب، فاذا هو يتراجع مذهولاً مرتعشاً بجسمه كله، كانت ناستازيا فيليبوفنا واقفةً امامه، وسرعان ما عرفها من معرفته لصورتها. فلمّا لمحته ناستازيا ومضت عيناها بمعنى الضيق والانزعاج، واسرعت تدخل حجرة المدخل، فتصدمه بكتفها عند دخولها وتقول له بلهجة حانقة وهي تطرح عنها معطفها المصنوع من الفرو:

اذا كنت من الكسل بحيث لا تُحمّل نفسك عناء اصلاح الجرس، فلا أقلّ من أن تتواجد بالقرب من المدخل حين يُقرع الباب! ها هو ذا يسقط معطفي، يا غبي!

كان المعطف قد سقط على الارض فعلاً. فإنها لم تنتظر أن يساعدها في خلع المعطف، فرمته على ذراعيه بحركة من كتفها دون أن تنظر اليه، ولم يتّسع وقت مايشكين لأن يتلقاه.

ـ كان عليهم أن يطردوك من الخدمة، أبلغهم عن وصولي.

أراد مايشكين أن يقول شيئاً، لكنه كان قد بلغ من الاضطراب الى حد أنه لم يستطع أن ينطق بكلمةٍ واحدة، وها هو ذا يتّجه نحو الصالون وعلى ذراعه المعطف الذي رفعه عن الارض.

ـ الآن تحمل معطفي! لماذا تأخذه بعيداً؟ ها ها! قل لي: الست مجنونا؟

رجع مايشكين الى الوراء، وحدّق اليها كالمتجمد. فلمّا ضحكت ابتسم هو ايضاً، ولكنه ما يزال عاجزاً عن الكلام. في اللحظة الاولى حين فتح لها الباب، إصفرّ لونه. أمّا الآن فإن الدم يملأ وجهه.

صرخت ناستازيا فيليبوفنا غاضبةً وهي تضرب الارض بقدمها: ما هذا الأبله؟ الى اين تذهب هكذا؟ ستبلغ عن وصول من؟

تمتم مايشكين: ناستازيا فيليبوفنا.

فسألته مسرعة: كيف تعرفني؟ انا لم ارك يوماً! هيا بلّغ عن وصولي... ما هذا الصراخ؟

أجاب مايشكين وهو يتّجه نحو قاعة الاستقبال: إنهم يتشاجرون.

ودخل عليهم في لحظة حاسمة: كانت نينا الكسندروفنا متأهّبة لأن تنسى نسياناً كاملاً إنها «مذعنة لكل شيء»، وتدافع عن فاريا، وكان بتيتسن يقف الى جانب فاريا وقد ترك ملاحظةً مكتوبة. أمّا فاريا فلم يكن يبدو عليها أنها فقدت سيطرتها على نفسها. إنها لم تكن من النوع الذي يخاف. ومع ذلك كانت قسوة اخيها تظهر في كل كلمة أشدّ غلظة وأثقل وطأة. ولقد اعتادت في مثل هذه الاحوال أن تَكُفّ عن المناقشة، فهي لا تزيد على أن تنظر الى اخيها صامتة معبّرة بوجهها عن السخرية، دون أن تحوّل بصرها عنه لحظة واحدة. إنها تعرف هذا التكتيك، وهي قادرة على أن تمضي فيه الى أقصى حدوده. وفي تلك اللحظة إنما دخل مايشكين الى الغرفة مُعلنا:

ـ ناستازيا فيليبوفنا!

صمت شامل، نظر الجميع الى مايشكين، كأنهم لا يفهمون ولا يريدون أن يفهموا. وقد أُصيب جانيا بالذهول والرعب. إن زيارة ناستازيا فيليبوفنا، ولا سيّما في مثل هذه اللحظة، هي في نظر كل واحدٍ منهم تثير الدهشة والعجب، وتبعث على الحيرة والارتباك، على الاقل لأن ناستازيا فيليبوفنا تأتي لاول مرة. لقد ظلّت حتى الآن متكبرة متعالية، فلم تُعرب في احاديثها مع جانيا عن اية رغبة في معرفة اسرته، بل كانت لا تأتي على ذكرها. ورغم أن جانيا قد سرّه بمعنى من المعاني ارجاء مثل هذا الحديث الذي يزعجه ويحرجه كثيراً، فإنه في قرارة نفسه قد حقد على ناستازيا وحمل لها ضغينة، ولقد كان على كل حال يتوقع منها وخزات وسخريات في حق أهله أكثر مما كان يتوقع منها زيارة. كان يعلم علم اليقين أنها مطلعة على كل ما كان يجري في بيته عن خطوبته لها، وعلى كل ما كان يراه ذووه من رأي فيها، فقيامها بهذه الزيارة الآن، بعد اهداء صورتها في يوم عيد ميلادها،

في اليوم الذي سبق أن وعدت بأنها ستقرر فيه مصيرها، يشير الى قرارها نفسه.

لم تطل البلبلة التي أحدثها دخول مايشكين: فها هي ذي ناستازيا فيليبوفنا نفسها تقف على باب غرفة الاستقبال، ثم تدخل الغرفة فتدفعه مرة اخرى دفعة خفيفة.

اخيراً نجحت بالدخول.. لماذا تربطون جرسكم؟ قالت ناستازيا فيليبوفنا مرحة وهي تمد يدها الى جانيا الذي صار الى جانبها بوثبة واحدة. واردفت تسأله: ما لي ارى وجهك منقلباً؟ قدّمني الى الحضور من فضلك.

كان جانيا قد فقد السيطرة على نفسه، فقدّمها الى اخته فاريا، فتبادلت المرأتان نظرة غريبة قبل أن تمد كل منهما يدها الى الاخرى. كانت ناستازيا فيليبوفنا تضحك وتُخفي شعورها وراء قناع من المرح المصطنع، أمّا فاريا فلم تحاول أن تخفي شيئاً، فنظرتُها ظلّت مظلمةً ثابتة، ولم يظهر في وجهها حتى اثر ابتسامة، مما توجبه أبسط مبادئ الادب والتهذيب. فاغتاظ جانيا من ذلك حتى كادت تنقطع انفاسه. ولكن اوان ردّها الى الصواب قد فات، لذلك اقتصر على أن رشقها بنظرة قاسية قرأت فيها عنفاً شديداً، فأدركت قيمة هذه اللحظة عند اخيها، فاصطنعت لناستازيا فيليبوفنا ما يشبه أن يكون ابتسامه، (ما يزال اهل هذا البيت يُسرفون في حب بعضهم بعضا).

وجاء دور نينا الكسندروفنا فأصلحت الحال بعض الاصلاح، رغم أن جانيا، من فرط اضطرابه طبعاً، قد قدّم ناستازيا فيليبوفنا اليها بعد تقديمها الى اخته، ثم زاد على ذلك اسم أمّه قبل أن يذكر اسم ناستازيا.

ولكن ما أن بدأت نينا الكسندروفنا كلامها فقالت: «يسرّني جداً أن ...» حتى التفتت ناستازيا فيليبوفنا نحو جانيا بحركة سريعة دون أن تدع للأم أن تكمل جملتها، وصرخت تقول له بعد أن استقرت على كنبة صغيرة قرب النافذة، دون أن تُدعى للجلوس:

ـ اين حجرة مكتبك؟ واين السكّان الذين يستأجرون عندكم غرفاً مع الطعام والخدمة؟ لديكم مستأجرون، اليس كذلك؟

إحمرّ وجه جانيا احمراراً شديداً، وحاول أن يتلفّظ بجواب، لكن ناستازيا فيليبوفنا كانت قد تابعت كلامها تقول: «اين يمكنكم أن تُسكنوا مستأجرين؟ ليس لك حتى حجرة مكتب!» ثم التفتت فجأة نحو نينا الكسندروفنا فقالت لها: «هل التأجير يدرُّ ربحاً على الاقل؟»

فأجابت قائلة: التأجير يورث متاعب كثيرة. وكان ينبغي أن يدر ربحاً بطبيعة الحال، غير أن...

ولكن ناستازيا فيليبوفنا كانت قد انقطعت عن الاصغاء اليها، لأنها التفتت الى جانيا وصاحت تقول له:

ـ ما لي ارى وجهك منقلباً هذا الانقلاب! رباه! ما هذا الوجه... في هذه اللحظة؟

استمرت في الضحك لفترة من الزمن، وكان وجه جانيا مضطرباً جداً. لقد بارحه فجأة ما احسّه في أول الامر من ذهول. ولكنّه أصبح شاحب اللون وتشنّجت شفتاه، واخذ يحدّق بنظرة ثابتة خبيثة شريرة، دون أن ينطق بكلمة واحدة، الى وجه زائرته التي ما تزال تضحك.

غير أن مراقباً آخر كان موجوداً هناك، لم يكن قد استطاع أن يتحرر من الدهشة عند رؤية ناستازيا فيليبوفنا. لكنه رغم أنه بقي ثابتاً في مكانه على باب غرفة الاستقبال، قد استطاع أن يلاحظ اصفرار جانيا وأن يرى ما طرأ على وجهه من اضطراب. كان هذا المراقب هو مايشكين . وها هو يتقدّم الى الامام وقد اصابة الخوف، وقال لجانيا:

ـ إشرب قليلاً من ماء، ولا تنظر هكذا.

كان واضحاً أنه قال ذلك كلّه دون اي حساب او هدف، وإنما انقاد لاندفاعه

الاول. ولكن اقواله هذه كان لها اثر خارق فكأن كل ما كان يعتمل في نفس جانيا من غيظ قد انصبَّ على مايشكين دفعةً واحدة، فها هو ذا يمسكه من كتفه، ويحدِّق اليه بنظرة فيها حقد وكره، صامتاً كأنه عاجزٌ عن أن ينطق بكلمة. فسرى في الجمع كلُّه انفعال شامل، حتى أن نينا الكسندروفنا اطلقت صرخة صغيرة. وقلق بتيتسن فتقدَّم خطوة الى أمام. وكان كوليا وفردشتينكو قد ظهرا في الباب فوقفا مذهولين مشدوهين، وظلَّت فاريا وحدها خافضة رأسها، ولكنها تراقب الاحداث بانتباه. كانت قد لبثت واقفة الى جانب امها، عاقدة ذراعيها على صدرها.

لكن جانيا لم يلبث أن عاد الى صوابه تقريبا، فاطلق ضحكة عصبية، ثم استردَّ وعيه كاملاً، وصاح يقول بصوت حاول أن يجعله مرحاً طبيعياً:

ـ «ماذا دهاك ايُّها الامير؟ اتراك طبيباً؟ لقد كدت تخيفني».

والتفت الى ناستازيا فيليبوفنا، واضاف يقول: «اسمحي لي أن اقدِّم لك هذه الشخصية النادرة، وإن كنت لا اعرفه انا نفسي إلاَّ منذ هذا الصباح».

نظرت ناستازيا فيليبوفنا الى مايشكين محتارة، وقالت:

ـ أمير؟ اهو امير؟ تصوَّروا أنني منذ قليل، حين رأيته في حجرة المدخل، قد ظننته خادما، فأرسلته الى هنا ليبلغ عن وصولي! ها ها ها!

قال فردشتينكو وقد اقترب مسرعاً، مبتهجاً بأن الضحك قد عاد: لا بأس! لا بأس! حصل خير على كل حال.

ـ كنت على وشك الإساءة اليك يا امير، فاغفر لي، ارجوك! ... فردشتينكو، ماذا تفعل هنا في مثل هذه الساعة؟ كنت آمل على الاقل ألاَّ اصادفك هنا. قالت ناستازيا فيليبوفنا ذلك، ثم سألت جانيا ثانية، وهو ما يزال ممسكا كتف مايشكين يقدمه اليها ويعرِّفها به.

فقال جانيا: هو مستأجر عندنا

لقد كان من الواضح أنّه قدم بتقديمه الى ناستازيا فيليبوفنا على أنه شخص طريف نادر، ومن اجل الخروج من المأزق الذي وقع فيه، بل أن مايشكين سمع كلمة «أبله» بصورة واضحة يرددها أحدهم خلفه، ربما يكون ذلك من فردشتينكو، وذلك على سبيل الشرح الى ناستازيا فيليبوفنا.

تابعت ناستازيا فيليبوفنا كلامها وهي تفحص مايشكين من قمة الرأس الى اخمص القدمين دون حرج: قل لي، لماذا لم تصحّح لي خطئي منذ قليل، حين ارتكبت في حقك... تلك الغلطة الرهيبة؟

كان يبدو على ناستازيا توق شديد الى سماع جوابه، لاقتناعها سلفاً بأن هذا الجواب سيبلغ من الحماقة، أنها لن تستطيع إلاّ أن تضحك منه.

تمم مايشكين يقول: لقد دهشت من رؤيتك فجأة امامي.

ـ وكيف عرفتني؟ اين التقيت بي قبل اليوم؟ عجيب. يخيّل الي حقا أنني سبق أن رأيته في مكان ما! وماذا وجدت فيّ من شيء يبلغ هذا المبلغ من الغرابة؟

قال فردشتينكو مُجعداً وجهه: هيا.. اجب.. لماذا لا تجيب؟ آه... حين أفكر فيما كان يمكن أن أجيب به على مثل هذا السؤال لو كنت في مكانك! تعال... كان المفروض أن نظن أولاً أنك عبيط، ثم أمير!

قال مايشكين لفردشتينكو ضاحكا كذلك: ولكن انا أيضاً يمكنني أن أقول اشياء كثيرة لو كنت في مكانك. ثم تابع كلامه مخاطباً ناستازيا فيليبوفنا: في هذا الصباح خطفت صورتك بصري. وبعد ذلك تحدّثت عنك مع آل ايبانتشين، وفي ساعة مبكرة من هذا الصباح، حين كنت في القطار، حتى قبل وصولي الى بطرسبرج، حدّثني عنك بارفيون روجوزين كثيراً. وفي اللحظة التي فتحت لك فيها الباب، في تلك اللحظة نفسها كنت بخاطري، فاذا أنا اراك امامي.

ـ ولكن كيف عرفت أنني انا؟

ـ عرفت ذلك من رؤيتي للصورة، و...

- وماذا؟

- ولانك كُنتِ كما تخيلتك، وايضاً لأنني أشعر بأنني سبق أن رأيتك في مكان ما،

- ولكن اين؟ اين؟

- يخيّل الي أنني سبق أن رأيت عينيك... ولكن هذا مستحيل!...لم يكن ذلك إلاّ... انا لم اعش هنا قط. لعل ذلك حدث في حلم اثناء النوم...

هتف فردشتينكو قائلاً: «مرحى يا امير، انني أسحب ما قلت اذ لم يكن صحيحاً». ثم اضاف بأسف: «إن هذا كلّه يعبّر عن سذاجتة وبراءتة».

نطق مايشكين بتلك العبارات بصوت مختلج، حتى لقد كان يتوقف عن الكلام في كثير من الاحيان ليسترد انفاسه. كان كل شيء فيه يدل على انفعال شديد. وكانت ناستازيا فيليبوفنا تتأمله باستطلاعٍ قوي، لكنها لم تكن تضحك الآن.

وفجأة كانت هناك ضوضاء آتية من حجرة المدخل، إن من كان في غرفة الاستقبال يُدرك أن عدة اشخاص قد دخلوا، وأن آخرين ما زالوا يدخلون. كانت أصوات كثيرة تتكلم في آنٍ واحد، وتصرخ عند المدخل الذي ظلّ بابه مفتوحاً. واضحٌ أنهم زوّار غرباء، اخذ جميع من في الصالون ينظر بعضهم الى بعضهم متحيّراً. واندفع جانيا الى غرفة الطعام، غير أن عدداً من الاشخاص كانوا قد دخلوا هناك.

صاح صوت يعرفه مايشكين، يقول: آ... هأنت ذا يا يهوذا الخائن! كيف حالك يا جانيا، ايُها الوغد!

وصاح صوت آخر يقول مؤيّدا: نعم إنه هو، هو نفسه!

لم يبق لدى مايشكين اي شك بأن احد الصوتين هو صوت روجوزين، وبأن الصوت الآخر هو صوت ليبديف.

تجمّد جانيا على العتبة مبهوتاً، واخذ ينظر صامتاً، دون أن يحاول اعتراض دخول هؤلاء الاشخاص العشرة أو الاثني عشر الذين كانوا يجتاحون الغرفة وراء بارفيون روجوزين. كانت هذه المجموعة خليطاً عجيباً يتميَّز افرادها بتنوُّعهم وفوضاهم. دخل بعضهم بفرواتهم ومعاطفهم، وكأنّهم سكارى بعض الشيء، رغم أن أحداً منهم لم يكن كذلك فعلاً. وكان يظهر أن كُلاً منهم في حاجة الى الآخر، يشد أزره ويستمد منه شجاعته. ما كان لواحدٍ منهم أن يجرؤ على أن يدخل لو كان وحيداً. ولكنهم كانوا كمن يدفع بعضهم بعضاً الى الدخول، حتى روجوزين الذي كان على رأسهم، إنما كان يدخل محاذراً، فكان يبدو شاحباً مشغول البال الى درجة الهياج. أما الآخرون فلم يكونوا إلاّ جماعةً عليها أن تساعده قليلا. كانت المجموعة تضمُّ عدا ليبديف، زاليوجيف الذي اهتم بتجعيد شعره اهتماماً كبيراً، وترك فروته في حجرة المدخل، ودخل طلقاً متبختراً. وكان يوجد في الغرفة شخصان او ثلاثة اشخاص من نفس الطراز. كان واضحاً انهم من صغار التجّار، وكان في المجموعة كذلك رجل يرتدي معطفاً على الزي العسكري، ورجل قصير سمين مُفرط في السمنة ما ينفك يضحك بغير انقطاع، ورجل ضخم يكاد يبلغ طوله مترين، متجهُّم الوجه شديد الصمت، لا بد أنه كان يعول على قبضتي يديه كثيراً، وطالب من طلاّب الطب، وبولنديٌ مرح. ووقفت على المدخل سيدتان تنظران الى حجرة المدخل ولا تجرؤان أن تدخلا. فأغلق كوليا الباب أمامهما وشد المزلاج.

ـ كيف حالك أيُّها الوغد جانيا! لم تكن تتوقع أن ترى بارفيون روجوزين، اليس كذلك؟

هكذا ردَّد بافيون روجوزين حين وصل الى باب الصالون، فوقف أمام جانيا.

وفي تلك اللحظة نفسها، لمح في الصالون، في الجهة المقابلة تماماً، على حين فجأة، ناستازيا فيليبوفنا. واضح أنه كان أبعد ما يكون عن تخيُّل إمكان أن يراها هنا. فما إن رآها حتى أحدثت رؤيتها في نفسه تأثيراً خارقاً، فاذا هو يبلغ من الشحوب أن شفتيه أصبحتا زرقاوين.

قال في رفق، كأنما هو يحدّث نفسه، وقد شل فلا يدري ماذا يفعل: ما يقال صحيح اذن. انتهى الامر!.. ثم قال مخاطباً جانيا من بين اسنانه، وهو ينظر اليه نظرة تفيض بغضب خانق: حسنا ... ستتحاسب!

انحبست انفاس روجوزين، فلم يكد يستطيع أن ينطق بهاتين الكلمتين إلاّ بكثير من العناء، وتقدّم في الصالون، ولكنه حين أبصر نينا الكستدروفنا وفاريا على حين فجأة، توقّف شاعراً ببعض الخجل رغم كل انفعاله. ودخل ليبديف وراءه، يتبعه كظله، وقد نال منه السكر. ثم دخل الطالب، فالعملاق ذو القبضتين الهائلتين، ودخل وراءهما زاليوجيف يحيي ذات اليمين وذات الشمال، ثم دخل الرجل القصير السمين يحاول أن يَشُقَّ لنفسه طريقاً. كان وجود السيدات قد اربكهم قليلاً، ولكن المرء يُحس أن هذا الارباك سيزول متى حانت لحظة «البدء»... فإنّ وجود السيدات لن يحول دون الفضيحة.

قال روجوزين في ذهول وقليل من الدهشة:

ـ ماذا، هل أنت ايضاً هنا يا امير؟ وما تزال اللبادتان على حذائيك؟ ثم تنهّد ونسي وجود مايشكين وعاد ينقل ببصره الى ناستازيا فيليبوفنا، وهو يقترب منها مزيداً من الاقتراب، كأنما يجذبه اليها مغناطيس.

وكانت ناستازيا فيليبوفنا، هي ايضاً، تتفرّس في الدخلاء قلقةً مستطلعة.

واخيراً عاد الى جانيا صوابه، فقال بصوت عال وهو يلقي على الدخلاء نظرة قاسية، مخاطباً روجوزين بخاصة: إسمحوا لي! ما معنى هذا؟ هل أنتم هنا في اسطبل أيها السادة؟! امامكم هنا امي واختي...

قال روجوزين من بين اسنانه: نرى أنهما امُّك واختك.

وزاد ليبديف يقول: واضح أنهما امُّك واختك.

وشعر صاحب القبضتين القويتين أن الوقت قد حان، فاذا هو يهمهم.

فصاح جانيا رافعاً لهجته الى درجة الانفجار، قائلاً: كفى! ارجوكم اولاً أن تنتقلوا الى الغرفة الاخرى، واسمحوا لي بعد ذلك أن اسألكم...

ضحك روجوزين ضحكةً شريرةً ساخرة دون أن يتحرّك من مكانه، وقال: عجيب! لم يعرفني! الم تعرف روجوزين؟

ـ علّني التقيت بك في مكان ما، فإنني...

ـ هه! التقيت بي في مكان ما! انسيت اذن أنك منذ أقلّ من ثلاثة أشهر قد سلبتني بالقمار مائتي روبل هي مُلك أبي؟ لقد مات الشيخ المسكين قبل أن يتسع وقته لمعرفة ذلك. أنت جررتني الى اللعب، وصاحبك كنف تولّى الغش. افلا تعرفني اذن؟ في وسع بتيتسن أن يشهد. على كل حال، يكفي أن أخرج من جيبي ثلاثة روبلات أمامك، حتى تركع وتزحف على الارض اليّ من أجل الحصول عليها. هذا أنت! وتلك هي نفسك الخسيسة! وإنما جئت الآن أيضاً لأشتريك بهذا المال! كما تُشترى الكلاب. لا تنظر الى حذائي فأنا أملك يا صاحبي مالاً كثيراً، وفي وسعي أن اشتريك انت وجميع ذويك... لو شئت اشتريتكم جميعا!

وكان روجوزين يزداد اندفاعاً، ويبدو أشدُّ سكراً لحظة بعد لحظة، وهتف يقول: لا تطردديني يا ناستازيا فيليبوفنا! قولي لي كلمةً واحدة لا أكثر: هل أنت مقبلة على الزواج به ام لا؟

القى روجوزين هذا السؤال كما يلقيه انسان يخاطب الهه المعبود، ومع ذلك كان في لهجته جرأة من حُكم عليه بالاعدام فلم يبق هنالك ما يخاف أن يضيع منه. وراح ينتظر الجواب بقلق قاتل!

القت عليه ناستازيا فيليبوفنا نظرةً ساخرة متعالية. ولكنها حين القت بصرها على فاريا ونينا الكسندروفنا ثم على جانيا، غيّرت موقفها، وفجأة غيّرت نغمة صوتها وقالت تجيبه في رفق وجد، بصوت تلوح فيه الدهشة:

ـ لا، ابداً، ماذا دهاك؟ ثم كيف خطر ببالك أن تُلقي عليّ هذا السؤال؟

ـ لا، لا؟ اصحيح أنك لن تتزوجيه؟ لقد زعموا لي انك ستتزوجينه... آه ... حسنا. يا ناستازيا فيليبوفنا! هم يدّعون أنك وعدت جانيا بأن تتزوجيه... كيف تتزوجين هذا... لقد قلت لهم هذا. إن في وسعي أن اشتريه كلّه بمائة روبل، فإذا اعطيته الف روبل او قولي ثلاثة آلاف روبل في سبيل أن يعدل عن الزواج، لهرب عشيّة الزواج تاركاً خطيبته. اليس هذا صحيحاً يا جانيا، يا سافل؟ الن تقبل الثلاثة آلاف روبل؟ خذ! اليك هي! من اجل هذا إنما جئت اليوم! لقد جئت لأحصل على توقيع منك بالعدول عن الزواج. قلت سأشتريك، ولسوف اشتريك فعلاً!

صرخ جانيا يقول وهو يحمرُّ ثم يصفرُّ: أخرج من الغرفة! انت سكران!

تلت هذه الصرخة اصوات مختلفة. كانت جماعة روجوزين تنتظر منذ مدة طويلة أوّل استفزاز. وها هو ذا ليبديف يهمس باهتمام في اذن روجوزين ببعض الكلام.

اجاب روجوزين: أصبت أيُّها الموظف! أصبت يا أيُّها السكير! ولم لا، اخيراً؟ ثم هتف يقول وهو ينظر الى ناستازيا فيليبوفنا كالمجنون، فتارةً برعب وطوراً بجرأةٍ ووقاحة: ناستازيا فيليبوفنا! اليك ثمانية عشر الف روبل! و ... هناك مبالغ اخرى! ... قال ذلك ووضع أمامها، على منضدة صغيرة، حزمة ملفوفة بورق أبيض، ومربوطةً بخيط.

لم يجرؤ أن يتم ما كان يُريد أن يقوله.

همس ليبديف في أذنه مرة أخرى يقول وهو غير راض: لا ليس هذا...

كان واضحاً أنّ ضخامة المبلغ قد روّعته، وأنه يقترح تخفيضه، فأجابه روجوزين:

ـ لا يا صاحبي، هنا اخطأت... أنت غبي.. ورأى شرراً يقدح في نظرة ناستازيا فيليبوفنا، ثاب اليه صوابه، واخذ يرتجف، وأضاف يقول: بل نحن كلانا

غبيان، انت وأنا. . . آه. . .ما كان أشدّ حماقتي حين سمعتك. اضاف يقول بندم شديد.

انفجرت ناستازيا فيليبوفنا تضحك فجأة بعد أن لاحظت شحوب وجه روجوزين، ثم اضافت تقول بلهجة وقحة خالية من الكلفة، وهي تنهض عن المقعد كالتي تريد أن تتصرف: ثمانية عشر الف روبل، لي انا؟

وكان جانيا يراقب المشهد منقبض القلب.

صاح روجوزين يقول: بل أربعين ألفاً، أربعين ألفاً، لا ثمانية عشر!. . . لقد وعدني بتيتسن وبسكوب بأن يدفعا لي أربعين ألف روبل في الساعة السابعة! أربعين الف روبل عداً ونقداً!

أصبح المشهد مخجلاً حقاً، ولكن ناستازيا فيليبوفنا ظلّت تضحك، ولم تعزم أمرها على الانصراف، كأنّها تتعمد أن يطول. وقد نهضت نينا الكسندروفنا وفاريا، هما ايضاً، ووقفتا تنتظران صامتتين خائفتين مما عسى أن ينتهي اليه الامر. فأما فاريا فعيناها تلتمعان، وأما نينا الكسندروفنا فقد هزها تعاقب الاحداث هذا هزاً قوياً فهي ترتجف حتى لتكاد تسقط مغشياً عليها.

ـ اذا كان الامر كذلك، فإنني أرفع المبلغ الى مائة الف. نعم، في هذا اليوم نفسه سأدفع مائة الف روبل. بتيتسن، أقرضني المبلغ، وسأسدّده لك فيما بعد!

همس بتيتسن قائلاً وهو يقترب منه بحركة نشيطة ويمسك ذراعه: انت مجنون: سوف نستدعي الشرطة! اين تظن نفسك؟

قالت ناستازيا فيليبوفنا كأنّما تُثيره وتحرّضه: إنه سكّير وإن الخمرة هي التي تتكلم!

فأخذ روجوزين يصرخ قائلاً وقد ازدادت حماسته: «لا، انا لا أكذب! سوف تقبضين مائة الف روبل! هذا المساء! بتيتسن أقرضني المال وأطلب ما تشاء مقابله، أحضر لي مائة الف روبل هذا المساء، سوف أثبت أنني على استعداد لتقديم أي شيء».

وصاحت فاريا فجأة وهي ترتعش غضباً: هل يعقل الاّ يكون بينكم من يستطيع اخراج هذه الوقحة من هنا؟

فأجابت ناستازيا فيليبوفنا تقول بمرح فيه احتقار: هل أنا الوقحة؟ ما كان اغباني حين جئت لأدعوهم الى سهرتي! أنظر كيف تعاملني اختك يا جافريل آرداليونتش!

ظل جانيا بضع لحظات كالمصعوق من اندفاع اخته، ولكنه حين لاحظ أن ناستازيا فيليبوفنا عازمةٌ في هذه المرة على أن تنصرف، هجم على فاريا كالمجنون فأمسك يدها بحنق شديد. وهتف يسألها وهو ينظر اليها كمن يريد أن يحيلها الى رماد على الفور: ماذا فعلت؟

كان قد خرج عن طوره، وأصبح لا يدري ماذا يصنع.

صرخت فاريا تقول وهي ترشق اخاها بنظرة انتصار وتحد: ماذا فعلت؟ وانت الى اين تجرُّني؟ اتراك تريد مني، أيُّها الرجل الساقط، أن اقدّم اليها اعتذاري هي التي اهانت أمّك، وغطّت بيتك كلّه بالعار؟

ولبثا على هذه الحال بضع لحظات، وجهاً لوجه. كان جانيا ما يزال ممسكاً بد اخته بيده، وحاولت فاريا أن تخلّص يدها مرّة او مرّتين بكل ما تملك من قوّة، لكنها لم تفلح، فإذا هي بعد ذلك تخرج عن طورها فتبصق في وجه اخيها.

صرخت ناستازيا فيليبوفنا تقول: يا لها من فتاة حقاً! يا بتيتسن! أهنتك!

زاغ بصر جانيا، ونسي نفسه تماما، فرفع يده يريد أن يضرب اخته بكل قواه. وكان يمكن أن تسقط يده على وجهها، لولا أن يداً امسكت بذراعه بسرعة فأوقفتها. لقد وقف مايشكين بين الاخ واخته.

قال الاخير حازماً، ولكنه كان يرتعش بجميع اعضائه هو ايضاً، كما يحدث في اثر اضطراب شديد: ما هذا؟ اما كفاكم!

صرخ جانيا قائلاً وهو يترك يد فاريا: هل اجدك دائماً في طريقي؟ وكانت يد جانيا قد اصبحت طليقة، وكان قد بلغ ذروة السخط، فاذا هو ينزل بيده على وجه مايشكين صفعةً قوية.

صاح كوليا يقول وهو يرفع ذراعيه: آه.. آه، ربّاه

وانطلقت هتافات التعجُّب من كل جهة. كان مايشكين أصفر اللّون، يحدّق الى عيني جانيا بنظرةٍ غريبةٍ مثقلةٍ لوماً، وكانت شفتاه المختلجتان تحاولان أن تنطقا بشيء ما، وكأن ابتسامةً عجيبةً غير مالوفةٍ تشنجهما، واستطاع اخيراً أن يقول بلطف:

ـ انا، لا ضير إن ضربتني.. أمّا هي فلن أسمح لك بضربها!

ولكنه فقد سيطرته على نفسه فجأة، فترك جانيا، وأمسك رأسه بيديه، واتّجه نحو الحائط، وقال بصوت متقطع:

ـ آه... لشد ما ستشعر بالخزي والعار من فعلتك!

وقف جانيا وقد أصيب بصدمة حقيقية. أسرع كوليا الى مايشكين يقبّله ويواسيه، وتبعه روجوزين وفاريا وبتيتسن ونينا الكسندروفنا... تبعه الجميع حتى الجنرال واحاطوا به.

تمتم مايشكين قائلاً وهو ما يزال يبتسم تلك الابتسامة غير المألوفة: لا بأس! ليس هذا بشيء!

وصرخ روجوزين: لسوف يندم على ما فعل. وستخجل يا جانيا من أنك اسأت الى مثل... هذه النعجة(لم يجد كلمة أخرى). دعهم يا مايشكين، يا صديقي، وتعال. فسوف ترى كيف يكون روجوزين صديقاً!

تأثّرت ناستازيا فيليبوفنا، هي أيضاً أشدُّ التأثُّر من فعلة جانيا وبِرَدُّ مايشكين. إن وجهها الذي يكون في العادة شاحب اللون والذي يعبّر في العادة عن شرود

الذهن، وذلك ما لا يتّفق كثيراً مع ضحكها الذي كانت تصطنعه اصطناعاً منذ قليل، قد غيّرته الآن عاطفة جديدة. هذا واضح كل الوضوح، ومع هذا يحس المرء أنّها لا تحرص على اظهار ذلك، فهي تحاول أن تحافظ على ما كان يعبّر عنه وجهها من سخرية.

وفجأة تذكّرت السؤال الذي اثاره منذ قليل، فرددت تقول على حين بغتة، وبشيء من الجد والرصانة منذ الآن: حتماً سبق أن رأيت هذا الوجه قبل الآن!

فهتف مايشكين فجأةً يقول بلهجة عتابٍ فيه مودّةٌ وصداقة: وانتِ، الا تشعرين الآن بخجل؟ انتِ لست تلك المرأة التي حاولوا أن يصفوها بما وصفوها به!

دهشت ناستازيا فيليبوفنا، وحاولت أن تبتسم كأنّما لتُخفي شيئاً ما. وبعد أن القت نظرة على جانيا اتّجهت مضطربة نحو باب غرفة الاستقبال. لكنها عادت ادراجها فجأة قبل أن تصل الى المدخل، فاقتربت من نينا الكسندروفنا، فتناولت يدها وحملتها الى شفتيها. وردّدت تقول بصوت سريع، وبحرارة وقد احمرّ وجهها: «لقد عرف، صحيح أنني لست هكذا». ثم استدارت وخرجت، ولكنها بلغت من السرعة ما لم يستطع احد أن يبلغ سرعتها، لأنه يعرف لماذا هي رجعت ادراجها.

قتل راسكولنكوف الشخصية الرئيسة في رواية «الجريمة والعقاب»، المرأة المسنة التي تُقرض النقود، وقريبة لها شابة تُدعى ليزافيتا، والتي دخلت صدفة الى المكان، والتي تُذكر في الرواية عدة مرات. اقترف راسكولنكوف الجريمة ليبرهن لنفسه انه رجل وليس حشرة. «ويبدأ بعد هذا الحادث انهياره الداخلي. وهو يُقِرُّ بان عمله هذا في حد ذاته كان خاطئا، رغم انه ما يزال يحاول ان يقنع نفسه بانه كان من الممكن ان لا يكون كذلك لو انه كان يرقى الى مستواه. وكان يرغب في تسليم نفسه، وقد فعل ذلك عبر ملاحظات عابثة. ولكنه يريد اولاً ان يتاكد من وجود شخص واحد فقط على الاقل يتعاطف معه ويسامحه، لأنه لا يستطيع تحمُّل الوحدة التي نتجت عن عدم اعترافه بهذه الجريمة.

كانت سونيا مارميلادف التي زارها آنذاك، قد اصبحت عاهرة لكي تتمكن من مساعدة زوجة ابيها المسلولة كاترينا ايفانوفنا، واطفال كاترينا المرضى. (كل عمل النساء في تلك الايام كان لقاء اجرٍ ضئيلٍ جداً). وكان ابوها الذي يعمل موظفاً صغيراً وسكيراً مدمناً، قد داسته عربة وقُتل قبل يوم. وقد قابل راسكولنكوف هذا الرجل مرة في احدى الحانات الشعبية، وبعد ان سمع منه القصة الكاملة لعائلته لخذه الى بيته. وبعد موت

مارميلادف مباشرة اعطى الارملة كل النقود التي كانت بحوزته.

ذهب راسكولينكوف رأساً نحو المنزل الذي تسكنه صونيا قرب القناة. وهو منزل قديم مؤلّف من طابقين، مطلي بلون أخضر. استطاع أن يعثر على البواب وأن يحصل منه على معلومات قليلة اتاحت له مع ذلك أن يصل الى مسكن الخيّاط كابرنوموف . لمح في ركن من الفناء درجاً ضيقاً مظلماً، فصعد الى الطابق الاول، ودخل الممر الذي يدور حوله. وفيما هو يطوف في الظلام متسائلاً اين عسى أن يكون باب كابرنوموف، فُتح على حين فجأة باب يقع على مسافة ثلاث خطوات منه، فتشبث بهذا الباب على غير ارادة منه.

ـ من هنا؟ سألت احدى النساء بصوت ضعيف.

فأجاب راسكولنيكوف: هذا أنا... جئت لاراك! واجتاز الباب الى الحجرة الصغيرة.

كان في الحجرة كرسي مكسور وضعت عليه شمعة صغيرة في شمعدان معطوب من نحاس.

هتفت صونيا تقول بصوت ضعيف: أهذا أنت؟ رباه! ووقفت في مكانها كالمتسمرة.

ـ «من اين الدخول الى غرفتك؟ من هنا؟» القى راسكولنيكوف عليها هذا السؤال، ثم مضى ينتقل الى الغرفة محاولاً أن لا ينظر اليها.

وتبعته صونيا بالشمعة بعد دقيقة، فوضعتها في مكانها، ووقفت أمامه. وكان القلق والرعب اللذين استوليا عليها من هذه الزيارة غير المتوقعة لا يمكن وصفهما. واحمر وجهها الشاحب فجأة، حتى لقد صعدت الى عينيها الدموع. كانت تشعر بخجل وخزي وسعادة في آن واحد... تحوّل راسكولينكوف عنها بسرعة، وجلس على كرسي موضوع قرب المائدة. لقد تسنّى له بنظرة واحدة أن يشاهد الغرفة كلها.

هي غرفة واسعة بدرجةٍ كافية، لكن السقف منخفض جدا. إنها الغرفة الوحيدة التي اجّرها كابرنوموف. وهي تتصل بمسكنه بباب في الجدار الايسر. وعلى الجهة اليمنى، يوجد في الدار باب آخر، يظل مقفلاً بالمفتاح دائماً، ويفضي الى شقّة اخرى. وتكاد الغرفة تشبه السقيفة، لها شكل مضلّع رباعي غير منتظم، ومنظرها غريب. انه حائط ذو نوافذ ثلاث تُطل على القناة، واحدى الزوايا، وهي زاويةٌ حادةٌ جداً، تغور في آخر الغرفة، فلا يستطيع المرء أن يميّز هنالك شيئا في ضوء الشمعة الضئيل الضعيف. أمّا الزاوية الاخرى فهي منفرجة انفراجاً كبيراً، ولا يكاد يوجد في الغرفة اثاث. هناك سرير في الركن الأيمن، وكرسي الى جانب السرير بالقرب من الباب. وعلى طول الحائط نفسه، قبالة الباب المؤدّي الى الشقة الثانية، توجد مائدةٌ من خشب أبيض، يغطّيها غطاء أزرق، وبالقرب منها كرسيان من القش. وبالقرب من الحائط المقابل، على مقربة من الزاوية الحادة، توجد منضدةٌ صغيرةٌ غير مدهونة، كأنّها تائهةٌ في الفضاء. ذلك كل ما تضمُّه الغرفة. أمّا ورق الجدران فأصفر ممزق أسود في الاركان. لا بد أن الغرفة تكون شديدة الرطوبة في الشتاء. إن مظاهر الفقر واضحة، حتى إن السرير لم يكن له ستارة.

كانت صونيا تنظر صامتة الى زائرها الذي كان يتفحص الغرفة بانتباه شديد، وهدوء يبلغ من القوة أنها اخذت ترتعد خوفا، كأنّها واقفةٌ امام قاضٍ يتحكّم بمصيرها كله.

قال لها دون أن يرفع عينيه: إنني اصل في ساعةٍ متأخرةٍ جداً... اليست هي الحادية عشرة؟

فرددت صونيا تقول: نعم. ثم أسرعت تُضيف، كأن ذلك خروج لها من المأزق: نعم، هي الحادية عشرة... لقد دقت منذ قليل ساعة اصحاب البيت. هي الحادية عشرة فعلاً..

قال راسكولينكوف وقد تجهّم وجهه: ازورك الآن آخر مرة. وقد لا أراك بعد اليوم قط. قال ذلك مع أن هذه هي المرّة الاولى التي يزورها فيها.

ـ سألته: هل أنت مسافر؟

ـ لا ادري... سأعرف كل شيء غداً.

ـ اذن لن تذهب غداً الى عند كاترين ايفانوفنا؟ وكان صوت صونيا يختلج.

ـ لا ادري، كل شيء رهن بالغد.. بصباح الغد. ثم أن المسألة ليست هذه، لقد جئت لأقول لك كلمةً واحدة.

ورفع اليها نظرةً حالمة، فأدرك فجأة أنه جالس، على حين أنها ما تزال واقفةً امامه. قال لها بصوت تبدّل على حين فجأة، فيه رقة ومودة: لماذا تبقين واقفة؟

فجلست. وظل يتأمّلها قرابة دقيقة، ظل يتأمّلها بعاطفةٍ اشبه ما تكون شفقة، ثم قال لها:

ـ ما أشدَّ نحولك! ما هذه اليد؟ إنها لتكاد تكون من هزالتها شفافة! اصابعك اصابع ميت.

اخذت يدها، وابتسمت ابتسامةً شاحبةً، وقالت: هكذا كنت دائماً.

ـ حتى حين كنت تقيمين مع اهلك؟

ـ نعم

ـ هذا طبيعي، قال ذلك بلهجةٍ متقطعة، ثم تبدّلت تعابير وجهه ونبرة صوته فجأةً من جديد، ونظر حوله مرةً اخرى.

ـ أمن اسرة كابرنوموف استأجرتِ هذا؟

ـ نعم... لهم غرفة اخرى مثلها.

ـ هل يعيشون جميعا في غرفة واحدة؟

ـ نعم.

قال راسكولينكوف متجهم الهيئة: لو كنت اعيش في مثل هذه الغرفة لشعرت بخوف في الليل.

أجابت صونيا، وكأنها لم تشب الى رشدها بعد، ولا جمعت شتات افكارها
اصحاب البيت لطفاء، وجميع الاثاث لهم، انهم طيبون جداً، وكثيراً ما يأ
اولادهم عندي لزيارتي.

ـ هم يفأفئون، اليس كذلك؟

ـ نعم، هو يفأفئ ويعرج. وامرأته لا تتأتئ، ولكن كأن الكلمات لا تريد
تخرج من فمها. انها طيبةٌ جداً، كان هو عبداً. ولهما سبعةُ اولاد، الكبير وح
يتأتئ، أمّا الآخرون فهم عليلون فحسب، ولكنهم لا يتأتئون. ثم أضافت تس
بدهشة: كيف عرفت هذا؟

ـ لقد قص أبوك علي كل شيء. قال لي كل شيء عنك... وحكى لي أي
كيف خرجت في الساعة السادسة من الصباح لتعودي بعد الساعة الثامنة، وكي
ركعت كاترين ايفانوفنا امام سريرك.

اضطربت صونيا، ثم قالت مترددة: رأيته اليوم بصورةٍ واضحة.

ـ من؟

ـ أبي، كنت سائرة في الشارع، غير بعيدة عن هنا، عند الناصية، في ن
الساعة العاشرة، فتراءى لي أنه يسير امامي، كأنّه هو حقاً. حتى لقد خطر ببالي
أسرع الى كاترين ايفانوفنا.

ـ كنت تتجولين؟

قالت صونيا بصوت متقطع، وقد اضطربت من جديد، وخفضت عينيها:

ـ هل كانت كاترين ايفانوفنا تُسيء معاملتك وتضربك؟

صاحت صونيا تقول وهي تنظر الى راسكولنيكوف نظرة فيها ما يشبه الذه
لا، لا، ما هذا الذي تقوله؟

ـ هل تحبّينها اذن؟

ـ هي؟ اظن. .قالت صونيا بلهجة شاكية، ضامة يديها بحركة تنم عن الحزن، وواصلت كلامها تقول: ليتك تعرفها! إنها كالطفلة تماماً. اضطرب عقلها لأنها قاست آلاماً كثيرةً في حياتها. . . ومع ذلك، ما اذكاها! ما اكرمها! انها طيبةٌ جداً! أنت لا تعرف، أنت لا تستطيع أن تعرف! آه! . . .

قالت صونيا هذه الكلمات بحزنٍ شديد. كأن الألم يصهر قلبها، فكانت تلوي يديها من فرط الكمد، واحمر خداها من جديد، حتى صارا بلون الارجوان. كان العذاب يقرأ في عينيها. واضحٌ أن وتراً حساساً جداً قد مس الآن في نفسها، وانها ترغب رغبة قوية في ان تعبر عن شيء، في ان تدافع عن كاترين ايفانوفنا. ان نوعا من شفقة حارقة يرتسم الآن على قسمات وجهها. وتابعت كلامها تقول:

ـ تضربني؟ ما هذا الكلام الذي تقوله؟ وهبها ضربتني! أي ضير في ذلك؟ إنك لا تعرف شيئا ألبته! هذه انسانة تعيسة شقيّة بائسة. . . وهي مريضة. . . إنها تنشد العدالة . . . وهي طاهرةٌ نقيّة. إنها من شدة اقتناعها بأن العدالة لا بد أن توجد في كل شيء، تطلب العدالة في كل شيء. قد يعذبونها تعذيباً شديداً ثم هي لا تقترف أي ظلم . إنها لا تفهم أن لا يسود العدل حياة البشر، وهي لذلك تغضب كما يغضب طفل! إنها امرأة طيبة.

ـ وما الذي ستصيرين اليه؟

كذلك سألها، فألقت عليه نظرة مستفهمة.

فقال لها: سوف يبقون بين يديك، وقد كُنتِ قبل الآن تحملين كل شيء على ذراعيك، وكان أبوك يأتي اليك ليطلب مالاً من اجل أن يشرب الخمر. ولكن ما الذي سيحدث الآن؟

قالت صونيا بحزن: لا ادري.

ـ هل يبقون هناك؟

ـ لا ادري، إن اجر المسكن لم يُدفع، ويظهر أن صاحبة البيت قد أرادت اليوم أن تطردهم، فأعلنت كاترين ايفانوفنا أنها لن تمكث دقيقةً واحدة.

- كيف تحتمل كل هذا؟ اتعتمد عليك؟

- لا تتكلم هكذا، ثم استأنفت تقول وقد اضطربت من جديد، كما يفعل طائر من طيور الكناري او غيرها من الطيور: نحن نشترك في كل شيء، انا وهي.. ثم أضافت تسأله وقد ازدادت حماسةً وحرارةً: ما أكثر ما ذرفت من دموع في هذا اليوم! لقد اضطرب عقلها، ألم تلاحظ أنت هذا؟ نعم، عقلها مختل، تقلق تارة كطفلة صغيرة من اجل أن يكون كل شيء على ما يرام غداً، الطعام وغيره، وطوراً تلوي يديها كمداً وحسرةً، وتبصق دماً، وتذرف دموعاً، وتدق رأسها بالحائط من فرط اليأس. ثم ما تلبث أن تتعزّى من جديد، واضعةً املها فيك، قائلةً أنك الآن سندها، وأنها ستقترض مالاً من احد الناس، لتعود بي الى مسقط رأسنا، فننشئ هناك مدرسة لبنات الاسر النبيلة أكون أنا مفتشة فيها، ونبدأ عندئذ حياة جديدة كل الجدة. وهي في هذه الحالة تأخذ تقبّلني وتضمني الى صدرها وتواسيني وتعزيني. آه.. ما أقوى ايمانها باحلامها هذه، ما أقوى ايمانها بهذه الاحلام! هل يمكننا أن نعارضها؟ مستحيل!... قضت اليوم النهار كله في مسح الارض، وغسل الملابس، وترقيع الثياب. ورغم ضعفها الشديد صعدت الى غرفتها بطشت، فما ان وصلت حتى كانت انفاسها قد تقطّعت، وخارت قواها فلم تملك إلاّ أن تتهاوى على سريرها. وفي هذا الصباح ذهبنا كلتانا الى السوق من اجل أن نشتري احذية لبولينكا ولينيا، لأن احذيتهما قد تمزّقت، ولكن لم يكفنا ما كان معنا من مال، رغم جميع حساباتنا، لأنها اختارت احذيةً جميلةً لطيفة، فهي صاحبة ذوق كما تعلم، فما كان منها إلاّ أن أجهشت تبكي في وسط الدكان، أمام الباعة. لقد بكت لأن ما معنا من مال لم يكن كافياً. حقاً كان منظرها يثير اعمق الالم...

قال راسكولنيكوف وهو يبتسم ابتسامة مرة: يفهم المرء بعد هذا لماذا تعيشين بمثل هذه الطريقة.

فهتفت صونيا تقول: ولكن، ألا ترثي لحالها؟ الا تشفق عليها؟ أنا أعلم أنّك

وهبت لها آخر قرش تملكه، مع أنك لم تكن قد رأيت شيئاً بعد. فماذا لو كنت قد رأيت كل شيء؟ آه! يا رب! كم من مرة أبكيتها. إنني لأشعر بالخزي والعار! لقد أبكيتها حتى قبل موت أبي بأسبوع! نعم، كنت قاسية! كم من مرة تصرّفت هذا التصرف! آه... ما أشدّ ما أشعر به اليوم من خزي حين أتذكر هذا!

كانت صونيا تلوي يديها حسرة وهي تتكلم، من فرط ما كانت تحس به من ألم.

قال لها راسكولنيكوف: هل أنت القاسية إذن؟

ـ نعم أنا القاسية. وعادت تتابع كلامها وهي تبكي، فقالت: جئت أزورهم في ذلك اليوم، فقال لي المرحوم: «إقرئي لي يا صونيا، فإنني أحسُّ صداعاً في رأسي... إقرئي لي هذا الكتاب». هو كتاب أعاره إيّاه آندريه سيميونوفتش ليبزياتنيكوف الذي يسكن في هذا المنزل، ويقتني كتباً عجيبة! قلت له: «آن لي أن أذهب»، ولم أشأ أن أقرأ له، لأنني قد أتيت من اجل أن ترى كاترين ايفانوفنا الياقات الصغيرة، كانت اليزابت السمسارة قد جاءتني بياقات واكمام جميلة ورخيصة ومطرّزة، وقد أعجبت كاترين ايفانوفنا بها كثيراً، فجربتها على نفسها فوجدتها جميلة. فقالت لي: «صونيا، أهديها الي، ارجوك». نعم، هذا ما قالته لي: «ارجوك». لأنها أحبّتها كثيراً. وما حاجتها اليها؟ المهم أنها تذكرها بالعهود الجميلة الماضية! إن كاترين ايفانوفنا تنظر في المرآة، فتُعجب بنفسها، وليس عندها ثوب تلبسه، ليس عندها شيء ألبتة، منذ سنين عدّة! وهي لا يمكن أن تطلب من احد شيئا في يوم من الأيام، لأنها شديدة الإباء، وتؤثر على ذلك أن تعطي ما بقي عندها. ومع ذلك طلبت مني أن أعطيها تلك الياقات الصغيرة، لأنها وجدتها جميلةً جداً. ولم أشأ انا أن أحرم نفسي منها، فقلت لها: «فيمَ تنفعك هذه الياقات يا كاترين ايفانوفنا؟». نعم، ذلك ما قلته لها. آه... ما كان ينبغي أن أقول هذا الكلام بحال من الاحوال! ألقت عليَّ عندئذ نظرة ينفطر لها القلب... لأنني رفضت أن أعطيها الياقات... وشعرت أنا بألم شديد من رؤيتها على تلك الحال... ليست الياقات هي التي أحزنتها، وإنما أحزنها رفضي أنا... لقد رأيت

ذلك واضحا كل الوضوح. آه. . .ليتني أستطيع أن أستعيد ذلك، وأن أسترد كل ما أفلت من لساني! آه. . .ولكن ماذا؟ لا بد أن هذا كلُّه لا يعنيك في شيء!

ـ هل عرفتِ اليزابت السمسارة؟

سألت صونيا بدهشة: نعم. . . هل عرفتها أنت أيضاً؟

قال راسكولينكوف بعد صمت، دون أن يجيب عن سؤال صونيا: كاترين ايانوفنا في آخر درجات مرض السل، وستموت قريبا. . .

ـ آه لا، لا.

قالت صونيا ذلك، وتناولت يديه على غير شعور منها، كأنها تتوسل اليه أن لا تموت.

ـ ولكن الافضل أن تموت!

فأخذت صونيا تردد مروعة تائهة العقل دون أن تدري ماذا تقول: لا، ليس هذا افضل!

ـ والاولاد، متى تستطعين أن تأخذيهم الى بيتك لكي يعيشوا معك؟

ـ آه. . .لا ادري. . . قالت صونيا يائسة وهي تمسك رأسها بيديها.

كان واضحا أن هذه الفكرة قد خطرت ببالها أكثر من مرة، وأنّه قام بتذكيرها بذلك فقط.

وعاد يكرر السؤال بغير رحمة: وماذا اذا مرضتِ أنت فنُقلت الى المستشفى قبل موت كاترين ايفانوفنا؟ ما الذي سيحدث عندئذ؟

ـ كيف تقول هذا؟ ذلك مستحيل.

وظهر على وجه صونيا ذعر رهيب.

وتابع راسكولينكوف الحديث بابتسامة لا رحمة فيها: مستحيل؟ كيف؟ لا

شيء يكفل لك أن لا تمرضي. فما الذي سيحدث لهم حين تمرضين؟ سيصيرون في الشارع، وستمضي هي تسعل وتستجدي وتدق رأسها بالحائط كما تفعل اليوم، وسيبكي الاولاد. ثم تتهاوى فتُنقل الى قسم الشرطة، ثم الى المستشفى، فتموت. أمّا الاولاد...

- «آه كلا، لن يسمح الله بحدوث هذا». ذلك ما أفلت من قلبها المضطرب.

كانت قد استمعت لكلامه صامتةً تنظر اليه مروعةً، ضامةً يديها في ضراعةٍ خرساء كأن كل شيء متوقف عليه.

نهض راسكولينكوف واخذ يسير داخل الغرفة. وانقضت دقيقة. كانت صونيا واقفة، متهدلة الذراعين، خافضة الرأس، تعاني ألماً شديداً وعذاباً رهيباً.

سألها وهو يتوقف أمامها فجأة: وما من وسيلةٍ لادّخار أي مال للايام الصعبة، اليس كذلك؟

ردت تجيبه: لا

ثم أضاف ساخراً: طبعاً لا. ولكن هل حاولت؟

- ولم تفلح المحاولة طبعاً! لا داعي الى السؤال..

وعاد يسير في الغرفة. وانقضت دقيقة اخرى.

قال: «إنّك لا تحصلين على المال في كل يوم؟»

اصيبت صونيا بحرجٍ كبير واحمرّ وجهها مرة اخرى.

فاجابت بجهد والم كبيرين: «كلا».

ثم قال فجأة: «وسيكون مصير بولينكا كمصيرك حتما».

فهتفت صونيا تقول بصوت قوي، طائش، كأنها طعنت بخنجر: كلا، كلا، هذا مستحيل. إن الله لن يسمح بأي سوء!

- إنه يسمح بمثله وأكثر.

فرددت صونيا تقول خارجة عن طورها: لا، لا، إن اللّه سيحميها!

أجاب راسكولنيكوف بابتسامةٍ خبيثةٍ وهو ينظر اليها: ولكن قد لا يكون هناك إلٰه!

عندئذ تبّدل وجه صونيا، وسَرتْ في قسماتها رعشة. والقت عليه نظرة زاخرة بعتب قوي ولوم شديد، وأرادت أن تقول شيئاً، ولكن لم تتمكن، وفجأة انفجرت تنشج نشيجاً مراً، وهي تُغطي وجهها بيديها.

قال بعد قليل من الصمت: تقولين إن كاترين ايفانوفنا قد فقدت عقلها، ولكني أرى أنك أنت نفسك قد فقدت عقلك.

وانقضت خمس دقائق. كان يسير في الغرفة طولاً وعرضاً، دون أن يتكلّم، ودون أن ينظر اليها. واقترب منها اخيراً. كانت عيناه تسطعان. امسك كتفيها بيديه، وامعن النظر الى وجهها الغارق في الدموع. كانت نظرته جافةً وحادة. وكانت شفتاه تختلجان اختلاجاً قوياً جداً. وانحنى فجأة بحركةٍ سريعةٍ فسجد امامها، وقبّل قدميها. تراجعت صونيا خائفة كأنها ترى مجنونا. والْحَقُّ أن هيئته كانت هيئة مجنون.

رددت تقول شاحبة الوجه، منقبضة الصدر: ما هذا الذي تفعله لي؟

نهض بسرعة وقال لها بلهجة وحشية: «انا لا أسجد أمامك انت»، ثم ابتعد نحو النافذة وأضاف يقول بعد لحظة وهو يعود الى قربها: اسمعي، لقد قلت منذ قليل لرجل كان يهينك إنه لا يساوي طرف إصبعك.. وإنني قد شرّفت اختي حين اجلستها اليوم الى جانبك.

هتفت صونيا تقول مرتاعة: آه... قلت هذا لهم؟ هل قلته امامها؟ جلوسها الى جانبي يشرّفها؟ ولكنني... ولكنني أعيش في العار! آه... لماذا قلت ذلك؟

ـ انا لم اقل ذلك مفكراً في العار والخطيئة، وإنّما قلته مفكراً في عذابك العظيم. . .

ثم أضاف يقول في حماسة: أنا أنّك خاطئة فهذا صحيح، وخطيئتك الكبرى هي أنك ضحيّت بنفسك وأهلكت نفسك بدون فائدة. نعم، إنّه لامر فظيع، إنّه لامر فظيع أن تعيشي في الوحل الذي تكرهين، عالمة انت نفسك أنّك بهذا لا تساعدين احداً، ولا تستطيعين أن تنقذي احداً (يكفي أن تفتحي عينيك). ثم قال خارجا عن طوره: قولي لي اخيراً: كيف يمكن أن يجتمع في نفسك مثل هذا العار ومثل هذه الحطة مع انبل العواطف واقدس المشاعر؟ إنّه أقرب الى العدل، وأقرب الى العقل الف مرة، أن تلقي بنفسك في الماء وأن تنتهي من هذا الوضع مرةً واحدةً الى الابد!

سألته صونيا بصوت ضعيف، وهي ترفع نحوه نظرتها الاليمة: وما عسى يصيرون اليه، هم، اذا انا فعلت ذلك؟ دون أن تظهر عليها الدهشة من هذه الفكرة التي أوحى بها.

والقى عليها راسكولينكوف نظرةً خاصة. وقرأ في وجهها كل شيء. إن تلك الفكرة كانت تراودها اذن. لعلها من يأسها قد فكّرت تفكيراً جاداً، مرّات كثيرة، في إمكان وضع حد لحياتها آخر الامر، وبلغت من جد التفكير في هذا أن النصيحة التي اسداها اليها، أنها لم تُثر في نفسها أيّة دهشة تقريباً. حتى إنّها لم تلاحظ قسوة الكلمات التي قالها لها (لقد فاتها طبعاً معناها الحقيقي، ولم تُدرك الزاوية الخاصة التي كان ينظر منها الى موضع العار، وقد لاحظ هو ذلك). ولكنه أدرك إدراكاً تاماً مدى ما كانت تقاسيه من عذابٍ بسبب وضعها الشائن، وأدرك إدراكاً تاماً أنّها تعاني هذا العذاب منذ مدة طويلة. وتسأل: «ما الذي أمكن أن يمنعها حتى الآن من تنفيذ عزمها على التخلُّص من حياتها؟ وعندئذ فقط أدرك قيمة هؤلاء اليتامى في نظر صونيا، وقيمة هذه المسكينة كاترين ايفانوفنا المصدورة، شبه المجنونة، التي تدق رأسها بالحيطان.

ولكن هذا لم يمنعه أن يدرك بصورةٍ واضحة أن صونيا بحكم طبعها وتربيتها، لا يمكنها مع ذلك أن تستمر في هذه الحياة، حتى إنّه ليحيّره أن يراها تبقى في هذا الوضع طوال هذه المدّة دون أن تُصاب بالجنون، بعد أن لم تسعفها شجاعتها فتنتحر غرقاً في الماء. صحيح أنه كان يفهم أن وضعها لم يكن وضعاً عادياً، لكنها ليست فريدة للأسف! غير أن كون هذه الحادثة طارئة، إضافةً الى أن تربيتها السابقة والظروف الخاصة لحياتها الماضية، كان خليقاً بأن يقتلها منذ الخطوة الاولى التي سارت فيها على هذا الطريق الدنيء. فما الذي كان يبقيها على هذا الطريق؟ ليس هو حب الدعارة قطعاً، فإن هذا العار كلُّه (ذلك امر يراه المرء واضحاً) لم يزد على أن مسّها مساً خارجياً، أمّا قلبها فلم تتسلل اليه قطرة واحدة من الرذيلة. إنه يرى هذا كله: لقد كانت صونيا واقفةً امامه على حقيقتها...

وقال يحدّث نفسه: «هناك طرق ثلاثة مفتوحة امامها: إمّا أن تُلقي بنفسها في القناة، او أن تذهب الى ملجأ للمجانين... او أن تندفع في الفساد الذي يخبل العقل ويجمّد القلب». ان الفكرة الاخيرة هي الأكثر احتمالاً، ولكنه كان شكاكاً، وهو شاب له فكر مجرّد وقاس، لذلك لم يستطع أن يمتنع عن الاعتقاد بأن هذا الافتراض الثالث هو أقرب الافتراضات الى الصدق.

ولم يلبث أن هتف يتساءل بينه وبين نفسه: «ولكن هل يمكن أن يكون هذا صحيحاً؟ هل يمكن أن تغوص نفس ما تزال طاهرةً نقيةً في هذا المستنقع واعيةً شاعرة؟ هل بدأ هذا الغوص في المستنقع القذر فعلاً؟ هل من الجائز أنها لم تحتمل هذه الحياة حتى الآن، إلاّ لأن الرذيلة لا تبدو لديها كريهة الى هذا الحد؟ فلمّا وصل من تساؤله الى هنا، هتف يقول كما فعلت صونيا منذ قليل: «لا، لا ان الشيء الذي صدّها عن إغراق نفسها في القناة حتى الآن إنّما هي فكرة الخطيئة...والاطفال... ولئن لم تُجن حتى الآن... ومن ذا الذي يقول إنّها لم تُجن بعد؟ أصحيح أنّها ما تزال تملك عقلها؟ هل يمكن أن يتكلم احد أو أن يفكر كما تفعل هي؟ هل يستطيع المرء أن يبقى أمام هذا المستنقع القذر الذي اخذ

يغوص فيه، وأن يمتنع عن الاستجابة كلّما حدث عن الخطر؟ هل تنتظر معجزة؟ نعم، لا شك في ذلك، ولكن أليست هذه علامات جنون؟

ولبث على هذه الفكرة في إصرارٍ وعناد. وربط الامر بهذا التفسير أكثر من أي حل آخر. واخذ يتفحصها باتباه شديد.

سألها: اذن انت تصلّين لله يا صونيا؟

لم تجب صونيا، وكان واقفاً امامها ينتظر جوابها.

وهمست صونيا تقول مسرعةً بقوةٍ عنيفةٍ، وهي تلقي عليه نظرةً مختلسة ساطعة: «ما الذي يمكن أن اصير اليه إن لم أؤمن بالله؟» وتناولت يده، وضغطتها بيدها.

قال يحدّث نفسه: «نعم، تلك هي الحقيقة»

وسألها ليجبرها على الكلام: وماذا يفعل الله من اجلك؟

فلبثت صونيا صامتةً مدةً طويلة، كأنّها لا تستطيع أن تُجيب. وكان الانفعال يهز صدرها الضعيف.

وهتفت تقول له اخيراً وهي تنظر اليه بقسوة وغضب: أسكت، لا تسألني عن شيء بعد الآن، انت لا تستحق شيئاً!

فقال يحدّث نفسه مردداً في عناد واصرار: «تلك هي الحقيقة».

وهمست بسرعة وهي تخفض عينيها من جديد: الله يفعل كل شيء!

وقال بعاطفةٍ غريبةٍ كئيبة وهو يتفرّس في هذا الوجه الصغير «إن هذا هو المخرج، ولا تفسير إلاّ هذا». حدّق في هذا الوجه الصغير النحيل، الشاحب، وتفرّس في هاتين العينين الزرقاوين، الرقيقتين، العذبتين اللتين تستطيعان مع ذلك أن تسطعا بلهيب قوي، ويتفرّس في هذا الجسم الضاوي الهزيل الذي ما يزال يرتجف استياءً وغضباً.. فكان كل شيء يبدو له غريباً، ويكاد يكون مستحيلاً. وكان يردد قائلا لنفسه: «هذه مخلوقةٌ مصابةٌ بالهوس الديني.»

وكان على المنضدة كتابٌ لاحظه عدّة مرات حين مروره امام المنضدة. فها هو ذا يتناول الكتاب الآن وينظر فيه. إنه الانجيل باللّغة الروسية: كتاب مجلّد عتيق مهترئ.

صاح يسأل صونيا من آخر الغرفة: من أين هذا الكتاب؟

كان ما يزال واقفاً في مكانه نفسه على بعد ثلاث خطوات من المائدة.

فأجابته صونيا على مضض دون أن تنظر اليه: جيء به الي.

ـ من جاءكِ به؟

ـ اليزابيت. كنت قد طلبته منها.

قال بينه وبين نفسه: «اليزابيت! ما أغرب هذا!»

إنّ كل شيء هنا يبدو له غريباً عجيباً اكثر فأكثر، من لحظة الى اخرى. وقرّب الكتاب من الشمعة وأخذ يتصفّحه.

وسألها فجأة: اين يجيء ذكر اليعازر؟

فظلّت صونيا مطرقة الى الارض بعناد ولم تجبه. وكانت واقفة غير بعيد من المائدة وقفةً موارية.

ـ اين الحديث عن قيام اليعازر؟ أرنيه يا صونيا.

فألقت نظرةً موارية. وهمست تقول له بقسوة دون أن تقترب منه: إنّك لا تنظر في المكان الصحيح . . . إنه في الانجيل الرابع.

قال لها: إبحثي عنه واقرئيه لي يا صونيا. ثم جلس، ووضع كوعيه على المائدة، وأسند رأسه الى يده، لاقتاً عينيه، متجهّم الهيئة، متهيّئا للإصغاء.

قال لنفسه: «بعد ثلاثة اسابيع سوف يستقبلونها في ملجأ المجانين! سأكون هناك أيضاً، إلاّ أن يحدثِ لي ما هو اسوأ من ذلك».

دنت صونيا من المائدة مترددة، بعد أن استمعت لطلب راسكولينكوف في شك وريب. وتناولت الكتاب مع ذلك.

سألته وهي تنظر اليه من فوق المائدة بطرف عينها: «ألم تقرأه اذن من قبل؟» وكان صوتها يزداد قسوةً شيئاً بعد شيء.

ـ قرأته منذ زمن طويل... في أيّام الدراسة.

ـ وفي الكنيسة، ألم تسمعه؟

ـ لا أذهب الى الكنيسة. هل تذهبين انت احياناً؟

تمتمت صونيا تقول: لا

فابتسم راسكولينكوف وقال: «فهمت، وأغلب الظن أنك لن تحضري دفن أبيك في الغد ايضاً، أليس كذلك؟»

ـ بل سأحضر... لقد ذهبت الى الكنيسة في الاسبوع الماضي ايضاً. وأقمت قدّاساً.

ـ لمن؟

ـ لاليزابيت، لقد قُتلت بساطور.

توترت اعصاب راسكولينكوف، واخذ يشعر بدوار.

ـ هل كنت صديقة لاليزابيت؟

ـ نعم... كانت اليزابيت امرأةً صالحة.. وكانت تجيء اليّ.. نادراً لم يكن في وسعها أن تزورني أكثر من ذلك، وكنّا نقرأ معاً، وكنا نتحدّث ... سوف ترى اللّه في السماء.

كان وقع هاتين الكلمتين المستمدّتين من الكتب وقعاً غريباً في نفسه، وقال: هذه معلومات جديدة: احاديث سرّية بين اليزابيت وصونيا... بين مخلوقتين مصابتين بالهوس الديني.

وقد أصبح مصاباً بالهوس الديني انا نفسي. وهتف يقول لها بالحاح وحنق: «إقرئي!»

وكانت صونيا ما تزال مترددة، كان قلبها يخفق خفقاناً شديداً. ولا تجرؤ أن تقرأ له. وكان هو ينظر الى المجنونة المسكينة وهو يشعر بعذاب.

فهمست تقول له بصوت خافت، كأنّها مقطوعة الانفاس: «ما حاجتك الى ذلك وانت لا تؤمن؟»

فأجابها يقول باصرار: «بل إقرئي! اريد أن تقرئي! أما كنت تقرئين لاليزابيت؟»

فتحت صونيا الكتاب، ووجدت العبارات المطلوبة. كانت يداها ترتجفان، وكان صوتها مختنقاً. حاولت مرّتين أن تبدأ القراءة، ولكنها لم تفلح في نطق الكلمة الاولى. ثم قرأت أخيراً:

ـ «وكان انساناً مريضاً، وهو اليعازر، من بيت عنيا...»

واختلج صوتها وتحطّم منذ الكلمة الثالثة، كما يتحطّم وتر مشدود. لقد انقطع تنفّسها. وكان قلبها يدق دقاً عنيفاً جداً

أدرك راسكولينكوف بعض الإدراك لماذا لم تعزم صونيا أمرها على أن تقرأ له، فكان كلّما ازداد ادراكاً لهذا، ازداد الحاحاً في طلب القراءة بفظاظة وغضب. كان يرى بصورة واضحة لماذا يشق عليها ويحز في نفسها أن تكشف عمّا يخصها «هي»، وأن تبوح به. أدرك أن هذه العواطف هي سرُّها فعلاً، ربما منذ مراهقتها، منذ الوقت الذي كانت تعيش فيه مع أسرتها بين أب شقي وزوجة أب جعلها الحزن مجنونة، قُرب اطفال جياع، في بيئة لا يرتفع فيها إلاّ النّقد والتجريح. ولكنه كان يعلم في الوقت نفسه ـ وهو واثق من هذا أنّها رغم ألمها وخوفها القوي برغبة جارفة في أن تقرأ له «هو»، من أجل أن يسمع «الآن» خاصةً، مهما يحدث بعد ذلك. قرأ هذه الرغبة في عينيها وأدركها من اهتياج عواطفها. تحاملت صونيا على

نفسها، فكبحت التشنُّج الذي المّ بحلقها، وتابعت قراءة الاصحاح الحادي عشر من انجيل يوحنا، ووصلت الى الآية التاسعة عشرة:

ـ «وكان كثيرون من اليهود قد جاؤوا الى مرثا ومريم ليعزُّوهما عن اخيهما. فلمّا سمعت مرثا أن عيسى آت لاقته. وأمّا مريم فاستمرت جالسة في البيت. فقالت مرثا لعيسى: يا سيّد، لو كنتَ ههنا ما مات اخي. ولكنني الآن أيضاً أعلم أن كل ما تطلب من اللّه يعطيك اياه».

توقّفت هنا صونيا عن القراءة مرة أخرى، وهي تشعر بالخجل من أن صوتها يختلج وأنه سيتحطم من جديد:

ـ «قال لها عيسى: سيقوم أخوك. قالت له مرثا: انا أعلم أنّه سيقوم في اليوم الاخير. قال لها عيسى: انا القيامة والحياة. من آمن بي فسيحيا ولو مات. وكل من كان حيًّا وآمن بي فلن يموت الى الابد. أتؤمنين بهذا؟»

استردّت صونيا انفاسها بجهد عنيف، وأخذت تقرأ بصوت واضح ولهجة قوية كأنها تعترف بايمانها هي نفسها على رؤوس الاشهاد:

قالت له مرثا: «نعم يا سيّد. أنا قد آمنت أنك انت المسيح إبن اللّه، الآتي الى العالم...»

وأوشكت صونيا أن تتوقف عن القراءة، ولكنها رفعت عينيها «اليه» بحركة قوية، فسرعان ما ثابت الى نفسها، واستمرت تقرأ. كان راسكولينكوف يصغي الى القراءة ساكناً جامداً، دون أن يلتفت، واضعاً كوعيه على المائدة، ناظراً الى جانب. وبلغت صونيا الآية الثانية والثلاثين:

«فلما أتت مريم الى حيث كان عيسى ورأته، خرّت عند رجليه قائلة: يا سيّد، لو كنت ههنا لم يمت اخي. فلما رأها عيسى تبكي واليهود الذين جاؤوا معها يبكون انزعج بالروح واضطرب. وقال: أين وضعتموه؟ قالوا له: يا سيّد، تعال وانظر. بكى عيسى.

فقال اليهود انظروا كيف كان يحبُه.

وقال بعض منهم: «الم يكن يقدر هذا الذي فتح عيني الاعمى أن يجعل هذا ايضاً لا يموت؟»

كان راسكولنيكوف قد التفت نحوها وأخذ ينظر اليها منفعلاً مضطرباً. نعم، صدق ظنُه! لقد كانت ترتعش ارتعاشاً قوياً وتعاني من حمّى حقيقية. إنه توقُع ذلك. وكانت تقترب من الآيات التي تروي المعجزة العظيمة الكبرى، فكان شعور بالانتصار يجتاح نفسها. إن صوتها يرن رنين معدن. إن الفرح والظفر ينعكسان في نفسها ويشدّان ازرها. واختلطت الاسطر أمام عينيها، واضطُرب بصرها، لكنها كانت تعرف ما تقرؤه عن ظهر قلب. إنُها حين قرأت الآية الاخيرة: «ألم يكن يقدر هذا الذي فتح عيني الاعمى أن يجعل هذا ايضا لا يموت؟» خفضت صوتها، معبِّرة بحماسة ملتهبة عن شك واستياء اولئك اليهود العمي الذين سيركعون بعد قليل كمن نزلت عليهم صاعقة، وسيجهشون باكين، وسيؤمنون. وهو، هو ايضاً، الاعمى، الذي لا يؤمن، هو ايضاً سيسمع، وهو ايضاً سيؤمن، نعم نعم، حالاً. فكان هذا التوقُع يجعلها ترتعش فرحاً. وتابعت قراءتها:

«فانزعج عيسى ايضاً في نفسه وجاء الى القبر، وكان القبر مغارة وقد وضع عليه حجر. قال يسوع: إرفعوا الحجر، وقالت له مرثا اخت الميّت: يا سيّد، قد أنتن لأنه هنا منذ أربعة أيام.»

ابرزت صونيا في قراءتها كلمة «اربعة» وتابعت تقرأ:

«قال لها المسيح: ألم اقل لك إن آمنت ترين مجد اللّه. فرفعوا الحجر، ورفع المسيح عينيه الى فوق وقال: أيُها الأب، أشكرك لأنك سمعت لي. وأنا كنت أعلم أنك تسمع لي في كل حين. ولكن لاجل هذا الجمع الواقف حولي قلت هذا، ليؤمنوا أنك انت ارسلتني. ولمّا قال المسيح هذا صرخ بصوت عظيم: ايعازر هلم أخرج. فخرج الميت...»

قرأت صونيا هذه الكلمات الاخيرة بصوتٍ قويٍّ ظافر، وكانت ترتجف وترتعش كأنّها ترى المشهد بعينيها:

«. . . ويداه ورجلاه مربوطة بأقمطة ووجهه ملفوف بمنديل، فقال لهم عيسى: حلّوه ودعوه يذهب»

«فكثيرون من اليهود الذين جاؤوا إلى مريم ومرثا ونظروا ما فعل عيسى آمنوا به.»

لم تمض صونيا في القراءة الى أبعد من هذا. فقد عجزت عن ذلك. فطوت الكتاب ونهضت بحركة قويةٍ نشيطةٍ، وردّدت بصوتٍ قاسٍ متقطع:

هذا كل ما يروي عن قيام اليعازر. وتجمّدت في مكانها مشيحةً وجهها، كأنّها تستحي ان ترفع عينيها نحوه. وكانت ما تزال ترتجف من الحمى. كان عقب الشمعة التي ذابت في الصحن المتعفن منذ مدّة، تلقي ضياءً ضعيفاً على القاتل والمومس وقد ضمتهما قراءة «الكتاب الخالد» في هذه الغرفة البائسة. وانقضت خمس دقائق أو تزيد.

ونهض راسكولينكوف، واقترب من صونيا، وقال لها فجأة بصوتٍ قويٍ وقد اكفهر وجهه: إنما جئت لاحدثك في امر بعينه. فنظرت إليه صونيا صامتة. وكان وجهه يفصّح عن عزيمةٍ وحشيةٍ.

ـ تركت اليوم أهلي: أمي وأختي، فلن أذهب إليهما بعد الآن. لقد قطعت صلتي بهما قطيعةً تامةً.

فسألته صونيا مصعوقة: لماذا؟ إن اللقاء الذي تمّ بينها وبين أم راسكولينكوف وأخته منذ قليل قد ترك في نفسها أثراً خارقاً، رغم أنها لم تستطع أن تحدّده. فلمّا سمعت نبأ هذه القطعية شعرت بما يوشك أن يكون رعباً.

أضاف راسكولينكوف يقول: لم يبقَ لي سواك. هلمي نسافر معاً. لقد جئت اليك، نحن ملعونان كلانا، فلنسافر معاً!

وكانت عيناه تسطعان. قالت صونيا لنفسها هي أيضا: «إن هيئته تدلّ على أنه مجنون».

وسألته مرتاعة: نسافر الى أين؟ وتراجعت متقهقرة على غير إرادةٍ منها.

قال لها: كيف لي أن أعرف! كل ما أعرفه أن الطريق الذي سنقطعه واحد. أنا واثق بهذا، ولا أعرف شيئا سواه، وأن هدفنا واحدٌ أيضاً.

كانت تنظر إليه ولا تفهم. كل ما كانت تدركه هو أنه إنسان شقيّ إلى غير نهاية.

وأضاف يقول: ما من أحد منهم يستطيع أن يفهم ما تقولينه. أما أنا فقد فهمتك، أنا في حاجة إليك، ولهذا السبب إنما جئتك.

همست صونيا قائلةً: لست أفهم.

ستفهمين في المستقبل. ألم تفعلي مثل الذي فعلت أنا؟ أنت أيضا خرقت القانون، أنت أيضاً. . .أنت أيضا دمّرت الحياة. . . هي حياتك طبعاً، ولكن ما الفرق؟ كان يمكنك أن تعيشي بروحك. ولسوف ينتهي بك المطاف إلى التشرّد. . ولكنك لن تستطيعي أن تحتملي ذلك، فإن بقيت وحيدة فسوف تفقدين عقلك مثلي. إنك منذ الآن أشبه بمجنونة. فلماذا لا نسافر إذن معاً، لماذا لا نتبع طريقاً واحداً؟ فلنسافر!

تمتمت صونيا تقول وقد هزّتها كلماته هزاً غريباً قوياً: لماذا تقول هذا الكلام؟

ـ لماذا؟ لأن بقائي على هذه الحال أصبح مستحيلاً. هذا هو السبب، لأن للمرء آخر الأمر أن يبكي، بدلاً من أن يصرخ قائلاً كطفل صغير إن اللّه لن يسمح بهذا. ما الذي سيحدث إذا اقتادوك غداً الى المستشفى؟ إن الاخرى قد فقدت عقلها، وهي مصابة بداء السّل، وستموت قريباً. والاولاد؟ هل يمكن أن لا تضيع بولينكا هي أيضا؟ ألم تشاهدي هنا، في نواصي الشوارع، اطفالا أرسلتهم أمهاتهم

في طلب الصدقات؟ لقد عرفت أنا أين تعيش هذه الامهات، وفي أيّ ظروف تعيش. إن الأطفال لا يمكن أن يبقوا في أمثال تلك الأماكن اطفالاً. في أمثال تلك الأماكن يصبح الطفل الذي عمره سبع سنين، داعراً او لصاً، والاطفال مع ذلك هم صورة المسيح، «لهم ملكوت الرّب». لقد أمر الرّب باحترامهم وحبّهم، لأنهم إنسانيّة المستقبل.

ردّدت صونيا تقول وهي تلوي يديها ألما وتجهش باكيةً بكاءً هستيرياً: ما العمل إذن؟

ـ ما العمل؟ نحطم مرةً واحدةً كل ما يجب تحطيمه، ولا شيء غير ذلك. نتحمل العذاب.

ـ ماذا؟

ـ ألا تفهمين؟ سوف تفهمين في المستقبل! الحرّية والقوة بصورةٍ خاصةٍ! السيطرة على جميع المخلوقات المرتجفة، على كل النمل... ذلك هو الهدف! تذكّري هذا! تلك هي وصيتي لك. لعلّ هذه آخر مرة أكلّمك فيها. إذا لم أرجع غداً، فستعلمين كل شيء بنفسك، فتذكرّي حينئذٍ كلماتي. قد تفهمين معناها في يومٍ من الايام، بعد سنة، ولكن إذا جئت غداً، فسأقول لك من الذي قتل إليزابيت. وداعاً!

إرتعشت صونيا ذعراً، وسألته وهي ترمقه بنظرةٍ متوحشةٍ:

ـ هل تعرف حقاً... من الذي قتلها؟

ـ أعرف ذلك، وسأقوله لك... لك وحدك! لقد وقع اختياري عليك. لن أرجع إليك لاستغفرك، وإنما لأحدّثك ببساطةٍ. لقد اخترتك منذ مدةٍ طويلةٍ، منذ اللحظة التي كلّمني فيها أبوك عنك، وكانت اليزابيت ما تزال حيّة. وداعاً! لا تناوليني يدك! إلى الغد!

وخرج وكانت صونيا تنظر إليه وكأنها تنظر إلى مجنون، ولكنها كانت هي نفسها أشبه بمجنونةٍ، وكانت تشعر بذلك. وكانت تحسّ بدوار.

تساءلت: «رباه! كيف يعرف من الذي قتل إليزابيت؟ ما معنى هذه الأقوال؟ فظيع، فظيع!» ولكن لم يخطر ببالها «أن..»، لم يخطر ببالها هذا في لحظة من اللحظات! وقالت تحدث نفسها: «لا بد أنه شقيّ، لا بد أنه شقيّ شقاء رهيباً! ترك أمه وأخته. لماذا؟ ماذا جرى؟ ما هي نيّته؟ ماذا قال لي؟ لقد لثم قدمي وقال لي... نعم... قال لي ذلك بوضوح... قال لي إنّه أصبح لا يستطيع أن يحيا بدونها... آه ...أيها السماء الرحيمة».

قضت صونيا الليل كله في حمّى وهذيان، فتارة تنهض بوثبة واحدة فتأخذ تبكي وتلوي يديها ألماً، وتارةً تهوي إلى نوم محموم فترى في الحلم بولينكا وكاترين إيفانوفنا وإليزابيت وقراءة الإنجيل... وتراه هو ..هو.. بوجهه الشاحب، وعينيه المتقدّتين، يلثم قدميها، ويبكي..

آه...يا ربّ!..

قائل هذه الكلمات ديمتري (ميتيا) كارامازوف الذي اتهم بهتانا بقتل والده فحكم عليه بخمسة وعشرين عاماً من الاشغال الشاقة في سيبيريا. (وهو يشرح هذا الأمر بشكلٍ أوفى في الفقرات الافتتاحية) ولقد وجد ميتيا طريق عودته للّه من خلال هذا المصير المرعب بالتحديد. وهو لم ينكر اللّه أبداً في الواقع، وإنما أبعدته عواطفه الخاطئه عنه. وينصب هذا الانفجار العاطفي على الأخ غير الشقيق لديمتري ـ اليوشا (الكسي) عندما يزور اليوشا ديمتري مرّة لخرى في السجن قبل إبعاده إلى سيبيريا بقليل. ويلعب راكيتين، طالب المعهد الديني المذكور هنا، دور الخصم في الرواية، اي شخصاً عديم الضمير وذا عقليةٍ ماديةٍ في مهنته.

اقترب ديمتري من اليوشا وقد استولى عليه اضطرابٍ شديدٍ، وقبّله فجأةً، كانت عيناه تسطعان، واخذ يقول بنوع من الوجد كأنه خارج عن طوره:

لا يستطيع راكيتين أن يفهم هذا، أما أنت فسوف تفهمه. ومن أجل ذلك كنت في ظمأ شديدٍ إلى أن أراك. هل تعلم أنني، منذ زمنٍ طويلٍ، أريد أن أكلّمك في أشياءٍ كثيرةٍ، هنا، بين هذه الجدران القديمة، ولكنني لم أذكر أيّ شيءٍ عن القضية الأهم. يبدو أنه لم يكن قد آن لي أن أسرّ إليك بما في نفسي بعد. لقد انتظرت الى آخر دقيقة، لأفتح لك قلبي، أخي، لقد أصبحت خلال هذين الشهرين الأخيرين، إنساناً آخر. لقد ولد فيّ كائنٌ جديدٌ. الحقُّ أنه كان موجوداً فيّ منذ

الأزل، ولكن ما كان له أن يظهر لولا تلك الكارثة التي جاءت من السماء. شيءٌ رهيب! إنّني لا أخشى أن أعمل بيدي في المنجم عشرين عاماً. ذلك لا يهمني. هناك شيءٌ آخرٌ أخشاه الآن. إنني أخشى أن يزول، من جديد، الانسان الذي بعث حيًّا في نفسي. إن المرء يستطيع أن يجد حتى في سجون الأشغال الشاقة، حتى في جحيم غياهب المناجم، يستطيع أن يجد بقربه سجينا آخر يخفق فيه قلبٌ إنسانيّ وإن يكن رجلاً قاتلاً. يستطيع المرء أن يصادقه، لأنه مباحٌ للمرء هنالك أيضاً أن يحيا ويحبّ ويتألّم! يستطيع المرء أن ينذر نفسه لذلك السجين، ليشعل في قلبه مرّة أخرى شعلة الحب والعطف خلال سنين، إلى أن تنبعث أخيراً من ظلمات وجوده نفس أحياها الألم والشعور. إن في وسعنا أن نحيي الملاك في الشيطان، وأن نبعث البطل في الجبان. إنهم كثر هنالك، اولئك الذين سقطوا، إنهم مئاتٌ ونحن جميعاً مسئولون عن مصيرهم.

لماذا رأيت في حلمي ذلك «الطفل»، وأنا أجتاز من حياتي مثل هذه المرحلة. لماذا كان الطفل فقيراً جداً؟ كانت تلك إشارة من السماء نزلت عليّ في تلك اللحظة. سأمضي إلى سجن الأشغال الشاقة. إن جميع البشر مسئولون عن آثام سائر الناس. من أجل كل الأطفال، لأن في هذا العالم أطفالاً منهم الصغار ومنهم الكبار. سأمضي في سبيل كل الأطفال، لأنه لا بد أن يكفّر أحدٌ عن الآخرين وأن يفتديهم. أنا لم أقتل أبي، ولكن من واجبي أن أضحي بنفسي. إنني اقبل ما كتب عليّ! هنا، في هذا السجن، إنما فهمت هذه الأشياء كلها... هنا، بين هذه الجدران القديمة.. إنهم كثيرون هناك، تحت الارض، يحفرون بالمطارق في المنجم. صحيح أننا سنكون مكبلين بالأغلال، وبدون حرية، ولكن، هناك، في ذلك الألم الكبير، ستُبعث الى الفرح الذي لا يمكن بدونه أن يحيا الإنسان، أو أن يوجد اللّه، لأن اللّه هو ينبوع الفرح، فتلك هي الخاصة التي ينفرد بها. رباه! ليُقن الإنسان نفسه في الصلاة والدعاء! كيف يمكنني أن أعيش تحت الارض بدون اللّه؟ إن راكيتين يكذب! وحين يطرد البشر اللّه من على سطح الأرض، سنلتجئ

إليه نحن في جوف الأرض. إن السّجين لا يستطيع أن يحيا بدون اللّه، مث
الإنسان الحرّ الطليق! فمن غياهب الليل، سنغني نحن الذين نعيش تحت الارض
نشيداً يمجّد الخالق ينبوع الفرح والسعادة. تبارك الرّب، وتبارك فرحه! إنّني أح
اللّه!

كان ميتيا يكاد يختنق وهو ينطق بهذه الكلمات. كان قد أصفرّ وجهه
وتقبّضت شفتاه، وسالت الدموع من عينيه.

واستأنف كلامه يقول: لا يا أخي، إن الحياة غنيةٌ، في وسع المرء أن يح
تحت الارض أيضاً. لا تستطيع أن تصدق يا اليوشا الى أيّ حد أحب أن أح
الآن، ولا تستطيع أن تتصور رغبتي القويّة في أن أوجد وأن أعرف، لا تستطيع أ
تتصوّر هذه الغربة التي استولت عليّ وأنا بين هذه الجدران القديمة! إن راكيتين ل
يفهم هذا في يوم من الأيام، لأنه لا يفكر إلاّ في تحصيل ثروة، وبناء منزلٍ كب
يؤجره ويتقاضى أجوره بانتظام. لذلك انتظرتك نافذ الصبر. لن أخشى الألم به
الآن مهما يكن كبيراً. كنت أخافه في الماضي، ولكنّني أصبحت لا أخافه. ه
تعلم أن من الجائز أن أرفض الإجابة أمام المحكمة؟... يخيّل إليّ في بعض
الأحيان أن بي من القوة ما سوف يمكّنني من تذليل جميع المصاعب، والانتص
على جميع المحن، لا لشيء إلا أن أقول لنفسي في كل لحظة: «أنا موجود»
ولسوف أردّد وأنا في العذاب الذي لا نهاية له: «أنا موجود». ولسوف أهتف حي
يشنّجني الألم: «أنا موجود». وسوف أشعر إذا ربطت بالعمود بأنني موجود، و
جلست وحيداً سأشعر بأنّني موجود. وسوف أرى الشمس. وهبني لم أرها
فسوف أعرف على الأقل أنّ الشمس تشرق على العالم. ومعرفة ذلك تشير إلى أ
هناك حياةً أخرى تجري. اليوشا، يا ملاكي، إن كل هذه الافكار الفلسفية تسبّ
الموت ليّ. اللّعنة لهم! إن أخانا إيفان...

قاطعه اليوشا سائلاً: ما له، إيفان؟ ولكنّ ميتيا لم يسمع.

كنت في الماضي أجهل جميع هذه الشكوك، ولكنها كانت تضطرب ف

نفسي على غير علم مني. ولعلّني لم أندفع في الشراب، ولم أكن أقاتل الناس وأنقاد للعنف، إلاّ لأن تلك المعاني كانت تغلي في داخلي. فمن أجل أن أخنقها وأن أسحقها إنما كنت أتخبّط ذلك التخبّط. إن أخانا إيفان ليس مثل راكيتين. إنه يخفي في نفسه فكرة يكتمها سراً. إنه يشبه أبا الهول. إنه صامتٌ دائماً. أما أنا، فإن فكرة اللّه تعذّبني، وهي الشيء الوحيد الذي يقلقني. ما عسى أن يحدث إذا لم يوجد اللّه؟ لنفرض أن راكيتين على حق، لنفرض أنّ الدّين من صنع خيال الإنسان. إذا لم يوجد اللّه كأن الانسان هو سيّد الأرض، ورئيس الكون! عظيمٌ! ولكن كيف يكون هذا الإنسان فاضلاً بدون الله؟ ذلك هو السؤال، وأنا لا أنفك ألقي على نفسي هذا السؤال. من الذي سيحبّه الإنسان إذا لم يوجد اللّه؟ وإلى من سيقدّم الإنسان الشكر، ولمن ستغني أنشودة الفرح؟ ان راكيتين يسخر من هذا كلّه. هو يرى أن الانسان يستطيع أن يحبّ الإنسانيّة مستغنياً عن اللّه. لا يستطيع إلا سخيفٌ مثله أن يصدّق هذا الكلام. أمّا أنا فلن أفهمه في يوم من الأيام. الحياة تبدو سهلة لراكيتين. قال لي اليوم: «الأولى بك أن تهتم الآن بزيادة الحرّية في العالم، موسّعا حريّة المواطن السياسيّة. فإذا لم تستطع ذلك فحاول على الأقل أن تعمل ما يجب عمله حتى لا يزيد الجزّارون أسعار اللحم. فبذلك تخدم الإنسانيّة خدمة أصدق وأجدى ممّا تخدمها بهذه الفلسفات كلها. «أجبته قائلاً: «إنك إذا أنكرت اللّه، تنتهي إلى زيادة سعر اللّحم، فتربح بالكوبك روبلا». عندئذٍ غضب راكيتين. ما هي الفضيلة؟ إشرح لي الفضيلة يا الكسي. إن الفضيلة في ذهني شيءٌ، وهي في ذهن الصيني شيءٌ آخر. فالخير فكرةٌ نسبية، أليس كذلك؟ هذه مشكلةٌ مقلقة. لن تسخر منّي، أنت على الأقل، اذا قلت لك إن هذه المشكلة قد أرقتني ليلتين، فلم أستطع النوم. إنّني أتساءل اليوم كيف يمكن أن يحيا البشر دون أن يفكروا في هذه المشكلة. تفاهة، إن ايفان لا يؤمن باللّه، إنه يؤمن بالأفكار.

هاتان القطعتان هما ايضاً من رواية «الأبله». «العفو» هي وصف الامير مايشكين للإعدام الوشيك لسجين سياسي. وكان دوستويفسكي قد بدأ ـ بعد ان تمّ ارجاء تنفيذ حكم الإعدام في اللحظة الاخيرة ـ فترة السجن والنفي لمدة عشر سنوات والتي كان لها التاثير الكبير على حياته كما جرى وصفها في المقدّمة. ويتبع ذلك «الإعدام» الذي يمثّل الواقعيّة المطلقة النّابعة من تجربته الداخليّة لأرجاء تنفيذ الإعدام عليه.

قال مايشكين: «إنه من الجائز أن يكون هناك رأيان عن الحياة في السجن». إن رجلاً قضى في السجن قرابة اثني عشر عاماً، وهو أحد المرضى الذين كان يعالجهم طبيبي. كان هذا الرجل يصاب أحياناً بنوبات مرضيّة، وكان كثير الحركة والاضطراب والتّخبط، وحاول الانتحار. كانت حياته في السجن حزينة، أؤكد لك ذلك، ولكنها كانت تساوي أكثر من كوبكات، رغم أنه لم يكن له علاقات إلا بعنكبوبٍ وشجرةٍ صغيرةٍ نبتت تحت نافذته... على أنّني أفضّل أن أقصّ عليكم قصّة لقاءٍ آخرٍ تمّ لي في العام الماضي، إنّ في الأمر الذي سأحكيه لكم الآن شيئاً غريباً جداً، غريباً لندرة حدوثه. هو رجلٌ اقتيد مع رجالٍ آخرين محكومٌ عليهم بالإعدام إلى المشنقة، وقرأ عليهم قرار المحكمة بإعدامهم رمياً بالرّصاص لجريمة سياسيّة. وبعد نحو عشرين دقيقةً تلي عليهم قرارٌ آخر يعفو عنهم، فيُلغي حكم الإعدام ويبدّله بعقوبةٍ اخرى. وفي الفترة التي انقضت بين تلاوة الحكم الأول وتلاوة الحكم الثاني، أي خلال العشرين دقيقةً

او ربع ساعةٍ على الأقل، عاش الرجل في يقينٍ مطلقٍ بأنه ميّت لا محالة بعد بضع لحظات.

ما أشدّ رغبتي الرهيبة في أن ما أسمعه يصف المشاعر التي أحسُّ بها أثناء ذلك! حتى لقد أخذت ألقي عليه الأسئلة مراراً! كان يتذكّر كلّ شيءٍ بوضوحٍ خارق، ويؤكّد أنه لن يستطيع نسيان تلك الدقائق في يوم من الأيام. على مسافة عشرين خطوة من مقصلة الإعدام التي وقف بقربها الناس والجنود، دُقّت في الأرض أعمدة ثلاثة، إذ كان هنالك عدّة مجرمين. اقتيد الثلاثة نحو تلك الأعمدة، وشدُّوا إليها، وأُلبسوا لباس المحكوم عليهم بالإعدام (وهو ثوبٌ طويلٌ أبيض) وعصبت أعينهم حتى لا يروا البنادق. وبعد ذلك جاءت تقف، قبالة كل عمودٍ، زمرةٌ من الجنود التي ستطلق رصاصات الاعدام.

إنّ الرجل الذي أحدثكم عنه هو الثامن في الترتيب. كان عليه أن يذهب إلى العمود في الفوج الثالث. وجاء كاهنٌ يبارك الرجال المحكوم عليهم بالإعدام، ولم يبق لهم من الحياة إلا خمس دقائق يعيشونها. قال الرجل لي، إن هذه الدقائق الخمس قد بدت له طويلةً لا نهاية لها، وشعر أنه يستطيع أن يعيش فترةً طويلةً في هذه الدقائق الخمس بحيث إنه لن يحتاج إلى التفكير في اللحظة الاخيرة الآن. فرتب أموره واتّخذ إجراءاته على هذا الأساس، فحدّد الزمان الذي سيودّع فيه رفاقه ووقف عليه دقيقتين، وعيّن دقيقتين أخريين ليجمع نفسه مرّة أخيرة، وترك الوقت الباقي لإلقاء نظرةٍ على ما حوله. ويتذكّر تذكّراً واضحاً أنه تقيد بهذا التوزيع للوقت تقيداً تاماً. كان سيموت وهو في السابعة والعشرين من عمره، مليئاً بالصحة والقوة. وتذكّر أنه حين ودّع رفاقه ألقى على كلّ واحد منهم سؤالاً لا علاقة له بالحالة الراهنة، حتى إنّه اهتم اهتماماً كبيراً بسماع أجوبتهم. حتى إذا فرغ من التوديع، جاء دور الدقيقتين اللتين خصّصهما للتفكير بنفسه . كان يعلم سلفاً ما الذي سيفكّر فيه. كان يريد أن يتصوّر بأقصى سرعةٍ ممكنةٍ ما سيحدث: هو الآن هنا حيّ، وبعد ثلاث دقائق سيصبح «شيئاً آخر» سيصبح شخصاً آخر أو شيئاً آخر،

ولكن ماذا سيصبح؟ وأين سيصبح؟ كان يقدّر أنه سيعرف ذلك كله خلال هاتين الدقيقتين!

وفي مكان غير بعيدٍ، كانت تقوم كنيسةٌ تلتمع قبتها المذهّبة تحت أشعة الشمس. إنه يتذكّر الآن شدة تحديقه الى تلك القبّة والأشعّة التي كانت تنعكس عليها حينذاك. كان لا يستطيع أن ينتزع نفسه من تأمل تلك الاشعة: كان يتراءى له أن تلك الاشعة هي طبيعته الجديدة، وأنه بعد ثلاث دقائق سينصهر معها... إن تلك الحالة من عدم اليقين والشعور البغيض تجاه المجهول الذي سيحين حينه كانت رهيبة فظيعة. ولكنه قال إنه لا شيء أشقّ على نفسه عندئذ من هذه الفكرة التي كانت تدور في خاطره: «ليتني استطيع ألاّ أموت! ليت الحياة تردُّ اليّ! ما أعظم الأبديّة التي سأنعم بها إذا أمكن ذلك! لاحيلن كل دقيقةٍ دهراً، سأحسب كل دقيقةٍ، ولن أبدّد منها واحدة!» وقال إن هذه الفكرة قد صارت آخر الامر إلى نوع من جنون، حتى أصبح لا يتمنى إلا أن يطلق عليه الرصاص.

الاعدام

قال مايشكين لها وهو يشعر بالحيوية ثانيّة (وبثقةٍ تامةٍ): «خطر ببالي قبل قليل حين سألتني عن موضوع اللّوحة التي ترسمينها، أن تصوري وجه رجلٍ محكوم عليه بالإعدام، وذلك في الدقيقة التي تسبق سقوط النصل القاطع على عنقه، أي بينما هو ما يزال واقفاً على المقصلة قبل أن يضطجع على اللوح».

سألت آديلائيدا: الوجه؟ الوجه وحده؟ سيكون هذا موضوعاً غريباً شاذاً! كيف ستبدو مثل هذه اللوحة؟

قال مايشكين باصرار وحرارة:

ـ لا أدري، ولكن لم لا؟ لقد رأيت في مدينة بال، منذ مدةٍ غير طويلةٍ، لوحةً مماثلة. وأود كثيراً أن أحدّثك عنها، سأفعل ذلك في يوم من الأيام. لقد أثرت في نفسي تأثيراً كبيراً.

قالت آديلائيدا: ستحدثنا حتماً عن اللوحة التي رأيتها بمدينة بال، ولكن فيما بعد. أمّا الآن فاشرح لي لوحة الإعدام تلك. هل تستطيع أن تصفها كما تتخيلها؟ كيف يرسم ذلك الوجه؟ أيرسم الوجه وحده، هكذا؟ وكيف هو ذلك الوجه؟

بدأ مايشكين يتحدث، فقال بكل ما يملك من سلامة الطويّة وحسن الإرادة، تقوده ذكرياته وكأنه نسيّ كل ما عدا ذلك فورا: حدث ذلك قبل الموت بدقيقة. ففي اللحظة التي وضع فيها الرجل قدمه على المقصلة بعد أن أجتاز السلم، في تلك اللحظة التفت نحوي، فرأيت وجهه وفهمت كل شيء... ولكن كيف السبيل الى وصف هذا بكلمات؟ إنني لأتمنى كثيراً أن يتاح لك أنت أو أن يتاح لرسام آخر تصوير ذلك الوجه! الأفضل أن تكوني قد رأيت بعينيك! ولقد قدّرت أنا منذ تلك اللحظة أنّ هذه اللوحة يمكن أن تكون مفيدةً. ويجب على المرء أن يتعرّف على كل ما سبق ذلك، كل ما سبقه، كلّه! كان الرجل يعيش في السجن، وكان يقدر أنه سيعيش أسبوعاً على الأقل، قبل أن ينفّذ فيه الحكم: كان يعول على أن الإجراءات الشكلية طويلة، فالأوراق سترسل إلى جهةٍ أخرى، ولن تعود منها قبل انقضاء أسبوع. ولكن اتفق أن اختصرت الاجراءات لسبب من الأسباب. كان نائماً في الساعة الخامسة من الصباح. الوقت نهاية شهر تشرين الأول. وفي الساعة الخامسة صباحاً يكون الطقس مظلماً وبارداً. دخل رئيس السجانين مع الحرس بدون ضجّة ولا ضوضاء، ولمس كتفه لمساً خفيفاً. نهض الرجل على كوعه ورأى النور، فقال يسأل: «ماذا جرى؟» فقيل له: «الإعدام في الساعة العاشرة». كان لا يزال النوم في عينيه، ولم يشأ أن يصدّق أذنيه، وحاول أن يناقش، فقال إنّ الأوراق لا يمكن ان تصل قبل اسبوع آخر. ولكنه حين استيقظ تماماً كف عن النقاش وصمت. ذلك ما روى هناك. وقال الرجل: «ولكن هذه قسوة، هكذا، على حين فجأة، دفعةً واحدة!». ثم صمت من جديد وأصبح لا يريد أن يقول شيئاً... انقضت ثلاث ساعات أو أربع في الاستعدادات: الكاهن، الافطار الذي يشتمل على خمرة ولحم وقهوة (أليس هذا استهزاء؟ لو فكّرنا في الأمر ملياً لرأينا أنه قسوة! ومع ذلك يفعله

هؤلاء لبساطة قلوبهم، موقنين يقيناً تاماً من أنه رأفةً انسانيةً!). ثم بدأ تنظيف الرجل (هل تعلمين ما هو التنظيف الذي يؤخذ به رجلٌ محكومٌ عليه بالإعدام؟). ثم اقتيد عبر المدينة الى المقصلة... أظنُّ أنّ المرء، هناك أيضاً، لا بد أن يعتقد أنّ حياةً لا نهاية لطولها ما تزال أمامه. يخيّل إليّ أنه لا بدَّ أن يقول لنفسه أثناء الطريق حتماً: «ما زالت حياةٌ طويلةٌ أمامي. بقيت ثلاثة شوارع. ثم ذلك الشارع الآخر الذي فيه دكان خبّاز على اليمين... ما يزال هناك وقتٌ قبل أن تصل إلى دكان الخبّاز!»

وكان في كل جهة من حوله جمهور وصرخات وضوضاء، وآلاف الوجوه وآلاف النظرات. وكان عليه أن يحتمل ذلك كله، وخاصة أسوأ الأفكار التي تدور في خلده: «هذه ألوف من الناس لن يعدم أحد منها، أما أنا فسأعدم!». وتأتي كل هذه الأفكار استعداداً للحظة الفاصلة. ولكن ها هو ذا السلم الذي يؤدي إلى المقصلة، وها هو الرجل يقف أمامه فأخذ يبكي فجأة، رغم قوّته. فقد كان مجرماً كبيراً. كان الكاهن يجلس على العربة بالقرب منه طوال الطريق، ولا ينفك يكلمه. أغلب الظن أن الرجل لا يسمع من كلام الكاهن شيئاً. لقد بدأ يصغي اليه في البداية، ولكنه منذ سمع الكلمات الأولى أصبح لا يفهم. نعم، لا بدَّ أن الأمور جرت على هذا النحو، وها هو ذا يصعد السلم أخيراً (إن أرجلهم مقيَّدة فهم لا يستطيعون أن يتقدموا إلاّ بخطى صغيرة). كان الكاهن، ولعله رجلٌ ذكيٌّ، قد كفَّ عن الحديث اليه، ومدَّ اليه الصليبَ فقط ليقبّله. كان الرجل منذ وصوله السّلم قد أصفرَّ اصفراراً شديداً، أمّا الآن، على المقصلة، فقد أصبح اصفراره كورق الكتابة الأبيض. لعلّ ساقيه كانتا لا تستطيعان حمله، إنهما متصلبتان كالخشب، ولا بد أنه كان يشعر بغثيان، كأنَّ شيئاً كان يعبث بحلقه. هل أحسست بشيءٍ من هذا يوماً حين كنت تخافين، أو في لحظات مرعبة يحتفظ فيها المرء بوعيه كاملاً، ولكنه يصبح بغير قدرة ألبتّة؟ يخيّل إليّ أن الانسان، حين يداهمه هلاكٌ لا سبيل الى تحاشيه، كانهيار منزلٍ فوقه مثلاً، إنما يشعر عندئذٍ برغبةٍ لا تقاوم في أن يقعد مغمضاً عينيه، وليحدث ما يحدث!...

«وعندما بدأ الضعف والوهن، بادر الكاهن بحركةٍ سريعةٍ ودون كلام، فوضع الصليب بالقرب من شفتي الرجل، وهو صليب صغيرٌ من فضة، ذو أربعة أفرع، كان يقرّبه في كل لحظة... فمتى لامس الصليب الشفتين فتح الرجل عينيه وارتدّ إلى الحياة لحظاتٍ قليلة واستأنفت ساقاه السير. كان يقبّل الصليب في نهم وشراهة، كأنه يستعجل التزوّد بشيءٍ ما، كيفما اتفق، ولكنني لا أصدق أن يكونَ قادراً في تلك الدقيقة على أن يشعر بعاطفة دينية. وظلّ الحال على هذا المنوال إلى أن رقد الرجل على لوح الخشب الذي تسقط عليه سكين المقصلة... هناك أمرٌ غريب: إنّ من النادر أن يغمى على المرء أثناء هذه الثواني الأخيرة! بالعكس: يكون الدماغ حيًا عندئذٍ، أشدُّ وأنشط، كآلةٍ مندفعةٍ في عملها. إنني أتخيل قرعات الخواطر التي تقرّع الرأس وتظلُّ ناقصةً، وربما كانت غريبةً بل ومضحكةً: هذا الرجل الذي ينظر إليّ... إنّ له ثؤلولاً في جبينه. والجلاّد: إن أحد أزرار سترته صدئ... وفي مثل هذه اللحظات يعرف المرء كلّ شيءٍ، ويتذكّر كلّ شيءٍ. هناك نقطةٌ وحيدةٌ لا يمكن نسيانها ولا يمكن تجنّبها بإغماء، وحول هذه النقطة إنما يدور كلّ شيء. تصوري أن الأمر يظلُّ على هذا النحو إلى آخر ربع ثانيةٍ، حين يكون الرّأس قد أصبح تحت السكين، فالرجل ينتظر... ويعلم . إنه يسمع انزلاق الحديد فجأةً فوقه. ذلك أنه يسمعه حتماً، ولا يستطيع إلاّ أن يسمعه. لو كنت أنا الشخص الذي يُنفذ فيه الإعدام لتعمّدت أن أتنصت، ولسمعت صوت انزلاق الحديد! قد لا يدوم هذا الا عشر ثانية، ولكنّ المرء يسمع الصوت حتماً! تصوري أن هناك من يدّعون أنّ الرّأس، بعد انقطاعه وسقوطه، ربّما ظلّ يعلم خلال ثانية أنه انقطع وسقط!... أرسمي المقصلة بحيث لا يرى الناظر على المستوى الأول، إلاّ تلك الدرجة الأخيرة. وأنّ المجرم قد وقف فوقها، رأسه ووجهه أبيضان كالورق، والكاهن يحمل الصليب، والرجل يضع شفتيه الزرقاوين عليه، وينظر ويعي بكل شيء. الصليب والرأس...هذه هي الصورة، وجه الكاهن ووجه منفذ الإعدام ومرافقيه وبعض الرؤوس والعيون يمكن رسمها في خلفية الصورة، نصف مضيئة... هذه هي الصورة.

البصلة

في رواية «الأخوة كارامازوف» تروي غروشنكا هذه القصة إلى اليوشا الذي حاولت أن تغريه، ولكنه قاومها واحترمها في نفس الوقت بصورة صادقة كمساويةٍ له. وادّى ذلك الى عودتها إلى الإيمان وفحص النفس الروحي. وهذا نمط نموذجي للطريقة التي يتمّ بها الخلاص في كتابات دوستويفسكي.

لقد تمّ إغراء غروشنكا والإيقاع بها كفتاة صغيرة، وتّم التخلي عنها، ثم طردت من بيت والديها . عاشت في هذه المدينة وقد تمّ تغطية مصاريفها من قبل تاجر مسنّ غني اتخذها عشيقةً له. وقد نضجت لتصبح ذات جمالٍ نادرٍ، ومن ذلك الحين حتى هذه التجربة مع اليوشا سعت للانتقام لنفسها بشكلٍ عشوائيٍ من كل عالم الرجال. ويلاحقها كارامازوف الأكبر وهكذا يفعل ديمتري الذي ينجح قبل اعتقاله بقليل في كسب حبّها الصّادق.

كان هناك في الماضي امرأة عجوز شريرة جداً، فلمّا ماتت هذه العجور، وكانت لا تملك أيّة فضيلةٍ يمكن أن تشفع لها في يوم الحساب، أمسكتها الشياطين وألقتها في بحيرةٍ من نار. وعندئذٍ أخذ حارسها الملاك يفكر ويتساءل: «ما الذي يستطيع أن يفعله لإنقاذها؟ ألا يمكنني أن أكتشف فضيلة أذكرها عنها للربّ!» فاذا هو يتذكّر حادثة جرت لهذه المرأة في حياتها، فقال للرب: «لقد انتزعت من حديقتها بصلةً في ذات يوم ووهبتها لشحاذٍ». فقال الربُّ للملاك الحارس: «خُذْ هذه البصلة وأعطها لهذه المرأة في بحيرة النار، واطلب منها أن تتشبث بها، ثُمّ

اسحبها لكي تخرجها من اللهب. فإذا استطعت أن تخرجها ذهبت إلى الجنة، أما إذا تقطّعت البصلة فستبقى المرأة حيث هي».

أسرع الملاك إلى المرأة ومدّ إليها البصلة وقال لها: «تمسّكي بهذه البصلة فأخرجك من النار». وأخذ يشدّ بكل ما أوتي من قوة، وكاد يخرج المرأة من بحيرة النيران، حين لاحظ المذنبون الآخرون أنه كان بسبيل إنقاذها، فتمسّكوا بها بغية أن يخرجوا من البحيرة معها. ولكن العجوز كانت شريرةً جداً، فركلتهم بقدميها وهي تصرخ: «إنما يريد إنقاذي أنا لا إنقاذكم انتم، هذه البصلة بصلتي أنا لا بصلتكم أنتم». فما أن نطقت العجوز بهذه الكلمات، حتى تقطّعت البصلة، فسقطت المرأة العجوز في البحيرة من جديد. وما تزال تحترق في النار حتى الآن. أما الملاك فقد انصرف باكياً.

إنّني أحفظ هذه الاسطورة عن ظهر قلب، احتفظت بها لأنني شبيهٌ بتلك المرأة العجوز الشريرة.

يمثّل هذا الجزء من رواية «الجريمة والعقاب» وصفاً لاجتماع راسكولينكوف مع سيمون زاخاروفتش، والد المومس صونيا. وتظهر هذه الشخصيات الرئيسة في الرواية في الفقرة التقديمية.

صمت مارميلادوف من جديد، مضطرباً أشدَّ الاضطراب. وفي تلك اللحظة دخلت مجموعة كبيرة من السكارى قادمةً من الشارع، ودوت على عتبة الباب اصوات أكورديون استؤجر لهذه المناسبة، كما دوى صوت نحيل لطفل في السابعة من العمر كان يغنّي اغنية «القرية الصغيرة». ضجّت القاعة بالصخب. وأسرع صاحب الحانة والخدم يحدّقون بالقادمين الجدد، ولكن مارميلادوف تابع سرد قصته دون أن ينتبه الى احد. كان يبدو منذ ذلك الحين وكأنه يترنح من الخمرة، ولكن كلّما ازداد سكره ازدادت رغبته في الكلام. إن ذكرى نجاحه الاخير بالعودة الى منصبه، قد انعشه بعض الانعاش، حتى لقد أضفى على وجهه نوعاً من الاشراق والاشعاع. وكان راسكولينكوف يصغي اليه بانتباه.

حدث ذلك منذ خمسة اسابيع يا سيدي، نعم...فما أن علمت كاترين ايفانوفنا وصونيا بالنبأ حتى حدث، ارحمنا يا رب، ما يشبه أن أكون قد انتقلت الى الجنة. قبل ذلك كنت ألبث راقداً على الارض كالبهيمة، يا سيّدي الطيّب، وأتلقى الشتائم وأبلعها! أمّا الآن فإنهما تسيران على رؤوس الاصابع، وتُسكتان الاولاد قائلتين: «لقد تعب سيمون زاخاروفتش اليوم في مكتبه، فهو الآن يستريح... هس!» وصرت قبل أن أذهب الى عملي، أشرب القهوة واتناول القشدة الساخنة.

أصبحتا تستطيعان الحصول على قشدة حقيقية، هل تسمع؟ وأين أمكنهما الحصول على احد عشر روبلاً وخمسين كوبكاً لتجهزاني تجهيزاً لائقاً؟

ذلك امر لم أفهمه في يوم من الأيام. حذاءان، بزّة رسمية، ياقات، وقمصان رائعة، لقد اشترتا هذه الاشياء كلّها بأحد عشر روبلاً وخمسين كوبكاً، وجعلتاني حسن المظهر لائقاً. ماذا رأيت عند أوّل صباح عدت فيه من المكتب؟ أعدّت كاترين ايفانوفنا طبقاً من الحساء ولحم البقر المملّح المطبوخ مع الخضار، وذلك امر لم يحدث قبل ذلك في يوم من الأيام. ثم إنّها لم تكن تملك ما يكفي من الملابس، ولكنها في ذلك الصباح كانت ترتدي حُلّةً جميلة، كأنها كانت ذاهبة الى زيارة. رأيتها لابسةً لباساً جميلاً، إنّها تستطيع أن تخلق من العدم شيئا. كانت قد صففت شعرها ووضعت عليه قبعة انيقة وأحاطت جيدها بياقةٍ صغيرةٍ بيضاء، وزيّنت ذراعيها بكمّين لطيفين، فأصبحت إنسانة أخرى تبدو أصغر سناً واحسن رونقاً. صونيا، حبيبتي الصغيرة، اكتفت بتقديم المال، وقالت: «إنها لن تتمكن من المجيء اليك كثيراً في هذه الايام، فذلك ليس بلائق، وإنّما أجيء اليك عند هبوط الليل، حتى لا يراني احد.. هل تسمع؟ هل تسمع؟ بعد العشاء مضيت أرقد على السرير. فهل تصدّق؟ إن كاترين ايفانوفنا لم تطق صبراً. لم يكن قد انقضى على تشاجرها مع آماليا فيدوروفنا إلاّ ثمانية أيام في أكثر تقدير، ومع ذلك دعتها الى تناول فنجان من القهوة. وقضتا ساعتين كاملتين تتهامسان دون توقف. قالت لها: «إن سيمون زاخاروفتش له الآن وظيفة، وهو يقبض الآن راتباً. لقد ذهب بنفسه الى صاحب السعادة، وقام صاحب السعادة نفسه الى لقائه. جعل جميع الناس ينتظرون، وتناول يد سيمون زاخاروفتش أمام جميع الناس وقاده الى مكتبه (هل تسمع؟) وقال له صاحب السعادة طبعاً: إنني اتذكّر خدماتك الطيّبة يا سيمون زاخاروفتش، ورغم انقيادك لميلك الطائش، فإنني آمل، ما دمت تعدني بأن لا تنقاد بعد اليوم لذلك الميل الطائش، وما دام كل شيء، من جهةٍ اخرى، قد جرى بصورةٍ سيئة اثناء غيابك (هل تسمعين؟)، فإنني آمل أن تفي الآن بوعدِكَ وأن لا

تخون العهد الذي تقطعه على نفسك. الحق أن هذا كلّه إنما اخترعته اختراعاً وارتجلته ارتجالاً، انا أقول لك الآن ذلك ـ ولكنها لم تعمد الى هذا الاختراع والتلفيق انسياقاً مع ميول صبيانية، ولا حباً في اظهار قيمتها وإعلاء شأنها. بالعكس: لقد صدّقت هي نفسها كل ما تخيلته، وأقسم أنّها قد فعلت ذلك. وأنا لا الومها، لا الومها... وحين اتيتها براتبي الأوّل كاملاً منذ ستة ايام (ثلاثة وعشرون روبلاً واربعون كوبكاً)، نادتني بقولها: يا حبيبي... خاطبتني قائلةً «ما اجملكَ يا حبيبي!» قالت لي هذا وكنّا في خلوة، هل تفهم؟ يخيّل اليّ مع ذلك أنّني، من ناحية حُسْنِ الصورة وجمال الهيئة... وهل انا زوج على كل حال؟ الخلاصة، إنّها قرصت خدي وقالت لي: «ما أجملك يا حبيبي!».

انقطع مارميلادوف عن الكلام، وأراد أن يبتسم، ولكن ذقنه ارتجفت فجأةً. ومع ذلك كبح جماح نفسه. وها هي ذي الحانة، وهذا الرجل الذي يتهاوى، والليالي الخمس التي قضاها على العوّامات ناقلات العلف، ومنظر الزجاجة، وحبُّه المريض لامرأته وأسرته كلّها، ها هي تُغرق المستمع اليه بذهول. كان راسكولينكوف يريد أن يُصغي بأكبر انتباه ممكن، ولكنه أحسّ بضيق وانزعاج. ولام نفسه على أنه جاء الى هذا المكان.

صاح مارميلادوف يقول وهو يقف: أيُها السيّد العزيز، ربما كانت هذه القصة تبعث على الضحك كسائر ما عداها، ولعلني لا أريد أن اضايقك بهذا العرض الغبي الابله، لتفاصيلَ تافهةٍ من تفاصيل حياتي المنزلية. ولكن هذا كلُّه لا يضحكني أنا، لأنّ هذا كلّه إنّما أحسه أنا بكل جوارحي، لقد قضيت ذلك النهار كله، وتلك السهرة كلها وأنا أشعر أني في الجنة، أطير على اجنحة أحلامي. كنت أفكّر في الطريقة التي سأصلح بها الامور: كيف سأكسو هؤلاء الاولاد، كيف سأهيئ لها الهدوء، كيف سأنتزع ابنتي من العار وأردُّها الى احضان الاسرة... وكنت أحلم بأشياء أخرى أيضاً، بأشياء كثيرةٍ جداً. ذلك حق لي يا سيدي. فما الذي حدث أيُها السيّد العزيز؟ (هنا ارتعش مارميلادوف فجأة، ونصب رأسه وحدّق

الى محدّثه) ما الذي حدث؟ حدث في الغداة، بعد جميع تلك الاحلام الجميلة، أي منذ خمسة أيّام على وجه الدقة، إنّني عمدت الى انواع الحيل والاكاذيب، فسرقت من كاترين ايفانوفنا مفتاح صندوقها، كلص الليل، فأخذت ما كان قد بقي من أجري الذي اعطيتها اياه... لا ادري كم كان المبلغ تماماً... نعم، ذلك ما حدث... وانظر الآن اليّ، انظروا اليّ انتم جميعاً! لقد تركت البيت منذ خمسة ايّام. وهم هناك يبحثون عني، ولقد فقدت وظيفتي، وبقيت بزّتي الرسمية مرهونة في خمارة، على مقربة من «جسر مصر»... وانظروا الى هذه الثياب الرثّة التي اعطونيها بدلاً من بزّتي الرسمية!... إن كل هذه الثياب الرثّة بدلاً من بزّتي الرسمية! ... إن ذلك نهايةٌ لكل شيء.

لطم مارميلادوف جبهته بقبضة يده، وأطبق اسنانه، ثم أغمض عينيه واستند بكوعه الى المائدة استناداً قوياً. ولكن وجهه تغيّر بعد دقيقةٍ تغيراً مفاجئاً مباغتاً، فاذا هو بنوع من المكر والوقاحة ينظر الآن الى راسكولنيكوف. ثم اخذ يضحك وقال:

ـ واليوم ذهبت الى صونيا أطلب منها مالاً... لانقطع عن السُكر.. ها ها ها!

صاح يسأله احد القادمين الجدد وهو يضحك ملء حلقه: وهل اعطتك مالاً؟ وقال مارميلادوف متجهاً بكلامه الى راسكولينكوف وحده: لقد اشتريت نصف الزجاجة هذه بما اعطتني من مال، جاءتني صونيا بثلاثين كوبكاً قدّمتها الي بيدها نفسها. وكان هذا المبلغ كل ما بقي لها... رأيت ذلك بنفسي. لم تقل شيئا، اكتفت بأن نظرت اليّ صامتة... نظرت اليّ، لا كما يكون النظر في هذه الحياة الدنيا، بل في الحياة الآخرة، في السماء، حيث لا يوقظ الاشقياء في القلوب إلاّ عاطفة الشفقة، حيث يبكي الناس على هؤلاء الاشقياء دون أن يوجّهوا اليهم كلمة تقريع! وحين لا يقرّعك احد، فإنك تشعر بألم أشدّ وعذاب أقوى! نعم! تشعر بألم أشدّ وعذاب أقوى! ثلاثون كوبكاً... نعم... ولكنها كانت في حاجةٍ اليها.

أليس عليها الآن، يا سيدي، أن تعتني بنفسها، وأن تحافظ على مظهرها. وذلك يكلّف نفقات كثيرة، هل تفهم؟ هناك دهون للشعر يجب أن تشتريها، التنورات، والاحذية الانيقة التي تسمح باظهار القدم الصغيرة عند تجاوز بركة ماء بخطوة كبيرة! هل تفهم يا سيدي ماذا تعني الاناقة؟ وهأنذا ابوها، اختلس الثلاثين كوبكاً التي تملكها لاشرب بها خمراً. لقد انفقت ذلك المبلغ فعلاً في الشراب!... فمن ذا الذي يستطيع أن يرثي لحال رجل مثلي؟ هل ترثي لحالي انت الآن يا سيّدي؟ هل ترثي لحالي؟ تكلم يا سيّدي، تكلم: أترثي لحالي ام لا؟

أراد أن يصب في كأسه خمراً، ولكن الخمر كان قد نفذ... كانت الزجاجة فارغة!

وكان صاحب الحانة قد اقترب منه مرّة أخرى، فهتف يسأله: فيم عسى يرثي الناس لحالك؟

وسمعت ضحكات وشتائم. كان يطلق الضحكات والشتائم اولئك الذين سمعوا القصة كلها، واولئك الذين لم يسمعوا شيئا ألبتة، ولكنهم ينظرون الى رأس الرجل الذي كان موظفاً.

وصاح مارميلادوف فجأةً، ونهض عن مقعده، مادّاً ذراعيه الى الامام، وقد وافاه إلهام حقيقي، كأنه لم يسمع إلاّ تلك الكلمات، صاح يقول: لماذا عسى يُرثى لحالي؟

أهذا ما تقوله؟ نعم، ليس هناك ما يدعو الى الرثاء لحالي! وإنّما ينبغي أن أُصلب، أن أُصلب على الصليب، لا أن يُرثى لحالي! ولكن أصلبني أيُها القاضي، ثم ارث لحالي بعد أن تصلبني. وعندئذ سأمضي اليك بنفسي، اواجه العذاب مواجهةً، بل الى حزن ودموع!... اتراك تظن أيُها البائع أن نصف الزجاجة الذي اشتريته منك قد جاءني بالفرح وحمل اليّ المسرّة؟ إنّه الالم ما كنت أنشده في قرارة تلك الزجاجة... نعم... الالم والدموع! ... ولقد ذقت فيها الالم، لقد

وجدت فيها ما كنت انشده! ولكن اللّه الذي يُشفق على جميع الناس ويرأف بجميع الناس، سيشفق علينا، وسيرأف بنا... لأنه يدرك كل شيء، إنّه هو الواحد الاحد. إنّه هو القاضي الأعلى. سيظهر في يوم الحساب فيسأل: «أين هي تلك الفتاة المسكينة التي ضحّت بنفسها في سبيل امرأة أبيها الشريرة المصدورة، في سبيل اولاد امرأة اخرى؟ أين هي تلك الفتاة المسكينة التي اشفقت على ابيها الارضي، السكّير دون أن تشمئز من حيوانيته؟» وسوف يقول لها: «تعالي! لقد سبق أن غفرت لك مرة...والآن أعفو عن جميع خطاياك، لأنك احببت كثيراً»...وسيغفر لها، سيغفر لابنتي العزيزة صونيا... انا أعلم أنه قد غفر لها... شعر قلبي بهذا حين كنت عندها منذ قليل... وسوف يحكم على الجميع. سيغفر للاخيار والاشرار، سيغفر للحكماء والبسطاء على السواء. حتى إذا فرغ من الجميع، خاطبنا نحن أيضاً فقال: «تعالوا أنتم أيضاً أيها السكيرون، تعالوا أيّها الضعفاء، تعالوا أيّها الفاسقون!». وسنقترب منه جميعاً، دون شعور بالخزي والعار، وسنقف أمامه، وسيقول لنا: «أنتم خنازير! قد خُلقتم على صورة الوحش، ودُمغتم بخاتمه! ومع ذلك اقتربوا!». وسيقول الحكماء عندئذ، سيقول العقلاء: «كيف يا رب؟ كيف تستقبلهم هم ايضا؟» فيجيبهم: «انا استقبلهم أيّها الحكماء، انا استقبلهم أيّها العقلاء، لأن احداً منهم لم يحسب أنّه جدير بأن يستقبل!». وسوف يفتح لنا ذراعيه، وسوف نرتمي بين ذراعيه... وسوف نبكي... وسوف ندرك كل شيء... سوف ندرك عندئذ كل شيء!... وسوف يدرك جميع الناس عندئذ كل شيء... وسوف تفهم كاترين ايفانوفنا هي نفسها... فليأت ملكوتك أيّها الرب!»

انهارت قوى ماميلادوف، فتهاوى على الطاولة، دون أن ينظر الى احد، كأنّه قد غرق في احلام عميقة، فنسي كل ما كان يحيط به. وأحدثت كلماته أثراً. فساد الصمت خلال دقيقة. ولكن القهقهات والشتائم لم تلبث أن عادت تدوي.

الهمت لوحة هوبلاين «المسيح منزلاً عن الصليب» هذا الوصف الماخوذ من رواية «الأبله». ويرد ذكر نسخةٍ من اللوحة المعلقة في بيت روجوزين لأول مرة في الحديث بينه وبين الامير مايشكين حول تاثير هذه اللوحة على ايمانهم. ويسرد الانطباع الذي تركته اللوحة الاصلية على دوستويفسكي بشكل اوفى في المقدمة.

وتنتهي قضية الايمان ايضاً عند هذا المقتطف حول اللّوحة، وهو وصف ماخوذ من بيان طويل كتبه ايبوليت (الشاب المسلول الذي يرعاه مايشكين). وقد عَنْوَنَ بيانه «شرح ضروري» وقراه بصوتٍ عالٍ الى مجموعة في بيت ليبيديف قبل أن يقوم بمحاولة غير ناجحة لإطلاق النار على نفسه.

كانت اللوحة تمثّل المسيح لحظة إنزاله عن الصليب. إن الرسامين، إذا لم يخطئ ظني، إنّما اعتادوا أن يصوّروا المسيح إمّا على الصليب، وإمّا بعد نزوله عنه، مع وميض جمال في وجهه يفوق الطبيعة. إنّهم يحرصون على أن يحتفظوا له بذلك الجمال حتى في وسط أشد انواع العذاب قسوة. أمّا اللوحة التي رأيتها عند روجوزين فلم يكن فيها شيء من هذا. إنّها تصوير كامل لجثمان إنساني يعبّر عن جميع العذابات التي لا حدود لها، مما احتمله المسيح حتى قبل صلبه. تظهر فيها آثار الجروح واللطمات والضربات التي أمطره بها حرّاسه، ويظهر الناس فيها في اللحظة التي كان يحمل صليبه ويسقط على الارض تحت وطأة ثقله، وفيها أخيراً

آثار الصلب خلال ست ساعات (اذا صدق حسابي أنا على الاقل). هذا حقاً وجه انسان أُنزل عن الصليب «منذ برهة». إنّه ما يزال يحتفظ بالحياة والحرارة. ولم يكن التجمُّد قد فعل فعله بعد، فكان وجه الميت ما يزال يصوّر الألم كأنّه ما أنفك يعانيه (لقد أدرك الفنان هذا إدراكاً قوياً). زد على ذلك أن الوجه كان يعبّر عن الحقيقة الصارمة، فكل شيء فيه طبيعي. إنّه حقا جسد إنسان عانى تعذيباً بِغَضّ النظر عمّا هو.

أنا أعرف أن الكنيسة المسيحية قد ذهبت، منذ القرون الاولى، الى أن الآم المسيح لم تكن رمزية بل واقعية، وأن جسمه كان يخضع وهو على الصليب لجميع قوانين الطبيعة. فكانت اللوحة إذن تمثّل وجهاً شوّهته الضربات تشويهاً فظيعاً، فتورّم وتنفّخ وامتلأ خدوشاً وجروحاً نازفةً رهيبةً، وحملقت عيناه وانقلبت حدقتاهما، واتّسع بياضهما الذي يلتمع التماعاً زجاجياً يعكس الموت.

غير أن أغرب ما في الامر هو هذا السؤال العجيب المثير الذي يوحيه منظر جثمان ذلك الإنسان الذي تعرّض لهذا العذاب، إذا كان جميع مريديه، وجميع الذين سيصبحون حواريّيه، والنساء التي تبعته وتعلّقت بأسفل الصليب، اذا كان الذين آمنوا به وعبدوه، إذا كان جميع هؤلاء قد رأوا أمام ابصارهم جثّةً كتلك الجثة (ولا بد أنّ الجثة كانت على الصورة التي وصفناها)، فكيف أمكنهم أن يصدّقوا وهم يرون هذه الرؤية أن الشهيد سيُبعث حيا ويقوم؟

إن السؤال الذي يفرض نفسه هو أنّه إذا كان الموت أمراً فظيعاً الى هذا الحد، إذا كانت قوانين الطبيعة قويّة الى هذه الدرجة، فكيف يمكن الانتصار عليها؟ كيف يمكن تذليلها، في حين أنّه لم يتم الانتصار عليها أمام ذلك «الذي» أخضع الطبيعة اثناء حياته، وجعلها تنصاع له، وقال للصبيّة قومي، فاذا الصبيّة تقوم، وقال أخرج اليعازر، فاذا الميت يخرج من القبر.

حين يتأمل المرء هذه اللوحة فإنه يتخيّل الطبيعة في صورة وحش ضخم حاقد أخرس. او قل، مهما يكن التشبيه غريباً غير متوقّع، من الاصح كثيراً أنّ

تشبّه الطبيعة هنا بآلة حديثة من آلات البناء الضخمة، صمّاء لا تحس، بلهاء لا تفهم، تلقّفت وطحنت ثم ابتلعت «كانتا» لا يعادله كائن، يساوي وحده كل الطبيعة وكل القوانين التي تحكم الطبيعة، وكل الارض التي لم تُخلق إلاّ لكي يأتي اليها ذلك «الكائن»! إن ما بدا لي أن تلك اللوحة تعبّر عنه إنّما هو فكرة وجود قوّة غامضة غاشمه ابدية يخضع لها كل شيء. إن الناس الذين كانوا يحيطون بالميت، رغم أن اللوحة لم تصوّر أي واحد منهم، لا بد أنهم شعروا بغم فظيع وانصعاق رهيب في ذلك المساء الذي حطم، دفعة واحدة، جميع آمالهم، وكاد يحطم ايمانهم. لا بد أنهم افترقوا على هلع هائل ملأ جوانب انفسهم، رغم أن كل واحدٍ منهم حمل في قرارة نفسه فكرة كبيرة ترسّخت في اعماقه، فلا سبيل الى انتزاعها بعد ذلك قط.

سؤال آخر: ترى لو استطاع المعلم أن يرى صورة نفسه عشية تعذيبه، أفكان يمشي الى الصلب والى الموت كما مشى اليهما؟ ذلكم سؤال آخر يخطر ببالكم على غير إرادة منكم حين تنظرون الى تلك الصورة.

من حياة زوسيما الاكبر

هذه احداث من رواية «الاخوة كارامازوف» وهي مستقلة كلياً وكاملة في حد ذاتها. وزوسيما هو راهبٌ صارمٌ جداً وله احترامٌ كبير، وناسكٌ ومرشدٌ روحي (الشيخ) وهو في نفس الوقت الاب الروحي والمثل الابوي لاليوشا (الكسي) فيودروفيتش كارامازوف. ويروي زوسيما لاصدقائه الرهبان قبل ان يموت بقليل كيف وجد الطريق الى اللّه وهذا هو الطريق الذي يتبعه اليوشا.

اخو الشيخ زوسيما

آبائي ومعلمي الأحبة، وُلدت بمدينة «ف» في مقاطعة نائية بشمال روسيا. كان أبي من طبقةٍ صغار النبلاء، ولم يكن يحتل رتبة عالية في سلّم رتب الدولة. مات ولم أتجاوز السنة الثانية من عمري، فليس في ذهني أيّة ذكرى عنه. وترك لأمي منزلاً صغيراً من الخشب، ورأس مال متواضعاً، ولكنه يكفي لكي تعيش مع أولادها في دعة. كنا ولدين. أخي الأكبر ماركل وأنا. كان أخي أكبر مني بثمانية أعوام. كان جامح الطبع متوتر المزاج، ولكنه طيّب القلب ولا يسخر من احد، كثير الصمت الى حد غريب ولا سيما مع ذويه، أي معي ومع أمي والخدم. كان مجتهداً في المدرسة مما يثبت أنّه ينعم بذكاء قوي. ومع ذلك كان لا يألف رفاقه في المدرسة كثيراً، ولكنه لم يكن يتشاجر معهم. هذا على الأقل ما اخبرتني به أمي عنه. وقبل نهايته بستة أشهر، بينما كان يدخل السنة الثامنة عشر من عمره، توثقت الصلة بينه وبين رجلٍ كان يعيش في مدينتنا حياة اعتزال، رجل يشبه أن يكون منفياً سياسياً، لأنه أُجبر

على أن يغادر موسكو بأمر سام، وأن يحدّد إقامته في مدينتنا بسبب آرائه الليبرالية. كان هذا الرجل عالماً كبيراً وفيلسوفا تقدّره الأوساط الجامعية قدراً كبيراً. وشعر بصداقة نحو أخي ماركل، فكان يستقبله كثيراً في منزله. فقضى أخي عنده سهرات طويلة، على مدى فصل الشتاء كله، الى أن استُدعي الرجل الى سان بطرسبرج بطلب منه، ليُعهد اليه بمنصب رسمي، لأنه كان ذا صلات عالية.

كان هذا في وقت الصيام الكبير، وقد رفض أخي أن يصوم، لاستخفافه بالصيام، حتى لقد قال: «هذه سخافات وأباطيل، لأن الله لا وجود له»، مما ازعجني وازعج أمي والخدم! لقد شعرت حين سمعت قوله ذاك بهول رهيب، رغم أنني لم أكن قد تجاوزت السنة التاسعة من عمري في ذلك الحين. وكان جميع خدمنا، وهم أربعة من العبيد، وما زلت أتذكر اليوم الذي باعت أمي فيه إحدى خادماتنا، وهي الطبّاخة العجوز العرجاء أوفيميا، بسبعين روبلاً، واستخدمت بدلاً منها خادمة ليست من الأقنان.

وها هو أخي يُصاب بمرض أثناء الأسبوع السادس من الصيام الكبير. فهو ضعيف البنية كثير المرض، على استعدادٍ للاصابة بالسل، إنّه طويل القامة نحيل الجسم، ولكنه وسيم الطلعة جميل الوجه. تُرى هل أصابه برد؟ المهم أن الطبيب الذي كان يعالجه قد أخبر أمي خفية أن ماركل مصاب بسل يتفاقم سريعاً، وأنه لن يعيش الى آخر الربيع. فأخذت أمي تبكي وتضرّعت الى اخي أن يتناول القربان المقدس في عيد الفصح. ذلك أنه لم يكن قد اضطر بعد الى ملازمة الفراش. فأجابها أخي غاضباً وقال بعض الكلمات التي أساء فيها للكنيسة، ثم أطرق يفكر شارد اللب. لقد أدرك خطورة حالته حين رأى إلحاح أمي عليه أن يذهب الى الكنيسة لتناول القربان المقدس ما دام لا يزال يملك من القوة ما يسمح له بذلك. ثم إنه كان يعرف منذ زمن طويل أنه مريض، حتى لقد قال لنا منذ ما يقرب من عام، بينما كنا على المائدة أنا وهو وأمي: «لن أعيش زمناً طويلاً، وقد لا أكون معكم بعد سنة». ويبدو لنا هذا الآن كالنبوءة.

انقضت أيام ودخلنا الأسبوع المقدس. فإذا بأخي يذهب الى الكنيسة منذ صباح الثلاثاء قائلاً لأمي: «إنني أذهب الى الكنيسة من أجلك أنت يا أماه، وذلك حتى تطمئني بالاً وتهدئي نفساً.» وحدَّثت نفسها قائلة: «لا شك أن نهايته قريبة ما دام قد حدث هذا التبدل فيه». ولم يتح له أن يكثر من الذهاب الى الكنيسة، فقد اضطر لملازمة الفراش، فصار يعترف ويتناول في المنزل.

جاء الفصح متأخراً في ذلك العام، وكانت الأيام صافية مضيئة، والهواء عبقاً معطراً. أذكر أن أخي كان يسعل في جميع الليالي، ولا يكاد ينام. حتى إذا طلع الصباح ارتدى ملابسه وحاول أن يجلس على الأريكة. وهكذا اتذكر كيف كان يجلس وديعاً، رقيقاً، مبتسماً، مريضاً جداً ولكنه مرحٌ وسعيدٌ جداً في الظاهر. لقد تبدلت نفسه تبدلاً كبيراً، فبدا لي هذا التبدُّل خارقا. قالت له الخادمة العجوز يوماً: «إسمح لي يا بني العزيز، أن أشعل شمعة أمام الأيقونة في غرفتك». ما كان لأخي أن يرضى بهذا من قبل، وربما نفخ في الشمعة فأطفأها.

ولكنه قال يومئذ للخادمة العجوز: «أشعلي يا عزيزتي، أشعلي! لقد كنت شاذاً حين كنت أمنعك من ذلك! أنت تصلّين أمام الأيقونة، وأنا أيضاً أصلّي لله حين أنظر اليك، لأن مرآك يُبهج قلبي، ونحن كلانا نصلّي لاله واحد».

بدا لنا كلامه غريبا في ذلك الوقت. وكانت أمي لا تنفك تبكي خفية، وتجفف دموعها قبل أن تدنو اليه، محاولة أن تصطنع هيئةً فرحة. فكان يقول لها في بعض الأحيان: «لا تبكي يا أماه، يا ملاكي الصغير، سوف أعيش زمناً طويلاً، وأفرح معكم، فالحياة جميلة وسعيدة» .

وكانت أمي تقول له عندئذ مبتهجة: «أين السعادة، وأنت تصاب بالحمّى كل ليلة، وتسعل حتى يكاد ينفجر صدرك؟».

فيعود يقول لها: «لا تبكي يا أماه فالحياة جنة، ونحن جميعاً فيها، ولكننا لا نريد أن نعترف بذلك، لو قبلنا، أصبحت الحياة جنة منذ اليوم».

كانت هذه الأقوال تدهشنا، لأنه كان يتكلم مقتنعاً بما يقوله. وكنا نتأثر من هذا الكلام، فتترقرق في أعيننا الدموع. وكان يزورنا بعض الأصحاب فيقول لهم: «يا أعزائي، يا أصدقائي الطيبين، ماذا فعلت حتى أستحق حبكم؟ كيف تستطيعون أن تحبوا شاباً مثلي؟ ولماذا لم أعرف بمحبتكم وأقدّرها من قبل؟»

وكان يكرر للخدم دائما قوله: «لماذا تخدمونني يا أصدقائي الأعزاء الطيبين؟ ما الذي يجعلني أستحق هذه الخدمة؟ اذا كان الله قد أبقاني حياً، سأخدمكم أنا، لأن علينا أن يخدم بعضنا بعضاً في هذه الحياة.»

كانت أمي تهز رأسها حين تسمعه يتكلم بهذه الطريقة، فتقول له: «إن المرض هو الذي يوحي اليك بهذه الأفكار يا بني».

فيجيبها قائلاً: «أماه، يا فرحة حياتي، أنا أعلم أن العالم لا يمكن أن يوجد ما لم يكن هناك سادةٌ وخدم، ولكنني اتمنى أن أكون خادم نفسي، وأن أخدمهم كما يخدمونني، وأحب أن تعلمي أيضاً، أن كلاً منا مذنب في حق الآخرين ومسؤول عن جميع آلامهم. وأنا أكبر ذنباً من سائر الناس!».

لم تستطع أمي أن تمنع نفسها من الابتسام وهي تذرف الدموع، وسألته: «كيف تكون أكبر ذنباً من سائر الناس! إن العالم مليء باللصوص والقتلة، أما أنت فإن وقتك لم يتسع حتى لارتكاب ذنب او إثم! فكيف يمكنك أن تتهم نفسك هذا الاتهام؟»

قال أخي: «أيتها الام العزيزة على قلبي! (فقد بدأ يستعمل التعابير الغريبة اللطيفة)، يا قلبي الصغير ويا فرحتي، أؤكد لك أن كل إنسان في هذه الحياة يتحمل مسؤولية خطايا كل الناس وفي حق جميع الناس! لا أدري كيف أشرح لك هذا الأمر! ولكنني أحسه احساساً قوياً عنيفاً الى حد العذاب. كيف رضينا أن نعيش حتى الآن ونحن نحس بالغضب، ولا نفهم الحياة؟»

كان يستيقظ كل يوم وقد ازداد قلبه رقة، وطفحت نفسه فرحاً ومحبةً. وكان

الطبيب العجوز ايزن شمدت، يعوده أحيانا. فسأله أخي ذات يوم ضاحكا: «هل سأعيش يوما آخر في هذا العالم؟»

ـ ستعيش اياما عديدة، لا بل ستعيش أياما وأشهراً وسنين؟

وكان يقول متعجبا: اشهراً وسنين! لماذا نعد الايام، إن يوماً واحداً لكافٍ من أجل أن يعرف الانسان كل سعادة هذا العالم. يا أصدقائي الأعزاء! نحن مصابون بالجنون إذ نتشاجر ونتباهى ويحقد بعضنا على بعض لإساءةٍ تافهة. فلنخرج الى الحديقة ونبتهج ويحب بعضنا بعضاً! لنتعانق ونبارك الحياة!

قال الطبيب لأمي حين اصطحبته الى درج الباب: «لن يعيش ابنك طويلاً. لقد اختل عقله من المرض.»

وكانت نوافذ غرفته تطل على الحديقة الظليلة المليئة بالأشجار الكبيرة التي كانت تملأ فروعها البراعم؛ وكانت أوائل عصافير الربيع التي وصلت منذ زمن قصير تزقزق وتغرّد تحت نوافذه، فكان يتأملها طويلا ويُعجب بها كثيراً، حتى لقد أخذ في ذات يوم يستغفرها هي قائلاً: «أيتها العصافير التي خلقها اللّه، أيتها الطيور الصغيرة، إغفري لي أنت أيضاً، لأنني أذنبت في حقك!». ولم يتمكن احد منا من فهم ذلك في تلك اللحظات، وهو يذرف الدموع من الفرح. وقال: «نعم، لقد كانت عظمة اللّه مبسوطة أمامي، الطيور والأشجار والمراعي والسماوات. كان كل شيء يتغنّى بعظمة اللّه ويسبّح بحمده. إلاّ أنا، فقد كنت أعيش في الخزي والعار، لأنني لم أر جمال الحياة وسناءها.».

وكانت أمي تقول له باكية: «لماذا تتهم نفسك بخطايا كثيرة؟»

فيقول لها: «أمي الحبيبة، إنني أبكي من السعادة وليس من الحزن. وددت لو أكون مذنباً في حق العصافير الصغيرة! لا أستطيع أن أشرح لك هذا، لا أعرف كيف أشرح لك حبّي إياها. وددت أن أكون مذنباً في حقكم جميعاً، فتغفروا لي ايضاً. تلك هي الجنة. ألست الآن في الجنة؟».

وكان يقول أشياء أخرى أصبحتُ لا أتذكرها. دخلتُ ذات يوم الى غرفته وكان وحده. كان ذلك في المساء، وقد ملأت الشمس الغاربة الغرفة بأشعتها المائلة. فلما رآني أشار اليَّ أن أقترب، ثم وضع يديه على كتفي وتأمّلني متفرساً في عيني، وقد بدا في وجهه حب وحنان. وانقضت على ذلك دقيقة دون أن ينطق بكلمة ثم أسبل يديه وقال لي:

ـ «حسنا، إلعب الآن وابتهج! إنني أريد أن تفرح عوضاً عنّي!».

خرجت ومضيت ألعب؛ ولكنني كثيراً ما فكرت اثناء حياتي، والدموع في عيني، كيف طلب مني أن أتمتّع بالحياة من اجله. وهناك العديد من الاقوال الجميلة الرائعة له، لم نكن نفهمها كثيراً في ذلك الحين. ومات في الأسبوع الثالث بعد عيد الفصح. وكان يملك وعيهُ الكامل؛ ورغم أنه أصبح لا يتكلّم في أواخر أيامه، فقد ظل على ما كان عليه حتى النهاية. كان سعيداً مبتسماً، ويبحث عنّا وينادينا بعينيه. وقد تكلّم الناس عن موته كثيراً في مدينتنا. وأثّر هذا الحادث في نفسي، ولكن ليس كثيراً، وإن أكن قد ذرفت دموعاً سخيّةً يوم الجنازة. فلأنني كنتُ طفلاً صغيراً، ولكن ذكرى هذا الأخ ستظل قائمةً في أعماق قلبي، لتظهر أمامي متى آن الأوان، هكذا حدثت الأمور فعلاً.

اثر الكتب المقدسة في حياة الأب زوسيما

بقيت وحيداً مع أمي. ولم يلبث أصدقاء طيبون أن قالوا لها أنها تُحسن صنعاً، ـ بعد أن لم يبق لها إلاّ ابن واحد، وهي ليست محرومة من الموارد،ـ أن ترسلني الى سان بطرسبرج للدراسة، على غرار ما تفعل أسر نبيلة اخرى؛ وأكّد هؤلاء الأصدقاء أنها، اذا احتفظت بابنها الى جانبها، تُعرّضه للحرمان من مستقبل لامع. واقنعوا أمي أخيراً بأن تسجّلني في «المدرسة الحربية» ببطرسبرج، لكي أصبح في المستقبل ضابطاً من ضباط الحرس الامبراطوري. وقد ترددت أمي كثيراً في العزم على فراق ابنها الأخير، ولكنها اتّخذت قرارها أخيراً وهي تبكي، معتقدة أنها تؤمّن بذلك سعادتي. وقادتني الى سان بطرسبرج فألحقتني بمدرسة الإعداد

العسكري، ثم لم أرها منذ ذلك الحين، لأنها ماتت بعد ثلاث سنين، ولم تنقطع في أثناء تلك الفترة، عن البكاء حزناً على ابنها الفقيد وقلقاً على ابنها الثاني.

وقد احتفظ خيالي بذكريات مضيئة عن المنزل الذي عشت فيه مع أمي، لأنَّ أصفى مشاعر القلب الإنساني هي تلك المشاعر التي يكون قد أحسَّها في طفولته في بيته الأول، خاصة إذا كان الحب والوفاق مسيطرين على حياة الأسرة دائماً. ولكن ذكريات الطفولة يمكن أن تكون ذكريات سعيدة حتى في الأسر الممزقة، متى كانت النفس قادرة على أن ترى ما هو طيِّب نبيل. ولقد ارتبطت الكتب المقدسة بذكريات طفولتي، لأنني كنت أهتم بها أثناء طفولتي في المنزل اهتماماً كبيراً. كنت أملك كتاباً فيه صورٌ جميلة بعنوان: «مائة وأربع قصص مستمدة من التوراة والانجيل»، وتعلَّمت القراءة في هذا الكتاب الذي لا يزال عندي حتى الآن. إنه هناك على الرف، أحافظ عليه محافظتي على أثر ثمين جداً من آثار الماضي. على انني أتذكر أن الانفعال الديني الأول الذي شعرت به إنَّما كان قبل تعلُّمي القراءة، ولم أكن قد تجاوزت الثامنة من عمري حينذاك. أخذتني أمّي الى الكنيسة للصلاة في «أسبوع آلام السيِّد المسيح» (لا أدري الآن أين كان أخي حينذاك)، وكان ذلك في يوم من أيام الاثنين قبل عيد الفصح. النهار صحو، والشمس ساطعة، وما زلت أذكر ذلك اليوم حتى هذه اللحظة، كأن الأمر قد وقع أمس. ما زلت أرى أدخنة البخور تتصاعد بطيئة نحو القبة؛ وفي أعلى الكنيسة كانت أشعة شمس الإله تنفذ من نافذة ضيِّقة هابطةٍ نحونا، وكانت أدخنة البخور كلها تندفع لاستقبالها كأنها أمواج متسقة، ثم تتصهر في الضياء الذهبي أخيراً. كنت أتأمل هذا المشهد معجباً، وأحسست أن بذرة «كلمة الرب» تزرع في نفسي. وتقدَّم شاب صغير الى وسط المعبد، كان يحمل كتاباً كبيراً، ينوء بحمله لشدَّة ثقله. وضع الفتى الكتاب على منضدة التراتيل؛ ثم فتحه وأخذ يقرأ. فهمت في ذلك اليوم، لأول مرة في حياتي، ما يُقرأ في الكنيسة.

«كان يعيش في أرض عوص رجل تقيّ صالح يملك ثروات طائلة، ونوقاً لا

حصر لها، وقطعان خراف وحمير. وكان أولاده سعداء، وكان يحبهم كثيراً، ويصلّي من أجلهم للرب فيقول: قد يكون ابنائي قد ارتكبوا خطيئة ما في أوقات احتفالاتهم؟ ذلك أن إبليس قد مثل يوماً أمام الرب مع ابنائه، وقال له إنه طاف الأرض كلّها وما تحت الأرض. فسأله الرب: «هل رأيت عبدي أيوب؟» وتباهى الرب أمام ابليس بقداسة عبده العظيم أيوب. ولكن ابليس ضحك وأجاب: «مكّني منه فترى أنه سيعصيك وسيلعن اسمك». فمكن الرب ابليس من عبده الأمين الذي كان يُحبُّه كثيراً، فضرب الشيطان قطعانه وأولاده، ودمّر ثرواته، كأن صاعقة من عند الله قد نزلت عليه. مزّق أيوب ثيابه، وارتمى على الأرض صائحاً: «لقد خرجت من بطني أمي عاريا، وعارياً سأعود الى الأرض، وهب الرب لي كل شيء، والرب يسترد ما وهب. تبارك اسم الرب، الآن وفي كل حين».

يا آبائي ومعلمي، سامحوني إذا رأيتموني أسكب العبرات في هذه اللحظة. إن طفولتي تنبثق الآن أمامي، حتى ليخيّل اليّ أنني أتنفس كما كنت أتنفس في طفولتي بذلك الصدر الصغير، صدر الطفل الذي لم يتجاوز السنة الثامنة من عمره. إن ذلك الانفعال نفسه الذي أحسست به يومذاك يغزوني في هذه اللحظة، فاذا أنا مندهش مفتون كما كنت مندهشاً مفتوناً في ذلك اليوم البعيد في الكنيسة. لقد أحدثت تلك النوق تأثيراً قوياً في خيالي، وأذهلتني قصّة الشيطان من عبده الأمين، وكذلك هتاف العبد مخاطباً ربه: «تبارك اسمك، رغم أنك تعاقبني». ثم تصاعدت أدخنة البخور، وركع المصلّون. ومنذ ذلك الحين أصبحت لا أستطيع أن أقرأ تلك القصة المقدسة ـ وقد حدث لي هذا أمس هنا ـ فانسكبت الدموع من عيني. ما أروع العظمة والسر الخارقين اللذين ينبعان من هذا النص! لقد اتفق لي أن سمعتُ نقداً له من أناس لا يُحبُّون الدين ويسخرون منه: «كيف يمكّن الرب الشيطان من قدّيسه الأثير، فيستهزئ الشيطان بالقدّيس، ويخطف أولاده، ويُرسل اليه الأمراض، ويغطّي جسمه بالجروح، حتى صار يزاح القبح عن قروحه بقطعة من فخار؟ أكلُّ هذا من أجل أن تباهي الرب أمام الشيطان قائلاً: «انظر ماذا يستطيع أن يتحمّله احد أوليائي الصالحين في سبيلي!»

لقد غاب عن هؤلاء النقّاد أن عظمة هذه القصة إنّما هي في السر الذي يتأكّد فيها! إن مظاهر الحياة الأرضية تشترك في هذه القصة مع الحقيقة الأبدية التي لا ندركها. وان فعل الحقيقة الأبدية يتجلّى في الواقع على الأرض. إن الخالق في هذه القصة يتصرّف كما تصرّف في الأيام الأولى من الخلق حين قال إنه أبدع فيما صنع. إنه ينظر الى أيوب ويمدح خلقه. وأيوب الذي يمجّد الرب لا يخدم الرب وحده، بل يخدم الخليقة أيضاً، من جيل الى جيل، والى الابد، لأنه خُلق لذلك.

ربّاه ما أروعه سفراً، وما أروعها تعاليم! ما أعظم الكتب المقدسة، وما أكبر تلك القوّة العظيمة التي توقظها في الانسان! لكأنها صورة الكون والانسان نفسه. كل شيء قد قيل فيها وأُعلن لقرون. ما أعظم الاسرار التي تكشف عنها وتفسّرها! إن الرب يُريد السعادة لأيوب، ويهب له ثروات جديدة؛ وتنقضي أعوام فيولد له أولاد آخرون يُحبُّهم أيضاً. ربّاه! قد يسأل متسائل: «فكيف استطاع أن يحبّهم وقد غاب أبناؤه الأوائل على غير رجعة؟ هل يمكن أن يشعر بأنه سعيد حقاً بين أولاده الجدد، مهما يكونوا أحبّةً في قلبه، اذا تذكّر أولئك الذين غابوا الى الأبد؟». الحقُّ أنه كان يستطيع أن يشعر بالسعادة، لأنه من اسرار الطبيعة الانسانية الكبيرة أن الآلام القديمة تهدأ بمرور الزمن، وتستحيل شيئاً فشيئاً الى أفراحٍ ساجية. إن الدم الذي يغلي في سن الشباب يفسح المجال في الشيخوخة للسكينة والهدوء. إنني أبارك في جميع الأيام طلوع الشمس، وإن قلبي يبتهج بشروقها كما كان يبتهج به في الماضي، ولكنني أوثر اليوم مجد الكوكب الغارب وأشعته المائلة التي توقظ في نفسي ذكريات بعيدة عذبة، وتحيي أطياف الحقيقة الالهية التي تجلب الهدوء والمصالحة والبراءة! سوف أموت، أنا أعرف ذلك وأفهمه، ولكنني أحس في كل يوم بأن الحياة ما تزال توهب لي، وأن حياتي الأرضية تندفع نحو حياة جديدةٍ، أبديةٍ، مجهولة، هي منذ الآن قريبة يملأ الاحساس بها نفسي طربا وعقلي نورا وقلبي فرحاً.

يا أصدقائي ومعلميّ! لقد سمعت من يقول مراراً، وأسمعه الآن أكثر من أي

وقت مضى، أن الكهنة، ولا سيّما كهنة الأرياف يشكون من دخلهم القليل، ووضعهم الاجتماعي السيّئ، قائلين: ـ وقد قرأت ذلك بعيني ـ أنهم أصبحوا عاجزين عن شرح الانجيل للشعب بسبب قلّة رزقهم. «اذا جاء اللوثريون او الهراطقة فأضلوا رعايانا، فليفعلوا ذلك، لأننا لا نجني من الرزق ما يكفينا». هكذا يقولون. إنني أسأل الرب أن يزيد من دخلهم الذي يحرصون عليه ذلك الحرص كله، لأن شكواهم لا تخلو من حق. ولكنني أقول مخلصاً: اذا كان هناك من نوجّه اللوم اليه، فإن نصف المشكله هي مشكلتنا. إنني أسلّم بأن رجل الدين في الريف مثقل بأعباء العمل، وليس في وقته من الفراغ ما يمكنه من الاهتمام بالشعب. ولكني أرى أن وظيفته وعمله لا يشغلانه الى الحد الذي يعجز فيه عن أن يخصص للرب ولو ساعة من وقته في الأسبوع. ثم إنه لا يعمل طوال السنة بلا انقطاع. فليجمع الاطفال مرّة في الأسبوع، والأفضل أن يكون ذلك في المساء، فإذا علم بذلك الآباء فسيجيئون هم أيضاً. لا حاجة الى بناء مكان خاص يعقد فيه هذا الاجتماع. ما على رجل الدين إلاّ أن يجمع الناس في منزله الفقير نفسه. وليس له أن يخاف، فإنهم لن يُفسدوا مسكنه! ما هي قيمة ساعةٍ واحدةٍ في الأسبوع؟ فليفتح التوراة المقدّسة فيقرأ لهم فيها بدون فصاحة مصطنعة، قراءة بسيطة طبيعية، مبتهجاً بأن الناس يسمعونه ويفهمونه، ممتلئاً بحب النص المقدس. وفي وسعه أن يتوقّف عن القراءة من حين الى آخر، ليشرح معنى كلمة لا يعرف معناها أبناء الشعب. وليكن على يقين من أنهم سيفهمون بسرعة، لأن الروح الارثوذكسية تحس الحقيقة احساساً سريعاً. إقرأ لهم القصص التي تروي حياة ابراهيم وسارة، اسحٰق وربيكا، ويعقوب الذي ذهب الى عند لابان، وقال بعد أن اصطرع مع الرب في الحلم: «هذا مكان رهيب»، إن هذه القصص ستمضي قِدماً الى القلب النقي، قلب البسطاء الذين لم تفسدهم الحياة بعد. يجب أن تقص عليهم، وعلى الأطفال خاصة، قصّة الفتى الجميل يوسف، النبي الكبير، مفسّر الأحلام، كيف باعه أخوته ثم زعموا لأبيهم أن وحشاً أكله، وأظهروا الدم لأبيهم على ثيابه تدليلاً على صدق قولهم.

فليشرح لهم كيف سافر اخوته بعد ذلك الى مصر طلباً للخبز، وكان يوسف قد أصبح فيها من عظماء رجال فرعون، ولكنهم لم يعرفوه، فاضطهدهم، واتهمهم وحبس بنيامين الفتى رغم ما يُكنه لهم من حب: «إنني أحبكم، وإني لاعذبكم وأنا أحبكم». ذلك لأنه لم يستطع أن ينسى اليوم الذي باعه فيه إخوته لأناس من تجّار العبيد، في سهل مقفر، قرب بئر، بينما كان يضرع اليهم باكياً يلوح بيديه أن لا يتركوه للعبودية في أرض غريبة. فلمّا رآهم بعد هذه الفترة الطويلة من الزمن أحس بحبه لهم ينبعث من قلبه، ولكنه عذّبهم بسبب تلك الذكرى المُرة، وتركهم أخيراً وانصرف، لأنه لم يعد قادراً على أن يحتمل العذاب في قلبه. وارتمى على سريره وأجهش باكياً؛ ثم جفف وجهه وعاد اليهم هادئ النفس مشرق المحيا وقال لهم: «يا اخوتي، أنا يوسف أخوكم». وليقرأ رجل الدين للناس تتمة القصة، كيف سُرَّ يعقوب حين عرف أن ابنه لم يمت، وكيف سافر هو أيضاً الى مصر، هاجراً الارض التي وُلد فيها، ومات على تراب غير تراب وطنه، تاركاً في وصيته أكبر وعد سيتحقق للإنسانية على مدى العصور، كاشفاً عن السر الذي كتمه طول حياته في قلبه المتواضع، ألا وهو الوعد الذي يبشّر الانسانية بأنه سيولد من نسل داوُد في يوم من الأيام أمل العالم، وهو المسيح المخلص.

يا آبائي ومعلّميّ! اغفروا لي أنني أذكّركم، مثل تلميذ صغير، بأشياء تعرفونها منذ زمان طويل، ويمكنكم أن تعلمونيها بأحسن مما أفعل فناً وعلماً! لقد اندفعت مع الحماسة. واغفروا لي دموعي، لأنني أحب الكتاب المقدس. واذا استطاع الكاهن أن يبكي هو أيضا أثناء القراءة، فلسوف يرى مدى أثر ذلك في نفوس سامعيه. لأن بذرةً صغيرةً واحدة إذا بذرت في قلب البسطاء تكفي، ولن تموت وإنّما تعيش في نفوسهم وتظلُّ تثمر طوال حياتهم، من أعماق الظلمات والخطايا، نبعاً من ضياءٍ وذكرى ابدية. لا حاجة الى شروح طويلة، إن أبناء الشعب يفهمون الأمور ببساطة كبيرة. أتظنون أنّهم عاجزون عن ذلك؟ قوموا بهذه التجربة، اقرأوا لهم قصة أستير الرائعة وفاستي المتكبرة، أو اقرأوا مغامرة يونس في جوف

الحوت. ولا تنسوا كذلك أمثال الرب، كما وردت في كتاب القديس لوقا (وهذا ما كنت أفعله)، واقرأوا لهم من اعمال الرسل قصة إيمان الرسول بولس، فهذه القصة يجب أن لا تُترك جانبا، مهما كانت الظروف، واقرأوا لهم في كتاب الشهداء حياة ألكسي ولي اللّه، وكذلك حياة كبرى الشهيدات مريم القبطية. فلسوف ترون مدى تأثير هذه القصص البسيطة في قلوبهم! تكفي ساعة في الأسبوع، ساعةً واحدةً، رغم قلّة الراتب. فاذا ارتضى الكاهن بذلك هذا الجهد لم يلبث أن يُدرك أن شعبنا له نفسٌ كريمةٌ تعترف بالجميل، يَرُدُّ إليه معروفه مضاعفاً مائة مرة. لسوف يتذكّر نشاط الكاهن وقراءاته المؤثرة، فإذا هو يَهُبُّ من تلقاء نفسه الى مساعدته في أعماله في الحقل أو المنزل. ولسوف يمنحه احتراماً متزايداً؛ وهذه المزايا، مجتمعة، تساوي زيادة في الدخل، ذلك حل يبلغ من السهولة في الواقع الى حد أن المرء يخجل أحياناً أن يقترحه، مخافة أن يُضحك عليه. ومع ذلك فهذه الحقيقة. إن من لا يؤمن باللّه لا يومن بشعبه أيضاً. ولكن الذي لا يشك في شعبه، لن يلبث أن تتجلّى له قداسة روح الشعب، ولو لم تخطر على باله يوماً قبل ذلك. أن مثقفينا الملحدين، الذين أصبحوا غرباء عن الأرض التي انبتتهم، لن ينقذهم ولن يردّهم الى طريق الرشاد سوى شعبنا، وذلك بقوّته الروحية.

ما قيمة أقوال المسيح اذا لم يعزّزها المثل الصالح؟ إن الشعب يهلك ويفنى اذا لم تنجده الكلمة الالهية، لأنه ظامئ الى الحقيقة الدينية، والمثل الأخلاقي الرفيع.

في أثناء شبابي، منذ أكثر من أربعين عاما، طفت أرجاء روسيا بصحبة الأب أنفيم نجمع المعونات لديرنا الفقير. وتوقفنا ليلاً في احد الأيّام عند شاطئ نهر كبير من الأنهار الصالحة للملاحة، بين الصيّادين، فجلس الى جوارنا فتى مليح الوجه، هو فلاّح في نحو الثامنة عشرة من عمره، كان يتعجّل الالتحاق بعمله في الغد، لأنه سيقوم بجر سفينة تجارية. كان الفتى ينظر أمامه حالماً بعينيه الصافيتين الحلوتين. وكانت ليلةً حارةً، ومشرقةً مضيئةً من ليالي شهر تموز. وفي النهر

العريض تتصاعد أبخرة تحمل الينا طراوةً منعشة. وتظهر سمكة كبيرة فوق سطح الماء من حين الى حين، فتتلاطم الأمواج تلاطماً خفيفاً. سكتت العصافير، فكأن الطبيعة كلها تصلّي للّه صامتةً في هذا الهدوء من حولنا على الأرض والسماء. كنت وحدي ساهراً مع هذا الفتى. تحدّثنا عن جمال خلق اللّه وعن سرّه، عن الأعشاب والنمل والحشرات والنحل، عن جميع هذه المخلوقات التي تعرف طريقها جميعاً في هذا العالم، دون أن يكون لها ذكاء، فإذا هي بهذا العلم المعجز تشهد بعظمة صنع اللّه وتساهم في كل لحظة، بعملها المتواضع، في تحقيق الغايات العليا للخالق. فلاحظت أن قلب هذا الشاب اللطيف قد تأثّر تأثراً قوياً. وأسرّ اليّ بأنه يُحب الغابات وطيورها، لأنه كان هو نفسه يربّي الطيور ويعرف تغريد جميع أنواعها، ويعرف كذلك وسائل اجتذابها. قال لي: «لا شيء أروع من الغابة، وكل شيء في الطبيعة جميل».

فأجبته قائلاً: «هذا صحيح. كل شيء في خليقة اللّه رائع ومؤثّر، لأن كل شيء فيها حق. أنظر الى الحصان مثلاً، هذا الحيوان النبيل المتعلّق بالانسان والقريب منه، أو الثور الذي يخضع له ويطعمه ويعمل من أجله. ما أعذب هذه الحيوانات الأليفة، وما أكرم عاطفتها نحو أصحابها الذين كثيراً ما يضربونها بغير شفقة، ما ألطف الوداعة والثقة اللتين تتجليان في نظراتها! أليس هذا جميلاً؟ إنه لأمر مؤثّر في النفس أن تتذكر أن هذه الحيوانات بلا خطيئة، لأن كل ما في الكون بريء كامل إلاّ الانسان. لقد كان المسيح مع الحيوانات، قبل أن يأتي ليكون معنا».

فسألني الفتى: «الماذا؟ هل المسيح معها أيضاً؟».

فأجبته قائلاً: «لا بد أن يكون الأمر كذلك، ما دامت الكلمة للجميع. ان كل مخلوق، إن كل من تنفس، حتى أحقر ورقة من أوراق الأشجار، يشهد بعظمة الخالق ويسبّح بحمده. إن كل شيء في الطبيعة يندفع نحو المسيح، وينادي على غير شعور، لأنه يملك هذه الفضيلة السريّة، وهي أنه بغير خطيئة. أنظر في الغابة

الى الدب، المخيف الضاري ورغم ذلك فهو يمتلك شيئا من البراءة! قلت له هذا. وقصصت عليه أن دباً اقترب ذات يوم من قدّيس عظيم كان يعيش معتزلاً في حجرة وسط الغابة. فأشفق الناسك على الوحش الجائع، فهب الى لقائه بغير وجل، ومد اليه قطعة من خبز قائلاً: «كُلْ في سلام، وليكن المسيح معك»، فابتعد الوحش الضاري طائعاً دون أن يُلحق بالقديس أي أذى. تأثر الفتى تأثراً شديداً من أن الدُب انصرف دون أن يهجم على القديس ومن أن المسيح كان معه. وصاح يقول: «ما أروع هذا! وما أروع كل شيء في خلق الله!» وظل مُطرقاً مُفكراً خلال مدة طويلة، غارقاً في تأملات لطيفة وأحلام عذبة. رأيت أنه يفهمني، ثم استلقى قريباً مني ونام نوما هادئاً. بارك الرب في الشباب! صلّيت من اجله قبل أن أنام أنا أيضاً. ربي إبعث السلام والنور الى شعبك.

ذكريات سني الشباب للشيخ زوسيما قبل أن يصبح راهباً: المبارزة

لبثت في الكلية الحربية بسان بطرسبرج زمناً طويلاً يقرب من ثماني سنين. إن التربية التي تلقيتها في تلك الكلية قد كبتت في نفسي كثيراً من مشاعر الطفولة، ولكنني لم أنس تلك المشاعر حقاً. وفي مقابل ذلك أكسبتني أفكاراً وعادات جديدة جعلت مني أنساناً قاسياً وغريباً ويكاد يكون متوحشاً. وتعلّمت الى جانب اللغة الفرنسية آداب المجتمع والمجاملة.

وكنّا جميعاً ننظر الى الجنود الذين كانوا يخدموننا كالقطيع؛ وكنت أسبق من غيري في ذلك، لأنني كنت في كل أمر من الأمور أكثر تأثراً بالبيئة من سائر رفاقي. ولمّا أصبحنا ضباطاً كنا مستعدّين لأن نبذل حياتنا في سبيل شرف كتيبتنا، ولكننا كنا نجهل كل الجهل ما هو الشرف حقاً. ما من أحد منّا كان يملك أيّة فكرة عنه، فلو قيل لنا ما هو الشرف حقاً لرفعنا أكتافنا استخفافاً واحتقاراً. وكنّا نفتخر بما ننهمك فيه من سكر ومجون، ونندفع فيه من وقاحة واستهتار، ونكاد نعدُّه مجداً من الأمجاد. هذا لا يعني أننا كنّا اشراراً في قرارة أنفسنا، فلقد كان في هؤلاء الشباب خير طبيعي فطري، ولكنهم كانوا يسلكون سلوكاً سيئاً، وكنت أنا

في ذلك اسوأ رفاقي. وفي تلك الفترة استلمت ثروتي، فأخذت أعيش حياة الترف وعلى ما تشاء لي نزواتي، مندفعاً اندفاع الشباب.

والغريب هو أنني كنت أقرأ كثيراً. ورغم أنّي لم أفتح التوراة يوماً غير أنني لم أفارقها، وكنت أحتفظ بها قريبةً مني في تنقلاتي، كأنما كنت أنوي أن أقرأها «في يوم من الأيام وفي ساعة من الساعات، وفي شهر من الأشهر وسنة من السنين في المستقبل».

وبعد أربع سنوات من الخدمة، وجدت نفسي في مدينة «ك» التي كانت كتيبتنا تعسكر فيها. وكان الناس في هذه المدينة يتميّزون بالكرم والغنى، ويعيشون حياة فرحٍ وبهجة. وقد أحسنوا استقبالي لأنني مرح بطبيعتي. يضاف الى ذلك أنهم كانوا يعدّوني ثرياً، وذلك أمر يقدّره المجتمع قدراً عظيماً. وحدث لي هنا حادثٌ كان له أثرٌ حاسمٌ في مصيري. وحدثت اشياء كانت هي بداية كل شيء.

فقد تولّهتُ بحب فتاةٍ جميلةٍ ذكيةٍ نبيلةِ الخلق يتمتع أهلها باحترامٍ كبير، فهُم ينعمون بالثراء والنفوذ. وقد أحسن أهلها وفادتي. وأحسست ان الفتاة ليست غير مكترثة بوجودي، فالتهب خيالي من ذلك التهاباً شديداً. ولقد أدركت فيما بعد أنني لم أكن أحبها فعلاً، وإنّما كنت مفتتنا بذكائها وسمو طبعها ورفعة خلقها، وتلك أمور ما كان لها إلاّ أن تؤثّر في نفسي. وقد منعتني أنانيتي من خطبتها، اذ صعب عليّ أن أتنازل في مثل تلك السن من ريعان الشباب عمّا في حياة العازب الحرّة المتحلّلة من اغراءات. لذلك اقتصرت على بعض التلميحات الخفيّة، وأرجأت الخطوة الحاسمة الى ما بعد. وفي أثناء ذلك تلقّيت أمراً عسكرياً بالسفر مدّة شهرين الى مقاطعة أخرى.

وبعد عودتي، بعد شهرين، عرفت بأن الفتاة تزوّجت في غيابي رجلاً غنياً من أصحاب الأملاك في منطقة مجاورة، وهو أكبر مني سناً ولكنه ما يزال شاباً، وله صلاتٌ بالمجتمع الراقي في بطرسبرغ، وهذا شيء كنت افتقده. ثم إنّه عدا هذا رجلٌ لطيفٌ محبوبٌ جداً مثقفٌ جداً، على حين أن ثقافتي أنا كانت ناقصةً

نقصاً كبيراً. وبلغت من الاضطراب لهذا الحادث ما جعلني أتصوَّر أنني سأفقد صوابي. وكان أشدَّ ما آلمني أنني علمت أن الرجل خطيب الفتاة من زمن طويل. وحدث أن قابلته فعلاً في منزل أبيها مراراً دون أن يخطر ببالي شيء، من شدَّة ما أعماني غروري. وقد أحنقني هذا الأمر وأغاظني أكثر من أي شيء عداه. تساءلت: كيف؟ أيعلم ذلك جميع الناس إلاَّ أنا؟ وشعرت من ذلك بحقد شديد. شعرت بالدم يصعد الى رأسي حين تذكَّرت تصريحات الحب التي أوشكت أن أقولها لها مراراً. إن الفتاة لم توقفني بل تركتني أتكلَّم دون أن تنبئني بأنها مخطوبة. فاستنتجت من ذلك أنها كانت تسخر مني وتضحك عليّ. وقد فهمت فيما بعد أن الأمر لم يكن ذلك قط وتذكَّرت أنها، على خلاف ما توهمت، كانت تقاطعني في كل مرة مازحة، وتُغيِّر موضوع الحديث، غير أنني عجزت في ذلك الحين عن أن أحكم في الأمر حكماً سليماً صحيحاً، فكنت أحترق توقاً الى الانتقام. وإنِّي اتذكَّر الآن، بدون دهشة، أن ذلك الغضب والتوق الى الانتقام اللذين شعرت بهما كانا شاقَّين على نفسي، لأن خفَّة طبعي كانت لا تُتيح لي أن أظلَّ حاقداً على الناس مدة طويلة. فصرت أُظهر استيائي وحنقي بصورة مصطنعة من أجل أن أصبح أخيراً مندفعاً وغريباً.

ارتقبت فرصةً أنتقمُ فيها لنفسي، واستطعت في ذات مساء، بينما كنَّا في مجتمع غفير، أن أُهين خصمي في أمر لا علاقة له في الظاهر بشخصي. سخرت من رأيه في موضوعٍ حدث كان قد وقع وهز أفكار الناس كثيراً في ذلك العهد ـ كان ذلك في عام ١٨٢٦ ـ وكانت سخريتي ـ في رأي الحضور ـ مُحكمةً حاذقةً فكهة ـ ثم طلبت منه أن يصفِّي حسابه معي بمبارزتي، وبلغت من الفظاظة أثناء ذلك أنَّه لم يملك إلاَّ أن يقبل التحدِّي رغم كل ما بيني وبينه من فروق، فأنا أولاً أصغر منه سناً، وضابطٌ لا قيمة له، ثانيا في حين أنَّه يحتلُّ مركزاً اجتماعياً عالياً جداً، وقد علمت فيما بعد أن شيئاً من الغيرة قد دفعه الى قبول التحدِّي. فمن جهة، كان قبل ذلك الحين، قد استاء من ملازمتي لخطيبته؛ ومن جهة أخرى،

يخشى الآن، إذا علمت زوجته بأنه تحمّل اهاناتي دون أن يُبارزني، أن تحتقره على غير إرادة منها، وأن يتزعزع من ذلك حبُّها له. ولم ألبث أن عثرت على شاهد لي بغير عناء، وهو رفيق من رفاقي كان ملازماً في كتيبتي نفسها. ولقد كانت المبارزات رائجةً جداً بين الضبّاط في ذلك الزمان، رغم أنها محظورةٌ جداً، وهذا يدل على مدى ترسيخ الأحكام الاجتماعية الباطلة في النفس الانسانية.

كنّا في أواخر شهر حزيران، وحدّد الغد موعداً للّقاء، في الساعة السابعة من الصباح على أرض مهجورةٍ خارج المدينة. ووقع لي في ذلك المساء حادث لا أستطيع إلاّ أن أعدّه تدخلاً من القدر. فحين عُدت الى مسكني في ساعةٍ متأخرةٍ من الليل مهتاجاً اهتياجاً شديداً، ثرت على الجندي الذي يخدمني، واسمه افانازي، ثورة شديدة، وصفعته بكل قوّتي مرّتين، حتى أخذ الدم يسيل من وجهه. إن افانازي يخدمني منذ زمن طويل، وسبق أن ضربته من قبل، ولكنني لم أضربه بوحشية حيوانية كهذه المرة. صدّقوني يا أصدقائي الأعزاء إذا قلت لكم: إنني ما زلت الى اليوم، بعد أكثر من أربعين عاماً، لا أتذكّر سلوكي حينذاك إلاّ وأشعر بخزيٍ وعار. ورقدت زهاء ثلاث ساعات. فلمّا استيقظت كان الصبح قد تنفس، فأسرعت ارتدي ملابسي لأن النوم قد طار من عينيّ، واقتربت من النافذة ففتحتها. إن النافذة تطل على الحديقة وقد أخذت الشمس تطلع في الأفق. والجو هادئ جميل، والعصافير تغرّد.

سألت نفسي: «لماذا هذا الاحساس الغريب في قلبي بالخزي والعار والاشمئزاز؟ هل لأنني سأقتل انساناً؟ لا... يبدو أن هذا ليس هو السبب. هل أكون خائفاً من الموت أخشى أن أُقتل؟ لا، لا، ليس هذا هو السبب أبداً...» وفجأة أدركت علّة ذلك الضيق الذي كنت أشعر به: لقد كنت أُحسُّ بعذاب في ضميري لأنني ضربت افانازي في الليلة الماضية. تراءى لي المشهد بجميع تفاصيله على حين بغتة، كان افانازي واقفاً أمامي، منتصب القامة، مرفوع الرأس، جاعلاً يديه الى اسفل، وأنا أهوي على وجهه بالصفعة تلو الصفعة بكل ما أوتيت من

قوة. وكان هو يحدّق أمامه كأنه في استعراض عسكري، ولا يجرؤ أن يرفع ذراعه ليحمي وجهه رغم أنه يرتجف عند كل صفعة. أنظروا الى أي حالة يمكن أن يصل الإنسان! كيف يستطيع إنسان أن يرضى بضرب أخيه الانسان؟. يا لها من جريمة! شعرت كأن سكيناً تنفذ في جسمي. إنني أرى الآن كيف كنت واقفاً أمام النافذة مشدوهاً مصعوقاً. كانت الشمس في الخارج تتلألأ، وكانت عصافيرٌ صغيرةٌ تغرّد ببراءةٍ مسبحةً بحمد الرب... هأنذا أُخفي وجهي بيديَّ على حين فجأة، وأرتمي على سريري باكياً منتحباً. لقد عاودتني في تلك اللحظة ذكرى أخي ماركل، وخطرت ببالي الكلمات التي قالها للخدم قبل موته بقليل: «يا أصدقائي الطيبين، ماذا فعلت حتى أستحق أن تخدموني؟ ما الذي يجعلني جديراً بمحبتكم؟ هل انا جدير بأن تخدموني؟».

وحاصرت هذه الفكرة عقلي فجأة. فأخذت أتساءل: «لماذا يجب على إنسانٍ شبيهٍ بي، إنسان خُلق مثلي على صورة اللّه، أن يكون خادمي؟ ما الذي جعلني جديراً بذلك؟». لقد طرحت على نفسي هذا السؤال لأول مرة في حياتي. «أُماه، يا حملي الوديع، إن كل إنسان مرتكب جميع الذنوب في حق جميع الناس... البشر لا يعرفون هذا... ولو ارتضوا أن يعترفوا به لأصبحت الأرض جنّة منذ الآن».

تساءلت من خلال دموعي: «أيجوز حقاً يارب أن أكون مرتكباً جميع الذنوب، وأن أكون أكبر الناس إثماً؟ إنني اذن لأسوأ الناس طراً». وتراءت لي الحقيقة فجأةً في ضياءٍ باهر! ما الذي كنت أريد أن أفعله؟ أن أقتل إنساناً طيباً نبيل الخلق، لم يمسسني بسوء ولم يُلحق بي أذى، وأن أحرم زوجته من السعادة الى الأبد، فأسلمها للعذاب وأدمّر روحها! وكنت أثناء استسلامي لهذه التأملات راقداً على سريري، دافناً وجهي في الوسائد، لم الاحظ أن الوقت كان ينقضي. وها هو ذا رفيقي الملازم يظهر في غرفتي فجأةً حاملاً اليَّ المسدسات، وقال:

ـ أنهضتَ من نومك؟ أحسنت ... ما يزال في الوقت متسع هيا بنا!

اضطربت، ولم اعد أعرف ماذا أفعل، لكنني تبعته؛ وفيما كنا نوشك أن نركب العربة التي كانت تنتظر أمام المنزل، عدلت عن الركوب فجأة، وقلت لرفيقي:

ـ انتظرني لحظة، أنا عائد الى البيت لأحضر محفظة نقودي التي تركتها فيه.

وأسرعت قدماً الى الغرفة الصغيرة التي يسكنها خادمي الجندي، قلت له:

ـ افانازي، لقد صفعتك على وجهك مرتين أمس، سامحني!

ارتعش حين سمع كلامي كأنه قد خاف. وشعرت عندئذ أن ذلك ليس كافياً، وأن محاولتي لا تتناسب والأذى الذي ألحقته به، فإذا أنا أخضع فجأة لاندفاعة مباغتة فأرتمي على قدميه بملابسي الفخمة حتى لامست جبهتي الارض.

وقلت له صائحا: سامحني.

بدا افانازي مصعوقاً، وأخذ يقول:

ـ يا سيِّدي ... يا مولاي... ماذا تفعل؟... أنا لست جديراً بهذا...!

وأخذ يبكي هو نفسه، كما بكيت أنا منذ قليل، دافناً وجهه في يديه. واستدار نحو النافذة، وهو يرتعش غارقاً بالدموع. وهرعت ألحق برفيقي الملازم الذي كان ينتظرني في العربة. ثم صحت أقول:

أنا جاهز، ثم أضفت قائلا: «هل سبق وأن شاهدتَ منتصراً؟ إنه أمامك!»

كنت أشعر بحماسةٍ شديدة، وبقيت أضحك واتكلم دون انقطاع أثناء الطريق، لا أدري ماذا قلت!

ونظر إليّ راضياً مرتاحاً، وقال لي: حسناً يا اخي، أرى أنك شجاع! لسوف تشرّف كتيبتنا العسكرية.

ووصلنا الى المكان، ووجدناهم ينتظرون هناك. وقفنا أنا وخصمي على بعد اثنتي عشرة قدماً. وكان عليه هو أن يطلق النار أولاً. وقابلته فرحاً، وأنا أنظر الى

وجهه. لم تطرف عيني، نظرت اليه بعطف، لأني كنت واثقاً مما سأفعله. أطلق النار. خدشت الرصاصة خدي خدشاً خفيفاً ولامست أذني ملامسة.

صحت أقول: حمدا للّه! أنك لم تقتل أخاك. ثم تناولت مسدسي فرميته ورائي في اتجاه الغابة.

قلت: هذا ما أفعله بالمسدس.

ثم التفت الى خصمي وقلت له:

إغفر لي أنني أسأت اليك بغير سبب لطيشي وخفتي، ثم أجبرتك على أن تطلق عليّ النار. إنني لا أساويك ولا أعدلك، فأنت خيرٌ منّي عشر مرات، وربما أكثر من ذلك. قل هذا على لساني للإنسان الذي تقدّره أكثر من أي إنسان آخر في هذا العالم.

فما أن نطقتُ بهذه الكلمات حتى أخذ الثلاثة يصرخون .

قال خصمي وقد بدا عليه شيءٌ من الغضب: ما معنى هذا؟ ما كان ينبغي أن تزعجني إذا لم تكن تنوي أن تقاتل.

فأجبته قائلاً بمرح: لقد كنت حتى الأمس غبياً أحمق، لكنني أصبحت ذكياً عاقلاً بعد ذاك.

فقال: أما انك كنت بالأمس غبياً أحمق، فهذا أمر أسلّم به؛ وأما بالنسبة لليوم فإنه من الصعب أن أتّفق معك على ذلك.

قلت وأنا أصفق بيدي: مرحى! إنني أوافقك على ما تقول. إني استحق هذا الكلام.

قال ملحاً: هل أنت عازمٌ على أن تطلق النار يا سيدي أم لا؟

فأجبته: كلا لن أفعل. ولك أن تُطلق مرة ثانية إذا كنت تحرص على ذلك، ولكنك تحسن صنعاً اذا أنت لم تطلق.

اضطرب الشاهدان، ولا سيّما صاحبي... كيف تجرؤ على أن تلطخ شرف كتيبتنا بالعار؟ أتطلب الصفح وأنت على أرض المعركة؟ آه... ليتني تنبأت بهذا!...

وقفت مواجهاً لهم جميعاً وقد كففت في هذه المرة عن الضحك، وقلت:

«سادتي، إنه جميل حقاً أن يوجد في أيامنا هذه رجل يستطيع أن يندم على خطيئة ارتكبها، وأن يعترف بها أمام الناس؟»

فصاح شاهدي يقول من جديد: ولكن هذا لا يكون على أرض القتال.

فاستأنفت كلامي قائلاً:

أهذا ما يدهشكم إذن؟ لقد كان يجب عليّ في الواقع أن أعتذر اليه منذ وصلت، قبل أن يُطلق علي النار، وذلك لأجنّبه ارتكاب خطيئةٍ قاتلة. ولكن من المؤسف أننا قد نظّمنا حياتنا على تصوُّرات تبلغ من السخف أنه كان يستحيل عليّ أن أفعل ذلك، إذا أنا اعتذرت اليه. فبعد أن أطلق علي النار من على بعد اثنتي عشرة قدماً؛ كان من الممكن أن يحمل كلامي المعنى اليه، ولو تكلّمت قبل ذلك قبل أن يُطلق النار عليّ لقال: إنّه جبان، لقد اخافهُ منظر المسدسات، إنه غير جدير بأن يسمع كلامي. ثم صرخت فجأة، أنحدّث من كل قلبي: أيها السادة! تأمّلوا خلق اللّه من حولكم، السماء الصافية، والهواء النقي، والعشب الطري، والطيور المغرّدة! إن الطبيعة تنبسط أمامكم رائعةً بغير خطيئة. ونحن وحدنا، معشر الأغبياء الأدنياء، لا نستطيع أن نرى أن الحياة جنة. يكفي أن نعقد النيّة على أن نعرف هذه الحقيقة حتى يبدو لنا العالم فوراً بكل سنائه وبهائه وجماله. ألا فلنتعانق ولنبك.

كنت على وشك أن أقول المزيد، ولكنني أمسكت وقد انقطعت أنفاسي. شعرت بانفعالٍ شديدٍ لذيذ، كان قلبي يفيض سعادةً لا عهد لي بمثلها من قبل.

قال خصمي: كلامك فيه عقل وشرف... لا شك في أنك إنسان أصيل.

فأجبته ضاحكاً: إسخر مني الآن، ولكنك ستطربني في المستقبل.

قال: بلى أنا مستعد لأن أثني عليك منذ الآن. إسمح لي أن أمدّ اليك يدي، لأنك فيم يبدو لي إنسانٌ صادقٌ جداً.

قلت: لا... لا تمدد لي يدك الآن... وانما تمدُّها لي في المستقبل، بعد أن أصلح نفسي وأستحق تقديرك... يومئذ تصافحني وتكون على حق اذا صافحتني.

وعدنا الى المنزل. كان شاهدي لا ينفك يقرعني في العربة. أما أنا فكنت أقبّله. وما أن علم رفاقي بما حدث حتى اجتمعوا ليحكموا عليّ في نفس اليوم.

قال بعضهم: لقد لطّخ شرف كتيبتنا العسكرية بالعار، فعليه أن يستقيل.

ودافع بعضهم عنّي قائلاً: ولكنه صمد أمام اطلاق النار عليه دون أن يختلج.

فقال الآخرون: غير أنه جبن بعد ذلك، وخاف استئناف تبادل الرصاص، فطلب المغفرة.

فأجاب المدافعون عني قائلين: لو أنه خاف لأطلق النار أولاً قبل أن يعتذر، أما وأنه رمى مسدسه في الغابة محشواً بالرصاص، فهذا دليل أن الأمر ليس كذلك، وإنما هو رجل من نوع آخر، رجلٌ اصيل.

وكنت أُصغي وأنظر اليهم، وكانت أقوالهم تملؤني فرحاً، ثم قلت لهم آخر الأمر: «يا أصدقائي ورفاقي الاعزاء! لا يقلقكم أمر استقالتي، فقد أرسلتها الى المكتب هذا الصباح، وسأدخل الدير متى قُبلَت الاستقالة... إن هذا هو هدف استقالتي.»

فما أن سمعوا هذه الكلمات حتى انفجروا يضحكون ضحكاً صاخباً.

كان ينبغي أن تقول هذا من قبل. اتّضح الآن كل شيء. لا نستطيع محاكمة راهب.

كان رفاقي يضحكون دون توقف، إنهم يضحكون وهم يشعرون نحوي بشيء من العطف والحنان. ومنذ تلك اللحظة أصبحوا جميعاً يُظهرون لي المحبة والمودة، حتى أقساهم حكماً عليّ. واحتفلوا بي في الكتيبة طوال الشهر الذي انقضى بين تقديمي الاستقالة واحالتي على التقاعد. كانوا يقولون: هذا راهبنا. وأصبح كل واحد منهم يخاطبني بأقوال لطيفة، محاولاً أن يصرفني عما عزمت، بل و مشفقا عليّ. لماذا تفعل هذا بنفسك؟

لا بل إنه شجاع. لقد جابه اطلاق النار عليه وكان في وسعه أن يرد، ولكن لا شك أنه رأى في منامه حلماً أثناء الليلة التي سبقت، بأن عليه أن يصبح راهباً، ولهذا السبب فعل ذلك.

وكان الأمر كذلك بين الناس في المدينة أيضاً. كان الناس في الماضي يُحسنون استقبالي ولم اكن موضع اهتمام خاص. أما بعد ذلك الحادث فقد أصبحوا يهتمون بي جميعاً. انهمرت علي دعواتهم الى ولائم يقيمونها لي. صحيح أنهم يسخرون قليلاً من قراري، ولكنهم يحبُّونني. ويجب أن أذكر أن السلطات قد أهملت حادث مبارزتنا، رغم أن خصمي يمت بصلة قربى لجنرالنا. ثم إنه لم يتم قتل احد ولم تكن هنالك عواقب وخيمة، وقد استقلت، لذلك عُدَّت المغامرة أشبه بالنكته. وقد تجرأتُ فقررت أن أعبِّر عن آرائي بغير تحرُّج، رغم سخرية أبناء المجتمع الراقي التي لم تكن سخريةً خبيثة. وكانت الاحاديث تجري عادة في المساء، بحضور السيدات، لأن اهتمام النساء بي كان أكبر من اهتمام الرجال، فكان يحلو لهن أن يُصغين الى كلامي.

كنت أُسأل بلهجة ساخرة: كيف تزعم أنني مرتكب جميع الذنوب في حق جميع الناس؟ هل أنا الذي اقترف أخطاءك مثلاً؟

فكنت أجيبهم بقول: لا تستطيعون أن تُدركوا هذه الحقيقة اليوم، لأن المجتمع قد سار منذ زمانٍ بعيدٍ في طريق الخطأ، فرفع الكثير من الاخطاء الى مصاف الحقائق، وطلب من أفراده أن يأخذوا بهذه الأحكام. هذا أنا مثلاً: أردت

مرة في حياتي أن أتصرّف بصورةٍ صادقة، فإذا أنا أصبح في نظركم رجلاً ملوّث العقل. ورغم أنكم تُظهرون محبّتكم لي، فإنكم تظلُّون تسخرون مني.

قالت سيّدة المنزل ضاحكة: كيف يمكن أن لا يُحب فتى مثلك؟ كان الجمع غفيراً جداً في ذلك المساء، ولمحت فجأة، بين السيدات الحاضرات، تلك المرأة التي بسببها أردت أن أبارز، والتي كنت أحلم أن تكون خطيبتي قبل ذلك بقليل. لم أكن قد لاحظت وصولها. وها هي تنهض وتدنو مني وتمد الي يدها وتقول:

إسمح لي أن أقول لك إنه لا يخطر ببالي لحظة أن أسخر منك. بالعكس: إنني لأحرص على أن أُعرب لك عن شكري الخالص واحترامي للسلوك الذي سلكته في ذلك الظرف.

وجاء اليّ زوجها أيضاً، وتبعه سائر المدعوين. كادوا يقبّلونني جميعاً. اجتاح الفرح نفسي. ولاحظت خاصةً، بين الأشخاص الذين أظهروا لي مودتهم وعاطفتهم، سيداً متقدماً في السن بعض الشيء، كنت أسمع عنه منذ زمن، ولكنني لم أقدم إليه، فلم أخاطبه قبل ذلك المساء بكلمةٍ واحدة.

الزائر العجيب:

كان يشغل منصباً هاماً في مدينتنا منذ سنين طويلة. إنه شخص مرموق، غني، يتمتع باحترام عام، اشتهر ببرّه واحسانه. فقد وهب لملجأ الفقراء ولمأوى الايتام مبالغ طائلة، وكان عدا ذلك يساعد عدداً كبيراً من الفقراء، متخفياً متكتماً، حتى إن ذلك لم يُعرف إلاّ بعد موته. انه يبلغ الخمسين من العمر، قليل الكلام ويوشك مظهره أن يعبّر عن القسوة. تزوّج منذ عشر سنين فقط، ولا تزال امرأته شابة، وله منها ثلاثة اولاد كانوا صغاراً في ذلك الحين. كنت أجلس في منزلي وحيداً في إحدى الامسيات، فإذا بالباب يُفتح فجأة، وإذا بي ارى هذا السيّد يدخل علي.

يحسن أن أذكر هنا أنني كنت قد غيّرت مسكني، فإنني بعد احالتي على

التقاعد قد استأجرت غرفةً في دار امرأةٍ عجوز. هي ارملةُ احد الموظفين، وكانت خادمة هذه العجوز تقوم على خدمتي. والحق أنني تركت منزلي القديم في يوم المبارزة نفسه، فما أن رجعت الى منزلي في ذلك الصباح حتى صرفتُ افانازي وارسلته الى الثكنة، لأنني أصحبت لا اجرؤ أن أنظر اليه بعد الذي حدث بيننا. انظروا الى مدى هيمنة الافكار السائدة على انسان من ابناء المجتمع، لم يتهيأ للحياة الروحية الاخلاقية! إن هذا الانسان يمكن أن يحمرَّ خجلاً حتى من أنبل الافعال وأجدرها بالاحترام.

قال لي هذا السيِّد: لقد أتيح لي أن أسمعك عدَّة مرات في منازل الاصدقاء، فكنت أصغي الى كلامك باهتمام عظيم في كل مرة. وإنني أحبُّ أن أحظى بمعرفتك واتحدَّث معك بمزيد من التفصيل. فهل تمن عليَّ بهذا الفضل؟

أجبته قائلا: هذا يسرُّني أعظم السرور، وهو شرف كبير لي. ومع ذلك فقد شعرت بشيء من القلق، رغم أن ظهور هذا الرجل كان له اثرٌ كبير عليَّ من الوهلةِ الاولى. صحيح أنني كنت قد ألفت أن يكون لي مستمعون كثيرون، وأن هؤلاء المستمعين كانوا في كثير من الاحيان يُصغون الى كلامي باستطلاع واهتمام، ولكن ما من احد منهم قد واجهني حتى ذلك الحين بهيئة فيها هذا الجد والنفاذ كله. اضف الى ذلك أن الرجل قد جاء الى بيتي بنفسه.

قال لي بعد أن جلس: «لقد تبيَّنت فيك قوَّة خلقيةً كبيرة، لأنك لم تخش أن تخدم الحقيقة في الظرف الذي تعرَّضت فيه لاحتقار الجميع».

فأجبته: لعلَّك تقدِّرني فوق قدري في هذه القضية.

فقال: «لا، إن القيام بعمل كهذا، أصعب مما تظن»، وتابع يقول: «لقد أثَّر سلوكك في نفسي تأثيراً قوياً، وهذا هو السبب الوحيد الذي دفعني الى زيارتك. أحبُّ لو أسألك أن تصف لي، ما لم تر ذلك فضولاً مني في غير محلِّه، ما شعرت به لحظة قرَّرت أن تعتذر اليه عند المنازلة، اذا كنت تتذكر مشاعرك.

أرجو أن لا تعزو سؤالي هذا الى طيش مني، فهناك اسباب خفيّة تدفعني الى القاء هذا السؤال عليك، وسأشرح لك هذه الاسباب إذا شاء اللّه أن يقرّب بيننا».

كنت اثناء استرساله في هذا الكلام أنظر اليه بانتباه، فشعرت فجأة باطمئنان وثقة به، وشعرت أنا أيضاً باستطلاعٍ قوي، لأنني قدّرت أن في حياته سراً.

قلت له: قبل أن أذكر لك ما شعرت به اثناء اعتذاري الى خصمي عند المبارزة، أحسب أن من المفيد أن أروي لك كيف تسلسلت الاحداث منذ البداية تسلسلاً لا يعرفه أحد الى الآن. وأطلعته على ما وقع لي مع افانازي، ورويت له كيف أنني سجدت أمامه، وقلت أختم كلامي: تستطيع أن تفهم بعد هذا أن موقفي في لحظة المبارزة كان سهلاً، لأنني كنت قد رجعت الى الاحساس بالحقيقة وأنا في منزلي، فلمّا سرت في هذا الطريق، لم يكن عليّ إلاّ أن أتابع المضي فيه، وسلوكي بعد ذلك لا يتصف بأنه لم يكلّفني أي عناء فحسب، بل كان مصحوباً باحساسٍ بالسعادة والفرح.

أصغى الرجل الى كلامي بانتباه، وعبّرت نظرته اليّ عن مودّةٍ كبيرةٍ وحبٍّ عظيم، فقال: هذا كله شائقٌ جداً، وسأعود اليك لاتحدّث معك مراراً.

وأصبح يأتي اليّ كل مساء تقريباً. وكان يمكن أن تتوثّق بيننا عرى الصداقة، لو أنه حدّثني عن نفسه أيضاً. ولكنه لم يكد يفضي اليّ بشيء عن حياته، وكان لا يزيد على أن يسألني عن حياتي أنا. ومع ذلك فقد أحببته كثيراً، وفتحت له قلبي، قائلاً لنفسي إنني في غير حاجة ألبتة الى معرفة سره، وحسبي أن أعلم أنه رجل جيّد. وأرضاني أن أرى رجلاً اكبر منّي سناً، يبلغ هذا المبلغ من الجد، لا يحتقر صحبة شابٍ مثلي، بل يجيء اليه في منزله... وقد تعلّمت منه اشياء هامةً كثيراً، لأنه كان على جانب كبير من الذكاء.

قال لي فجأة ذات يوم: أمّا أن الحياة جنّة، فذلك ما أفكر فيه منذ زمان طويل. وسرعان ما أضاف: بل إنني لا أفكر إلاّ في هذا. ونظر اليه مبتسماً. حتى

إنني أشدُّ اقتناعاً بذلك منك، لاسباب ستعرفها فيما بعد. كذلك أضاف يقول بعد قليل.

وقدّرت وأنا أصغي اليه، أنه ربّما كان يريد أن يُفضي اليَّ ببعض اسراره.

واستأنف كلامه قائلاً: «إن كلاً منا يحمل في نفسه جنة مدفونة. إن هذه الجنة قائمة في نفسي وإن تكن مختبئة. واذا شئت، استطيع أن اجعلها تظهر منذ اليوم فاحتفظ بها طوال حياتي».

كان يتكلم بشيء من الانفعال، ورأيت في نظرته المركّزة علي، ما يشبه التساؤل.

وتابع كلامه يقول: صحيح أن كل انسان يرتكب الذنوب في حق كل الناس، هذا عدا خطاياه الخاصة. تلك حقيقة كبرى عبَّرت عنها، ويدهشني أنك استطعت أن تكتشفها كاملةً، دفعةً واحدة. ومن المحقق أن ملكوت السموات سيكون واقعاً لا حلماً فحسب، في اليوم الذي تفهم الانسانية فيه هذه الحقيقة.

فهتفت أقول بمرارة: متى يحدث هذا؟ هل سيأتي هذا اليوم حقاً؟ اليس ذلك حلماً من الاحلام ليس أكثر؟

ألا تؤمن بهذا اذن؟ أتبشّر بالحقيقة ثم تستسلم للشك؟ ألا فاعلم أن ما تسمّيه أملاً سيتحقق لا محالة. كن مع ذلك على ثقة! على أن هذا لن يتحقق اليوم، لأن لكل عمل قوانين خاصة به، إنها عملية روحية نفسية. لن يكون من الممكن أن يتبدل العالم ما لم يكتسب البشر روحاً جديدة، وما لم يتّجهوا في طريق جديد من الناحية النفسية. لن يكون على الارض إخوة ما لم يشعر البشر بأنهم إخوةٌ حقاً. لن يستطيع العلم ولا المصالح المشتركة أن تعلّم البشر في يوم من الايام أن يقتسموا ثرواتهم بالعدل. سيجد كل واحد أن نصيبه أصغر مما يستحق، وسيسود الحسد والحقد، فيدفعان البشر الى أن يفني بعضهم بعضاً. تسألني متى يتحقق ملكوت السموات على الارض، فاعلم انه سيتحقق على الارض في يوم من الايام، ولكن ليس قبل انتهاء عهد العزلة.

فسألت: أيّة عزلة تعني؟

ـ العزلة التي يعيش فيها البشر، وتتجلّى في جميع الميادين، ولا سيّما في عصرنا هذا. إن عهد العزلة هذا لم ينته، حتى إنه لم يصل الى ذروته. إن كل إنسان في هذا العصر يعمل جاهداً من اجل أن يتمتع بالحياة بصورةٍ كاملة بصورةٍ فردية. ولكن هيهات أن تؤدّي هذه الجهود الى التمتُّع بالحياة، فهي لا تقود إلاّ الى الدمار الكامل، وبدلاً أن تؤدّي الى تحقيق الاهداف، فإنها تؤدّي الى عزلة خانقة، لقد انحلّ المجتمع في عصرنا الى مجموعاتٍ صغيرة تعيش كل منها في كهف مثل الوحوش، ويهرب بعضهم من بعض، ولا يفكّرون إلاّ في أن يخفوا ثرواتهم. وهم يصلُون من ذلك الى أن يكره بعضهم بعضاً، والى أن يُصبحوا جديرين بالكره هم ايضا. إنّ الإنسان يكدّس الخيرات فوق الخيرات في العزلة، وتسرُّه القوة التي يحسب أنه يملكها، قائلاً لنفسه إن حياته قد أصبحت بذلك مؤمّنة، ولكنه لا يرى لحماقته، أنّه كلّما أوغل في التكديس، غاص في العجز والدمار. ذلك أنه يعتاد على أن لا يعتمد إلاّ على نفسه، ويفقد ايمانه بالتعاون، وينسى في عزلته القوانين التي تحكم الإنسانية، وينتهي من ذلك الى أن يرتعد في كل يوم خوفاً على ماله الذي أصبح فقدانه يحرمه من كل شيء. غاب عن البشر تماماً في ايامنا هذه أن الأمن الحقيقي في الحياة لا يتحقق بالعزلة، وإنّما باتحاد الجهود والتنسيق بين الاعمال الفردية. ان عهد العزلة الرهيب هذا سينتهي حتماً في يومٍ من الايام، وسيفهم البشر فجأةً مدى تناقض العزلة مع طبيعتهم الحقيقية، وستهبُّ على الانسانية يومئذ نفحةٌ جديدة، ويتساءل الناس بدهشة يومئذ: كيف أمكنهم أن يعيشوا طوال هذه الفترة في ظلام لا يرون النور؟ وعندئذ سوف تظهر علامة ابن الإنسان في السماء. . . والمهم أن نحافظ على علامته مرفوعة الى أن يأتي ذلك الحين، وأن نحاول، ولو بالقدوة الفردية، اخراج النفس من عزلتها، بزرع المحبّة الاخوية دون أن نخشى اتهامنا بالغباء. يجب أن لا ندع هذا الامل الكبير أن يموت.

ومضت الليالي على هذه الصورة في احاديث مثيرةٍ يملأها الحماس. وأصبحت أُهمل مجتمع المدينة شيئاً فشيئاً، وأصبحت لا استجيب لدعوات الجيران إلاّ قليلاً. ثم إن الحماسة لي كانت قد بدأت تزول. ولست أقول ذلك لائماً ولا عاتباً، لأن الناس ظلُّوا يحبونني ويُحسنون معاملتي. ولكن يجب ان نعترف بأن العادة تلعب في المجتمع دوراً كبيراً. أمّا زائري العجيب فقد أصبحت أحمل له مع مرور الزمن إعجاباً شديداً. كنت أشعر أمام ذكائه بنشوةٍ قويةٍ ووجدٍ عظيم، وكنت أحس أنه يتهيأ لعملٍ كبير. وعلّه قد عرف أنّي لا اتدخل فيما لا يعنيني، فلم أحاول، لا على نحو مباشر ولا على نحوٍ غير مباشر، أن استدرجه الى حيث يَبِرُّ الي بشيء من أمره، ولكنني لاحظت أخيراً أنه يحترق شوقاً الى أن يفتح لي قلبه، وقد أصبح ذلك الشعور واضحاً بعد شهر من بدء زياراته لي.

فقال لي مرة: هل تعلم أن الناس في المدينة يثرثرون كثيراً عنّا، وأنهم يُدهشون لزياراتي المتكررة لك؟ لا ضير على كل حال، فإن كل شيء سيتضح قريبا.

وكان يتفق له في بعض الاحيان أن ينتابه اضطرابٌ شديد، وكان في مثل تلك اللحظات ينهض غالباً وينصرف. وكان في مناسبات أخرى يُطيل النظر اليّ، ويلقي عليّ نظرات نافذة، فأقول لنفسي عندئذ: «ها. . .سيتكلم»، ولكنه ما يلبث أن يغيّر الحديث، ويتطرق الى موضوعات عادية.

وكان يشكو من صداع في كثير من الاحيان.

وفي يوم من الايام، بعد أن تكلّم بكثيرٍ من الحرارة، رأيته يصفر على حين فجأة، ويتشنج وجهه، ويتفرّس فيّ تفرُّساً غريباً.

فقلت له: ماذا بك؟ هل انت مريض؟ ذلك أنه كان قد شكا من صداع منذ قليل.

فقال: انا. . . هل تدري؟ لقد قتلت احداً ما!

قال هذا وابتسم وقد ابيضّ وجهه. ما هذه الابتسامة؟ لمع هذا السؤال في ذهني ونفذ الى قلبي، قبل أن يتسع وقتي لأن أردّ بشيء. وأصاب وجهي اصفرارٌ أنا أيضاً.

صحت اسأله: ماذا تعني؟

فاستأنف كلامه يقول وهو يبتسم ابتسامة حزينة: ها انت ذا ترى كم كلّفني هذا الاعتراف الأول من عناء! وقد تم الاعتراف الآن، وستكون متابعته أسهل وأيسر...

لبثتُ فترةً طويلةً لا اصدّق ما كان يقوله لي، ولم استطع أن أفعل ذلك إلاّ شيئاً فشيئاً، بعد أن رجع اليّ ثلاث امسيات متتالية، فروى لي القصة بجميع تفاصيلها. ظننته في أوّل الامر أنه قد أصيب بالجنون، ثم أدركت الحقيقة أخيرا بمرارةٍ كبيرةٍ ودهشة. لقد كانت جريمته عظيمة ومفزعة.

لقد قتل امرأةً شابةً غنيةً وجميلةً جداً، قبل أربعةَ عشر عاماً. كانت ارملة رجل من ملاك الاراضي، وكان لها في مدينتنا قصر تقيم فيه من حين الى حين. افتتن هذا الرجل بها، وصارحها ذات يوم بحبه، وحاول أن يقنعها بالزواج منه. ولكنها كانت تحب رجلاً آخر هو ضابط في الجيش عالي الرتبة واسع الشهرة، كان عندئذ في الجبهة وكان عليها أن تلحق به قريباً. لذلك رفضت عرض صاحبي، ورجته أن لا يجيء اليها بعد ذلك اليوم ابداً. فلمّا صرفته بهذه الخشونة وأصبح لا يستطيع أن يزورها، تسلل ذات ليلة الى منزلها الذي كان يعرف ترتيبه، ماراً بالحديقة والسطح، متهوراً أشدَّ التهور، معرّضاً نفسه للخطر. وقد واتاه الحظ، كما يحدث كثيراً في الجرائم الجريئة.

دخل من كوة العلّية فوق السطح، ثم هبط السلم المؤدي من طابق السقف الى شقة السيّدة. كان يعلم أن الباب الذي يوجد في أسفل هذا السلّم يظل مفتوحا في كثير من الاحيان بسبب اهمال الخدم. وعلى هذا كان يعول صاحبي، فصدق

حسابه. فلمّا صار في الشقة اتّجه في الظلام الى غرفة نوم السيدة، التي كان يشتعل فيها سراج. وشاءت المصادفة أن تكون وصيفتا السيدة قد خرجتا في ذلك المساء، دون أن تستأذناها، لحضور حفلةٍ صغيرةٍ تقيمها صديقةٌ لهما تحتفل بعيد ميلادها وتسكن في نفس الشارع. وكان الخدم ينامون في القسم الخاص بهم، او في المطبخ بالطابق الادنى. فلمّا رأى المرأة الشابة نائمة اضطرم هواه، فاذا بغيرةٍ حانقةٍ ظامئةٍ الى الانتقام تشبُّ في قلبه، واذا هو يقترب من السيدة كالسكران، ويغمد في قلبها سكيناً وهو لا يدرك ماذا يفعل. لم يتسع وقت السيدة حتى لإطلاق صرخة. ورتب الرجل اموره بمكر شيطاني وحيل رهيبة من اجل أن تقع الشبهات كلها على الخدم. وكان خسيساً جداً، فقام بأخذ محفظتها، ثم فتح ادراج صندوقها مستعيناً بمفاتيح وجدها تحت وسادتها، فاختار من محتويات هذه الادراج الاشياء التي يمكن أن يسرقها خادم جاهل. لم يمد يده الى السندات والصكوك والاوراق التي لها قيمة كبيرة، وإنما سرق الاموال النقدية، والحلى الذهبية الكبيرة، تاركاً القطع الصغيرة التي يبلغ ثمنها عشرة أضعاف. واخذ معه بعض الاشياء لنفسه لكي يتذكرها، والتي سنتحدث عنها فيما بعد. حتى اذا أتمّ جريمته على هذا النحو، خرج من الدار متّبعا نفس الطريق التي اتّبعها في الدخول.

ولم يخطر ببال احد على الاطلاق، لا في الغد حين اكتُشفت الجريمة، ولا في أيّة لحظة من لحظات حياته، أن يكون هو الجاني. وكان الناس يجهلون حبه للمرأة القتيل، لأنه كان شديد الصمت قليل الكلام، ولم يكن له اصدقاء يمكن أن يُسرّ اليهم بشئونه. كان الناس يُعدُّونه احد اصدقاء القتيلة لا أكثر، حتى إنهم كانوا لا يعتبرونه من اصدقائها المقرّبين، لأنهم لم يروه في منزلها خلال الاسابيع التي سبقت المأساة. وانصبت الشبهات رأساً على خادم اسمه بيتر، وكانت جميع الظروف تشير اليه وتتهمه. كان هذا الرجل يعرف أن سيدته قد عقدت نيتها على أن ترسل احد الخدم الى الخدمة العسكرية، وكانت قد قررت ارساله، لأنه سيّئ السلوك وبدون ارتباطات. وقد سمعه الناس في احدى الخمارات يطلق اقوالاً يهدّد

فيها سيدته بالقتل وهو في حالة سكر وغضب شديدين. وكان قد فر من البيت بيومين قبل موتها، وأقام في المدينة في مكان لا يعرفه احد. وفي غداة الجريمة، وجد على الطريق، غير بعيد عن الضيعة، فاقد الوعي من شدّة السكر، وسكّين في جيبه ويده اليمنى ملطخة بدم. وقد فسر هو ذلك بأن انفه رعف، ولكنه لم يُصدَّق، واعترفت الوصيفتان بأنهما غابتا عن المنزل فعلاً، واقرّتا بأنهما تركتا باب الدار الذي يؤدي الى الخارج مفتوحا عن سهو وغفلة. وجاءت تفاصيل اخرى مؤيدة لقرائن الاتهام هذه.

جرى اعتقال الخادم البريء، وأودع السجن، وكان سيمثل أمام القضاء لولا أنه أصيب بحمى شديدة بعد اسبوع، ثم مات في المستشفى قبل أن يفيق من غيبوبته. وأغلق التحقيق، وظل جميع الناس والقضاة ورجال السلطة وابناء المجتمع في المدينة، مقتنعين بأن الجريمة لا يمكن أن يكون قد ارتكبها احد غير الخادم المتوفى. وعندئذ بدأت أشعر بالعقاب.

وقد أسرّ اليّ الزائر العجيب، بعد أن أصبح صديقي، أنه لم يعرف عذاب الضمير في الآونة الأولى. صحيح أنه تألّم زمناً طويلاً، ولكن ألمه كان حسرةً على أنه قتل المرأة التي يحبها، وأنه فقد كل امل في أن يسعد بقربها الى الابد، وكانت نار الحب ما تزال تكوي عروقه. أمّا أنه سفح دماً وقتل إنساناً فذلك امر لم يزعجه كثيراً، ولم يكن يفكّر هو فيه إلاّ نادراً. كان لا يطيق أن يتصوّر أن تلك المرأة يمكن أن تصبح زوجة رجل آخر غيره، وكان لهذا السبب موقنا بأنه كان يستحيل عليه أن يتصرّف إلاّ كذلك.

وكان اعتقال الخادم في أوّل الامر قد سبّب له القلق، ولكن مرض المتهم ووفاته سرعان ما ردّا إليه هدوءه وطمأنينته، اذ كان واضحاً (هذا ما كان يقوله لنفسه) أن الخادم لم يمت بسبب اعتقاله او بسبب صدمة نفسية، وإنما مات بسبب البرد الذي أصابه اثناء هرويه، حين بات ليلة بكاملها على الارض الرطبة فاقد الوعي من السكر. أمّا المال والاشياء المسروقة، فإنه لم يأبه لها قط، لأنه (هذا ما

كان يقوله لنفسه ايضاً) لم يسرقها طمعاً بل تمويها. ثم إن قيمة هذه الاشياء المسروقة لم تكن كبيرةً جداً، وسرعان ما وهب لمأوى الفقراء الذي انشئ في المدينة في الآونة الاخيرة مبلغاً يفوق كثيراً قيمة الاشياء المسروقة. وقد فعل ذلك ليهدئ ضميره في موضوع السرقة. ومن الغريب أنه استطاع أن يُهدِّئه فعلاً خلال مدّةٍ طويلة من الزمن كما أسَّر هو اليّ بذلك. واندفع يزاول مهنته بنشاط كبير وغرق في هذا النشاط، وعهد اليه بمهامٍ صعبةٍ شغلته خلال سنتين. ولمّا كان الرجل نشيطا وقويا، فقد تمكّن من نسيان الجريمة التي ارتكبها نسياناً يكاد يكون كاملاً. وكان اذا راودته ذكراها يُبادر الى طرد هذه الذكرى. وانصرف الى البر والاحسان، فدعم وأنشأ اعمالاً خيريةً في مدينتنا، وذاع صيته في العاصمتين، فانتُخب عضواً في الجمعيات الخيرية بموسكو وسان بطرسبرج.

غير أن قلقاً اليماً استيقظ في نفسه بمرور الزمن، وأخذت ذكرى الماضي تحاصره وتزداد الحاحاً وتضعف من اندفاعه في العمل. وتعرّف في تلك الفترة الى امرأةٍ شابةٍ جميلةٍ ذكية، أعجبته كثيراً فقرر أن يتزوجها، آملا أن يستطيع هذا الزواج أن يطرد كآبته ويبدّد قلقه. كان يقول لنفسه إنه إذا دخل حياة جدّية، أصبح يقوم فيها بواجباته نحو امرأته وأولاده بهمة ونشاط، فإنه سيتخلّص من ذكرى الماضي. ولكن ما كان يتوقعه لم يتحقق، فمنذ الشهر الأول من حياته الزوجية شعر بهذه الفكرة تعذّبه وتقضُّ مضجعه: «صحيح ان زوجتي تحبُّني، ولكن كيف عساها تتصرّف اذا هي عرفت الحقيقة؟» وحين أسرّت اليه أوّل مرة أنها ستصبح أمّا، اضطرب وقال لنفسه: «هل أهب الحياة أنا الذي قتلت؟» ولمّا كبر اولاده، أصبحت تهاجمه وتلازمه اسئلة اخرى: «كيف اجرؤ أن احبّهم وأن أقوم بتربيتهم وتنشئتهم كأنني أستاذ يعلّم الفضيلة، في حين أنني ارتكبت جريمة قتل؟ وكان اولاده على غاية من الظرف والجمال، ولكنه كان إذا رغب أن يلاعبهم، يقول لنفسه: «لست جديراً بأن انظر الى وجوههم الطاهرة البريئة.»

وظهر اخيراً أمام ضميره طيف المرأة التي قتلها، كأنّه نداءُ الدم المسفوح

يطلب الانتقام! وأصبحت توافيه في الليل أحلامٌ ثقيلةٌ وكوابيسٌ مرهقة. واستطاع رغم ذلك وبفضل قوّة قلبه أن يتحمّل هذا العذاب زمناً طويلاً، واستطاع أن يقبله قائلاً لنفسه إنّه سيكفّر بألمه الخفي عن خطيئته. وخاب امله هذا، لأن القلق الداخلي ما انفك يزداد ويتفاقم.

واحترمه الناس في المجتمع تقديراً لاعمالِه الخيرية، وخوفاً من قسوة طبعه وانغلاق نفسه. ولكنه كان يزداد شعوراً بالارهاق كلما ازداد شعوراً باحترام الناس له. واعترف لي بأنه فكّر في الانتحار غير مرة. غير أن قراراً آخر قد أخذ ينضج في نفسه، بدا في أوّل الامر حلماً طائشاً مجنوناً، ولكنه ما زال يستولي على وجدانه حتى أصبح لا يستطيع أن يصرفه عن فكره. كان يقول لنفسه: «يجب أن أسلّم نفسي للقضاء، وأن أعترف بجريمتي أمام جميع الناس، بأنني قاتل». وظل يحمل هذا الحلم في خياله ثلاث سنين، وهو يعاوده في صور جديدة بغير انقطاع. وانتهى الى الاقتناع بأنه سيشفى روحه ويكون آمنا الى الابد، اذا هو اعترف بجريمته. وفي الوقت الذي تأصّل هذا الاقتناع فيه حتى غزا الرعب قلبه، فأصبح يقول لنفسه: «كيف أفعل مثل هذا؟». وفي ذلك الحين إنّما وقعت المبارزة بيني وبين ذلك الرجل.

قال لي: لقد اتخذت قراري حين نظرت اليك .

نظرت اليه. فصرخت قائلاً وانا أضمُّ يديّ إحداهما الى الاخرى: هل يمكن حقاً ان يكون حادثٌ تافهٌ كهذا الحادث قد ولّد في نفسك مثل هذه العزيمة؟

فأجابني بخشونة: لقد نضج هذا القرار في نفسي خلال ثلاث سنين، ولم تزد مبارزتك على أن اخرجته الى النور. إنني أشعر بالخجل من ضعفي إزاء المثل الذي ضربته انت، وإنني احسدك.

قلت: لن يصدّقوك بعد أربعة عشر عاماً.

ـ عندي براهين كبيرة، سأقوم بتقديمها.

بكيت وعانقته. ثم قال لي بعد ذلك كأنه يخاطب إنساناً يتعلّق به مصيره: اجبني مع ذلك عن سؤال واحد: ما الذي سيحدث في هذه الحالة لزوجتي واولادي؟ قد تموت زوجتي حزناً. أمّا اولادي فلن تسقط عنهم نبالتهم، ولن يُحرموا من اموالهم، ولكنهم سيظلّون الى الابد اولاد سجينٍ محكومٍ عليه بالاشغال الشاقة. وأيّة ذكرى سيحفظونها عني؟

صمتُّ ولم اقل شيئاً

وأردف يقول: سيكون عليّ أن انفصل عنهم وأن أتركهم الى الابد!

لم أجب بشيء، وكنت أتلو صلاةً بصوتٍ خافت. ونهضتُ أخيراً وقد امتلأت نفسي رعباً وفزعاً.

نظر اليّ ثم قال: حسناً؟

قلت له: إذهب واعترف. سيمضي كل شيء وتبقى الحقيقة وحدها. وسيفهم اولادك حين يكبرون مدى ما احتجت اليه من نبلٍ روحي في سبيل اتخاذ هذا القرار.

تركني في ذلك المساء وقد بدا عليه واضحاً أنه قرّر أن يعترف بجريمته. ولكنه ظلّ خلال الاسبوعين اللذين اعقبا ذلك، يأتي الي كل مساء تقريبا، ويستعد كل يوم لتحقيق ما عقد النيّة عليه، حتى اذا جاء الغد جبن في آخر لحظة عن تحقيق نيّته. وكان تردده يقلقني ويعذّبني. إنه يبدو في بعض الاحيان صلب العزيمة، فها هو يقول بحرارة:

انا ادري بأنني سأصبح في الجنة متى اعترفت بجريمتي. لقد عشت أربعة عشر عاماً في الجحيم. أريد أن اتألّم. سأقبل العقاب ثم أستأنف الحياة. إن الخطأ يؤدّي الى ظلام، ويسدُّ الطريق، فلا تستطيع العودة الى الوراء. أنا الآن لا اجرؤ أن أحبَّ جاري ولا اولادي. آه يا رب... سيفهم اولادي! سيفهمون ما قاسيت ولن يدينوني! إن اللّه ليس مع القوة وإنّما مع الحقيقة.

فقلت له: سيفهم الناس جميعهم القرار الذي اتخذته، ويستحسنونه جميعاً، إن لم يكن حالاً، ففي المستقبل حتماً. إنَّك بهذا العمل تخدم الحقيقة، تخدم حقيقةً أعلى من الواقع الارضي.

انصرف بعد ذلك وقد رضيت نفسه واشتد أزره، ولكنني رأيته في الغد عائداً اليَّ شاحب الوجه مشعَّث الهيئة، فقال لي بلهجةٍ فيها سخرية:

ـ كلَّما دخلتُ عليك شعرت بأنك تنظر اليَّ كمن يقول لنفسه: «لم يقرّر بعد!» إصبر ولا تنظر اليَّ باحتقارٍ كبير: ان تنفيذ هذا الامر أصعب مما تظن. ومن يدري؟ فقد أعدل عنه اخيراً! أحسب أنك لن تمضي للوشاية بي!

والحق أنني لم أكن أتفرَّس فيه مستطلعاً، فلقد كنت لا أكاد أجرؤ أن أنظر اليه. كانت هذه المأساة الداخلية تؤلمني، وكنت أهمُّ أن أبكي في كل حين، حتى لاوشك أن أُحرم النوم.

قال يوماً حين وصل اليَّ: لقد تركت زوجتي قبل قليل. هل تستطيع أن تفهم ما معنى هذه الكلمة؟ . . . لقد صاح اولادي يقولون لي حين خرجت من المنزل: «عد بسرعة يا بابا لتقرأ معنا في مجلة الاطفال». لا. . . إنك لا تستطيع أن تفهم هذا. إن شقاء الآخرين يبدو لنا خفيفاً.

وسطعت عيناه واختلجت شفتاه. وضرب المائدة فجأة بقبضة يده ضربةً قويةً، فاهتزت الاشياء التي كانت عليها. هذه هي المرة الاولى التي يفعل فيها شيئاً كهذا، فلقد كان رجلاً لطيفاً.

هتف يقول: هل هذا ضروري فعلاً؟ هل هو مفيد حقاً أن أشي بنفسي؟ ما الداعي الى هذا الاعتراف، ولم يحكم عليَّ احد بسبب جريمتي، ولم يُرسل احد الى سيبيريا بدلا عني، وقد مات ذلك الخادم من المرض؟ اما الدم المسفوح فإنني أكفّر عنه بآلامي وعذابي. ثم إنهم لن يصدّقوني، وسيُبعدون الادلّة التي يمكن أن أقدّمها. فلماذا أتّهم نفسي؟ هلا قلت لي لماذا أتّهم نفسي! إنني مستعد لأن اتألّم

طوال حياتي من تلك الجريمة في نفسي، شريطة أن لا أجرّ زوجتي واولادي معي الى الشقاء. هل من العدل أن أجبرهم على مشاركتي في العقاب؟ الا ترى أننا نرتكب خطأً هنا؟ اين الحقيقة؟ وهل هؤلاء الناس جميعاً قادرون على معرفتها وتقديرها واحترامها؟

قلت اخاطب نفسي: «رباه! إنه يهتم بتقدير الناس في مثل هذه اللحظة!» واجتاحت نفسي عندئذ شفقةٌ شديدةٌ عليه، حتى بدا لي أنني مستعد لأن اشاطره مصيره لو كان ذلك يخفف عذابه. لقد أصبحت حاله سيئة. وشعرت بذعر حين أدركت بعقلي وقلبي في هذه المرة، ماذا يعني هذا القرار بالنسبة اليه.

هتف يقول: قرّر مصيري.

فأجبته هامساً: إذهب واعترف. كان صوتي واهناً ضعيفاً، غير أن فيه شدّة. ثم تناولت الكتاب المقدس من الطاولة ـ في ترجمته الروسية ـ وأشرت الى هذه الفقرة من انجيل يوحنا (١٢: ٢٤): «الحق الحق أقول لكم: إن لم تقع حبّة القمح في الارض وتمت فهي تبقى وحدها. ولكن إن ماتت فهي تأتي بثمرٍ كثير». وكنت قد وقّعت على هذه الآية قبل زيارته بلحظات. قرأ الآية وقال:

هذه هي الحقيقة. ولكنّه ابتسم بعد ذلك بمرارةٍ، وصمتَ لحظة ثم قال: ما أكثر ما يجد المرء في هذه الكتب من الاشياء المخيفة! فمن الذي كتب هذا كله؟ هل يمكن أن يكون الذين كتبوه من البشر؟

قلت: نعم، بوحي من الروح القدس.

عاد يقول مبتسماً مرةً أخرى، ولكن ابتسامته في هذه المرة تكاد أن تكون مليئةً بالكره: من السهل عليك أن تثرثر!

فتحتُ الانجيل على موضع آخر، وأريته «الرسالة الى العبرانيين» (١٠: ٣١) فقرأ: «مخيف هو الواقع في يدي اللّه الحي».

فرمى الكتاب واخذ جسمه كلّه يرتعد.

ثم قال: هذه آية رهيبة. يجب أن أعترف لك بأنّك أحسنت اختيارها للمناسبة. ونهض عن الكرسي وقال: حسناً. الوداع. أغلب الظن أنني لن أعود اليك بعد اليوم. سنلتقي في الجنة. لقد «وقعت اذن في يدي الرب الحي» مدّة اربعة عشر عاماً. يظهر أن عليّ أن اسمّي هذه الفترة من حياتي هكذا. غداً سأضرع الى هاتين اليدين أن تتركاني».

وددت لو اقبّله، ولكنني لم أجرؤ. كانت قسمات وجهه متقبضة وكانت نظرته ثقيلة. ثم خرج.

فتسألت: «الى اين يمضي هذا الإنسان الآن يا رب!». وارتميت جاثياً على ركبتيّ أمام ايقونة العذراء. وصلّيت باكياً اليها لكي تسرع تشفع له وتحميه. إنقضت نصف ساعة دون أن أكفّ عن الدعاء والبكاء. أوشك الليل أن ينتصف. هذا باب الغرفةُ يفتح فجأة، وهذا صاحبي يظهر من جديد. اذهلتني رؤيته.

سألته: من اين جئت؟

ـ نسيت.. اظن أنني نسيت عندك شيئاً... هو منديل في أغلب الظن... حسناً، هبني لم انس شيئاً، دعني أبقى هنا قليلاً.

جلس، بقيت واقفاً امامه، قال لي:

ـ إجلس انت ايضاً.

اطعته، لبثنا على هذه الحال بضع دقائق لا نتكلم. كان يحدّق بي، وفجأة ضحك ضحكةً صغيرة، اتذكّر ذلك، ثم نهض واقترب مني، وعانقني بحرارة.

وقال يخاطبني في هذه المرة: تذكر أنني جئت اليك هذه الليلة مرة ثانية هل تسمعني؟تذكّر ذلك!

ثم خرج وقلت لنفسي: «لعلّه فاعل ..غداً»

لم يخطئ ظني، كنت أجهل ذلك المساء أنه يحتفل غداً بعيد ميلاده. إنني لا أخرج منذ حين إلاّ قليلاً، فلم يذكر لي أحد ذلك. كان يقيم في كل سنة حفلة

كبيرة في منزله يدعو اليها كل أبناء المدينة. وكذلك فعل في هذه السنة. حتى اذا انتهى العشاء تقدّم الى وسط الصالة، ممسكاً بيده ورقةً كَتب عليها اعترافاته موجّهة الى رؤسائه الذين كانوا حاضرين. قرأ تصريحه بصوتٍ عال، ذاكراً جميع تفاصيل الجريمة.

وختم قراءته قائلا: «انا مجرم، وقد قررت أن أبعد نفسي عن المجتمع، لقد اصابتني النعمة الالهية» وقال وهو يختم كلامه: «أريد أن اتألّم لكي أكفّر عن خطاياي».

ثم وضع على المنضدة جميع الادلّة التي احتفظ بها خلال تلك السنين، والتي يأمل أن يبرهن بها الآن على قيامه بجريمته: حلى المرأة القتيل التي سرقها تمويهاً ودفعاً للشبهات، والصليب والنيشان (الذي يضم صورة خطيب المرأة القتيل) ودفتراً ورسالتين، فأما الرسالة الاولى فهي من الخطيب يُبلغ فيها خطيبته أنه آتٍ قريباً، وامّا الثانية فهي جواب لم تتم كتابته، وقد تركته على منضدتها لترسله الى خطيبها في الغد. ماذا كان هدفه من اخذ هاتين الرسالتين؟ وماذا كان الدافع الذي دفعه بعد ذلك الى أن يحتفظ خلال تلك السنين كلّها بهذه الادلة التي تتهمه وتعرّضه للخطر بدلاً من أن يتلفها؟

اليكم ما حدث: ذهل الحضور من اعترافاته، وانتابهم الجزع، ولكنهم رفضوا أن يصدّقوا هذه الاعترافات. صحيح أنهم أصغوا اليه بكثيرٍ من الانتباه، ولكنهم إنّما أصغوا اليه كأنه مختلٌ عقلياً. وبعد بضعة أيام كانت المدينة كلّها مجمعة على أن المسكين قد فَقَدَ عقله. ولئن لم يكن في وسع رؤسائه ورجال السلطة أن لا يُتابعوا الامر، فَقَد ارتأوا اخيراً أنه لا مجال لتحريك القضاء. ذلك أن الرسالتين والاشياء التي قدّمها إن كانت تبعث على التفكير، فلا يمكن أن يُبنى عليها وحدها اتهام، حتى ولو ثبت أنها للقتيلة، فمن الممكن أن تكون قد عهدت اليه بها كصديق. وقد علمت فيما بعد أن اصدقاء الضحية وأقرباءها قد تعرّفوا على هذه الاشياء، فلم يبق حول ذلك شك.

وبعد خمسة ايام، علم أن المسكين قد مرض، وأن حياته في خطر. لا استطيع أن أقول ماذا كان مرضه. وقد تحدّث الناس عن اضطرابات قلبية. ومهما يكن من امر، فإن الاطباء قد فحصوا حالته العقلية بالحاح من امرأته، فانتهوا الى أنه مصاب ببداية جنون. ولم أكشف عن اعترافاته لي طبعاً، رغم أن جميع الناس قد حاصروني بالاسئلة. وحين أردت أن ازوره مع ذلك، أغلق دوني بابه، وكانت امرأته خاصةً هي التي حالت بيني وبينه. قالت لي:

«انت الذي ادخلت الاضطراب الى عقله! لقد كان دائماً قاتم المزاج، وأصبح اضطرابه النفسي وسلوكه الغريب يُسبب لنا القلق منذ عام، فجئت أنت فأجهزت على عقله! انت الذي حشوت رأسه بهذه الافكار! إنه منذ شهر لا يكاد يخرج من عندك!

ولم يكن هذا شأن امرأته وحدها... هل تصدّقون هذا؟ لقد هاجمتني المدينة كلها عندئذ واغرقتني لوماً وتقريعاً. هذه خطيئتك! هذا ما كان يقوله لي الناس في كل مكان. وكنت أصمت فلا أجيب، وكنت في قرارة نفسي أشعر بالسعادة. ذلك أنني ادركت أن الرب قد أشفق على الرجل الذي أدان نفسه وأراد أن يلقى جزاءه. أمّا جنونه المزعوم، فما كان لي أن اصدّقه.

وسُمح لي اخيراً بأن أراه، لأنه أعرب عن هذه الرغبة مُلحاً من اجل أن يودّعني. فحين دخلت عليه عرفت منذ اللحظة الاولى أن ساعاته وايامه معدودات. كان ضعيفاً واهناً أصفر الوجه مرتعش اليدين ويتنفس بعناءٍ كبير. ولكن نظرته تعبّر عن الفرح والهدوء وثبات الجنان. قال لي:

ـ انتصرت الحقيقة! إنني انتظرك منذ مدة طويلة، لماذا تأخّرت في المجيء؟

اخفيت عنه أنني مُنعت من مقابلته.

ـ «لقد اشفق عليّ الرب فناداني اليه، أنا أعلم أنني سأموت ولكن روحي قد عرفت السعادة والسلام والطمأنينة اخيراً، لأول مرة بعد تلك السنين الطويلة كلها.

لقد وجدت الجنة في نفسي بعد أن فعلت ما كان يجب عليّ أن أفعله. أصبحت لا اخشى أن أحبّ اولادي وأن الاطفهم والاعبهم. إن الناس ترفض أن تصدّقني، ما من احد يريد أن يسلّم بأنني قاتل، لا زوجتي ولا قضاتي. ولم يصدّق أولادي هذا ايضاً. سوف اموت، ولكن اسمي سيظل في نظرهم طاهراً لم يدنّس ولم يلطّخ. اواه؟ إنني أشعر بالله الآن، وإن قلبي لمبتهج كأنني في الجنة. لقد قمت بواجبي.»

لم يستطع أن يُكمل كلامه، فقد انتابه اختناق، غير أنه شد على يدي بحرارة، ونظر اليّ صامتاً، وقد سطعت عيناه بلهيب. لم نتمكن من إطالة حديثنا، لأن امرأته قد نفذ صبرها، فهي تشق الباب بغير انقطاع. واتّسع وقته مع ذلك لأن يهمس قائلا:

ـ هل تتذكر أنني جئت اليك في ذلك المساء، عند منتصف الليل؟ لقد طلبت منك بأن لا تنسى ذلك... فهل تعلم ماذا كان هدفي حين جئت اليك في تلك الساعة؟ كان هدفي أن اقتلك!

ارتعشت.

ـ فبعد أن تركتك، لبثت أطوف في الشوارع على غير هدى زمناً طويلاً أصارع نفسي، فإذا أنا أشعر لك فجأةً بكراهية بلغت من القوة أنني احسست بأن قلبي يوشك أن ينفجر. قلت لنفسي: «بسببه وحده انما انا مضطّر الى الاعتراف الآن. لقد أصبح قاضياً، ولن استطيع أن أفلت من العقاب غداً لأنه يعلم كل شيء». ليس معنى هذا أنني كنت أخشى أن تشي بي (إن هذه الفكرة لم تخطر ببالي في لحظة من اللحظات) ولكنني كنت أقول لنفسي أنني لن استطيع أن أنظر اليك بعد ذلك اذا أنا لم أسلّم نفسي للسلطات. وسيّان أن تكون في هذه المدينة او في أقصى الارض. أصبحت لا أطيق أن اتصوّر أنك تعيش في مكان ما عالماً بأمري مصدرا حكمك عليّ . فأخذت اكرهك، كما لو كنت علّة شقائي مسئولاً عما انا فيه. ورجعت اليك متذكراً خنجراً كان عندك على المائدة. وجلست، ودعوتك ان تجلس أنت أيضاً، ولبثت دقيقة طويلة أفكر وانا أحدق اليك. بديهي

أن حياتي كانت ستتحطم على أي حال لو قتلتك، وإنني كنت سأنتهي نهاية شقيّة، سواء اعترفت بالجريمة الاخرى أم لم اعترف. ولكن ذلك لم يخطر ببالي في تلك اللحظة، لأنني لم أكن أهتم بالعواقب. كنت اكرهك، وكانت تدفعني رغبةٌ قوية في أن أثأر منك لكل ما كنت قد قاسيته من عذاب. أمّا ما عدا ذلك فكان لا يعنيني. ثم انتصر الرب في تلك الدقيقة على الشيطان في قلبي. ولكن اعلم أن الموت لم يقترب منك في يوم من الايام كما اقترب منك في تلك الليلة.

مات الرجل بعد اسبوع، وشيّعت المدينة كلها جثمانه الى المقبرة. والقى الكاهن كلمات مؤثرة. وانتحب المنتحبون حزناً عليه، واشتكوا مر الشكوى من المرض الذي اماته. وبعد الجنازة قاموا علي، واصبحوا منذ ذلك الحين لا يدعونني الى منازلهم. غير أن عدداً من الاشخاص، كانوا قلّة في اول الامر ثم تكاثروا بسرعة بعد ذلك، قد انتهوا الى الاقتناع بصدق اعترافاته، فكانوا يجيئون اليّ في كثير من الاحيان يزعجونني بأسئلتهم عنه، وقد امتلأت نفوسهم فضولاً شديداً وخبثاً خفياً. إن الانسان يحلو له أن يرى رجلاً صالحاً يسقط ويتلطخ شرفه. ولكني لم اتكلم، ثم لم ألبث أن بارحت تلك المدينة. وبعد خمسة أشهر منّ عليّ الرب، فوجهني في طريق اليقين والنور، بوركت اليد الخفية التي قادت خطاي نحو الهدف. وانني أذكر في صلواتي كل يوم منذ ذلك الحين، خادم الرب مايكل الذي عانى كثيراً.

أُصيب اليوشا كارامازوف بصدمة عميقة، لأن جثمان مرشده الروحي او الشيخ زوسيما الذي احبه فوق الجميع لم يقاوم الفساد بعد الموت، في اجواء القداسة كما كان متوقعاً بالتحديد، وكما جرى مع كل الآخرين الذين ماتوا مثله تقريباً. وعلى النقيض من ذلك، فقد انبعثت من جثمانه حالاً بعد وفاته رائحة موت مؤكّدة، مما سبّب السرور الشديد للعديد من الرهبان الذين عارضوا زوسيما وحسدوه. وترك هذا انطباعاً على اليوشا بحيث انه لم يعد يهتم باي شيء على الارض، وسمح لراكتين أن ياخذه ليرى جروشنكا (وتروي علاقات هذه الشخصيات الثلاث بشكل مفصّل في الفقرات الافتتاحية). وقاوم محاولاتها في اغرائه، وارجعها الى صوابها، ورجع وهو بروحٍ جديدة الى الدير، يراقب الموت مع الرجل الميت الذي احبه كثيراً. وهنا تبدا رؤياه او حلمه.

حين وصل اليوشا الى الصومعة كان الوقت متأخراً جداً بالنسبة للانظمة المتّبعة في الدير. وسمح له الراهب البوّاب أن يدخل من ممر خفي. كانت الساعة التاسعة قد دقّت، وهي وقت الاستراحة بعد يوم مضطرب بالنسبة للجميع. تسلّل اليوشا وهو يشعر بالخوف والخجل الى الغرفة التي سُجّي فيها تابوت الشيخ. كان الاب بائيسي وحيداً في الغرفة ما يزال يقرأ الانجيل. كان الراهب الشاب المبتدئ بورفيري الذي تعب من الحديث الطويل في الليلة البارحة ومن الاحداث التي

جرت خلال اليوم، ينام في الغرفة المجاورة على الارض نوماً عميقاً. ولم يدر الاب بائيسي رأسه رغم أنه سمع دخول اليوشا. إتّجه اليوشا الى الركن الذي يقع على يمين الباب، وجثا على ركبتيه، وأخذ يصلّي.

كانت نفسه تمتلئ بمشاعر مختلفة، لم يكن لديه شعورٌ واضحٌ محدد، وإنما تتابعت الاحاسيس بصورة متوالية وبصورة مبهمة. وشعر اليوشا بانفعال عذب يجتاح نفسه، والعجيب في الامر أنه لم يستغرب ذلك الانفعال. إنه يرى امامه التابوت الذي يضم جثمان الراحل المحبوب، يراه من جديد، ولكن الالم الثقيل الذي كان يجثم على صدره طوال الصباح، حلّت محله عاطفة هادئة وادعة. ركع حين وصوله أمام التابوت كما يركع أمام هيكل، غير أن فرحاً عذباً يملأ الآن روحه ويفيض من قلبه. كانت احدى نوافذ الغرفة قد تُركت مفتوحة، فمنها يدخل هواء لطيف منعش. قال اليوشا يحدّث نفسه: «لا بد أن الرائحة قد اشتدّت ما داموا قد قرروا فتح النافذة»، غير أن فكرة التفسُّخ التي اثارت الاضطراب في نفسه عند الصباح، والتي كانت تبدو له فظيعة ومهينة، أصبحت الآن لا تُحزنه ولا تُشعره بشيء من الحرج. أخذ اليوشا يصلّي صامتاً، ولكنه لاحظ بعد برهة أنه يصلّي صلاة آلية. إن افكاراً متناثرة تتوارد على ذهنه، وتومض كالشرارات في خياله، ثم ما تلبث أن تنطفئ ليحلّ محلها غيرها. وقد أخذ في بعض اللحظات يصلّي بحرارة وحماسة، شاعراً بحاجةٍ قوية عنيفة الى أن يشكر وأن يحب...

وما لبث أن انصرف فكره الى شيء آخر، فاذا هو يغرق في أحلام غامضة مبهمة تنسيه الصلاة وتنسيه التأمُّل الذي قطع الصلاة. أدار بسمعه في لحظة من اللحظات الى قراءة الاب بائيسي، ثم أدركه التعب، فاذا هو ينحدر شيئاً فشيئاً الى نعاس هادئ.

وفي اليوم الثالث كان عرسٌ في قانا الجليل وكانت أم يسوع هناك.. «وقد دُعي يسوع وامه مريم والحواريون الى هذا العرس».

عرس؟ ما العرس؟ وثارت في فكره زوبعةٌ من الخواطر. هي ايضاً

سعيدة. . .وذهبت الى احتفال، لم تحتمل الخنجر. . ما كان ذلك منها إلاّ قولاً طائشاً. . . يجب أن نغفر الاقوال الطائشة، لأنها تجلب الهدوء للنفس. . . وبدونها يُصبح ألم الانسان أشدُّ من أن يطاق. . غاب راكيتين في شارع صغير. . . لسوف يغيب في شوارع صغيرة ما ظل لا يفكر إلاّ في الاهانات التي تناله هو. . . أمّا الطريق الامامية فهي عريضه ومستقيمة ومضيئة كالبلور وتسطع الشمس في نهايتها. . . ماذا يقرأ الآن؟»

وسمع اليوشا: «ولما فرُغت الخمر قالت ام عيسى له: ليس لهم خمر»

ها. . نعم، لم اتابع القراءة، مع أنني كنت لا أحبُّ أن تفوتني هذه الفقرة، إنني أحبها كثيراً: عرس قانا، المعجزة الاولى. . . في تلك المعجزة العذبة، لم يأت عيسى للحزن، بل للفرح. . . أفرح قلب الناس بتلك المعجزة الاولى. . . الذي يُحب البشر يُحب فرحهم أيضاً. . . ذلك ما كان يردده الشيخ الراحل بغير انقطاع. . . ذلك من تعاليمه الرئيسة . . . لا يستطيع الإنسان أن يحيا بغير فرح، كذلك يقول ميتيا. . . نعم يا ميتيا، كل ما هو عظيم وجميل يشيع منه الغفران. وكان هو يقول هذا أيضاً. . .

«قال لها عيسى: ما لي ولك يا امرأة! لم تأت ساعتي بعد.

قالت أمُّه للخدّام: مهما يأمركم فافعلوه!»

إفعلوه . . . كان ذلك لفرح أناسٍ فقراء مغمورين، فقراء جداً، لا شك أنهم كانوا في فقر مدقع ما دام الخمر قد اعوزهم حتى لعرس. . . يؤكد المؤرخون أن الاهالي الذين كانوا يعيشون في ذلك العصر على ضفاف بحيرة طبرية، وفي المناطق المجاورة لها، كانوا أفقر الناس في هذا العالم. . . وهناك قلب كبير آخر، وكان صاحب هذا القلب هو أمه، التي كانت تشعر في قلبها بأنه لم ينزل الى الارض إلاّ لهدفٍ واحد، هو ان يقوم بتضحيته الهائلة. وكانت تعرف أن قلبه كان مفتوحاً الى هؤلاء الناس المتواضعين البسطاء والمجهولين، الذين لا يعرفون

المكر، والذين دعوه بمحبة الى حضور عرسهم الذي لا تألّق فيه. قال لها عيسى وهو يبتسم ابتسامة رقيقة: «لم تأت ساعتي بعد» (لا شك أنه ابتسم في تلك اللحظة ابتسامة لا نهاية لرقّتها وعذوبتها) . . . هل جاء اذن الى الارض ليزيد الخمر في اعراس الفقراء؟ ورغم ذلك ذهب ولم يتردد، ولبّى الرجاء. . .آه إنه يقرأ مرة ثانية:

قال لهم عيسى: «إملأوا الجرار ماء». فملأوها الى فوق،

ثم قال لهم: «استقوا الآن، وقدّموا الى رئيس السقاة». فقدّموا.

فلما ذاق رئيس السقاة الماء المتحوّل خمراً، ولم يكن يعلم من اين هي، بينما كان الخدام الذين كانوا قد استقوا الماء يعلمون، دعا العريس وقال له:

«كل انسان يقدّم الخمر الجيدة أوّلاً، فمتى سكروا وضع الرديئة، أما أنت فقد ابقيت الخمر الجيّدة الى الآن!»

ولكن ما هذا؟ ما معنى هذا؟ لماذا تتسع الغرفة فجأة؟. . .هل حقا هو الزواج. . . هذا عرس . . .طبعاً. . هؤلاء هم المدعوون وهذان هما العريسان، والجمهور الفرح. اين رئيس الحفل؟ وهذا، من هذا؟ الغرفة تتسع مزيداً من الاتساع، من ذا الذي ينهض عن المائدة الكبرى هناك؟ كيف هو؟ أيكون هو أيضاً هنا؟ كنت أحسب أنه في تابوته. . . بلى! إنه هو بعينه. . . نهض . . . رآني. . . ها هو ذا يقبل علي. . رباه»!.

نعم، لقد اقترب فعلاً منه، الشيخ الناحل صاحب الوجه المخدد. كان فرحاً، وكان يضحك ضحكاً رقيقاً حلواً. لقد اختفى التابوت. والشيخ يرتدي الملابس التي كان يرتديها امس اثناء ذلك الحديث الاخير مع اصدقائه. إن وجهه يشرق مودّة ومحبة، وتلتمع عيناه، «كيف أمكن أن يكون هنا، في هذه الحفلة؟ هل دُعي إذن الى عرس قانا؟».

فسمع صوتاً لطيفاً يقول له من فوقه، صوتاً ألفَ اليوشا أن يسمعه: «نعم يا

عزيزي، لقد دُعيت أنا أيضاً، دُعيت ونُوديت. لماذا تختبئ في ذلك الركن؟ لا يكاد يراك احد. تعال، وكن معنا...

كان ذلك صوته، صوت الشيخ زوسيما... لا شك أنه الشيخ، ما دام يناديه!

ومد الشيخ يده الى اليوشا الراكع، فنهض اليوشا. وتابع الشيخ الصغير النحيف كلامه قائلاً:

فلنبتهج! ولنشرب الخمر الجديد... إنه خمر فج جديد، فرحٌ عظيمٌ جداً... هل ترى جميع هؤلاء المدعوين؟ هذا هو الخطيب، وهذه هي الخطيبة، وهذا هو رئيس الحفل يذوق الخمر الجديدة. لماذا تنظر الي هكذا؟ لقد وهبت بصلة الى فقير، ولهذا دُعيت الى هذا الحفل. كثيرون هنا هم الذين لم يهبوا إلاّ بصلة، بصلةً صغيرةً جداً... كيف الاحوال عندنا؟ أنت أيضاً، يا بني الطيب الوادع، لا بد أنك وهبت اليوم بصلة لجائعة مسكينة. إبدأ مهمتك، وواجه عملك، يا صغيري اللطيف! هل تراه هو؟ هل ترى عيسى، شمسنا؟

وهمس اليوشا قائلا: انا خائف... لا أجرؤ أن أنظر اليه.

لاتخف منه. هو مخيف بعظمته التي ترفعه فوقنا، هو مخيف بالعلو الذي هبط منه الينا، ولكن لطفه لا نهاية له، لقد جعل من نفسه شبيهاً بنا، وارتضى بالمحبة أن يشاركنا فرحنا، وأحال الماء خمراً حتى لا تنقطع سعادة الضيوف. وهو ينتظر مدعوين آخرين وما ينفك يدعو منهم المزيد الى الابد. أنظر. ها هم يجيئون بالخمر الجديد، ها هم يحملون الاواني...

وامتلأ قلب اليوشا بشعور واحساس حتى شعر بألم، ثم انبجست من روحه دموع فرح... ومد ذراعيه، وأطلق صرخةً، واستيقظ من نومه...

مرة اخرى ما زال التابوت في مكانه، والنافذة ما تزال مفتوحة، وصوت الاب بائيسي ما يزال يُسمع وقوراً هادئاً وهو يقرأ الانجيل ببطء. ولكن اليوشا لم

يُصغ اليه. كان قد نام على ركبتيه. والغريب أنه الآن واقفٌ على قدميه. وها هو ذا يتقدم فجأة، كأن قوّة خفيّة تدفعه دفعاً، فاذا هو يصبح قرب التابوت بعد ثلاث خطوات سريعة، حتى لقد لامس كتف الأب بائيسي دون أن يلحظ ذلك. رفع الاب بائيسي عينيه عن الكتاب وألقى على اليوشا نظرةً قصيرة، ولكنه سرعان ما استأنف قراءته، اذ أدرك أن الفتى كان في حالةٍ غريبة. وقف اليوشا أمام التابوت نصف دقيقة: تأمّل التابوت، تأمّل المتوفى الساكن الذي غطّى وجهه ببرقع، ووضعت بين يديه ايقونة، ولفّ رأسه بقبعةٍ يزينها صليب ذو ثمانية أفرع. لقد سمع اليوشا صوته قبل بضع لحظات، وما يزال هذا يسترجع الصوت في اذنيه. إن اليوشا يُصغي وينتظر... اتراه يسمعه من جديد؟ وفجأة، استدار اليوشا وخرج من الغرفة.

لم يتوقف عند درجات الباب بل هبط مسرعاً. كانت نفسه التي تطفح بالفرح، في حاجة الى فضاء وحرّية. هذه قبة السماء تعلوه ممتدة في جميع الجهات الى غير نهاية، مزدحمة بنجوم تسطع اشعتها سطوعاً هادئاً. إن المجرّة، التي لا تكاد تُرى بعد، تمتد من السمت الى الافق. والليل اللطيف الهادئ الساكن يلف الارض بأكملها. والابراج البيضاء والقبب المذهبة للكتدرائية ظهرت تحت السماء اللازوردية. وأزهار الخريف الغتية تبدو نائمةً حتى الصباح في أحواضها التي تحف بالمنزل. إن سكينة الارض تتحد بسكينة السماء، وإن سر الحياة والنجوم يرفرف على العالم.

تأمّل اليوشا هذا المنظر، فإذا هو يتهالك على الأرض فجأة كمن خارت قواه.

لم يعرف اليوشا لماذا عانق الارض، ولماذا شعر بمثل هذه الحاجة الى أن يغمرها بالقبل. كان يقبّلها باكياً، فيرويها بدموعه، وأقسم بحماسةٍ وعاطفةٍ كبيرة أن يحبها على الدوام، أن يحبها أبد الدهر... وقال له صوت من اعماق نفسه: «إسق الارض دموع الفرح، وأحبب دموعك.»

لماذا هذه العبرات؟

كان اليوشا يبكي من الفرح لهذه النجوم التي تنظر اليه من قرارة اللانهاية، ولم يكن يشعر بخجل من هذا الوجد الذي ملأ نفسه . إن الصلات الخفيّة التي تشدُّه الى هذه العوالم البعيدة كانت تهتز عندئذ في قلبه، وكان يطير فرحاً من شعوره بنشوء «هذا الاتصال بينه وبين الملأ الأعلى» في نفسه. كان يشتهي أن يغفر كل شيء لجميع الناس، وأن يستغفر أيضاً لا لنفسه وحدها بل لجميع الناس، وعن كل شيء. ومرة أخرى قال صوت في اعماق نفسه: «ان آخرين سيقدّمون صلواتهم لأجلي». وشعر في الوقت نفسه باحساسٍ واضحٍ جداً، احساس يشبه أن يكون جسمياً، إن نفحة قويّة خالدة كانت تهبط من قبة السماء، وتجتاح كيانه كلّه شيئاً بعد شيء، كفكرة تبزغ في روحه لتحكمها الى الابد. كان اليوشا قد سقط على الارض فتّى واهناً ضعيفاً، ولكنه حين نهض الآن، أحسّ بأنه مناضل جسور على مدى ما بقي له من أيام في هذه الحياة. واختلط وعيه لهذا التبدُّل المفاجئ الذي وقع له، اختلط بحماسته، فاذا هو في حالة نفسية جعلته لا ينسى تلك الدقيقة في يوم من الايام.

وقد ظل يؤكّد بعد ذلك باقتناع عميق «أن احداً قد زار نفسه في تلك اللحظة».

وبعد ثلاثة أيام ترك الدير متّبعاً وصيّة الشيخ الراحل الذي «ارسله الى العالم».

الحياة مع اللّه

احاديث مع صديق قديم لله

هذه القطعة ماخوذة من رواية «المراهق» وهي رواية دوستويفسكي النفسية الأقل اهميّة، والتي كتبها مباشرةً قبل آخر عمل له، «الاخوة كارامازوف». ماكار ايفانوفيتش جولفوروكي هو عبد سابق والزوج الشرعي لأم «المراهق»، الأبن غير الشرعي لملاّك الاراضي السابق فيرسيلوف الذي يتحدّث عنه ايضاً هنا. واركادي جولفوروكي، «المراهق» هو الراوي لهذا الحديث مع ماكار.

شيء حزين أن يكون المرء شيخاً مسكيناً. لا أدري بمن تتشبث روحي، ولكنها لا تزال صامدة، وهي سعيدة بأن تبقى في هذا العالم، بل لو كان عليها أن تستأنف حياتها كلّها على هذه الارض، لما جزعت من ذلك. ولكن لعلّ مثل هذه الفكرة هي خطيئة.

لماذا تكون خطيئة؟

إنها حلم، وعلى الشيخ أن يَمضي الى نهايته. نعم إن استقبال الموت بتذمر او استياء إثمٌ كبير. على كل حال، إذا كان حب الحياة ناشئاً عن فرح روحي، فأظن أن اللّه سوف يغفره حتى لشيخ. يصعب على الانسان أن يعرف الفرق بين ما هو آثم وما ليس بآثم. هذا سر يفوق العقل الانساني. وعلى الشيخ أن يكون دائم الرضى، وأن يموت مغموراً بضياء روحه، سعيداً بما قضى من أيام، متطلعاً الى ساعته الاخيرة، فرحاً بالرحيل كسنبلة تنضم الى باقة السنابل، بعد أن أتمّ قدره الغامض.

أراك تتكلم دائماً عن الغموض فما الذي تعنيه بقولك: أتمّ قدره الغامض؟ سألته هذا السؤال وانا القي نظرة على الباب.

كنت سعيداً بأننا وحيدان، وأن كل ما حولنا سكون وهدوء. وكانت الشمس تسطع قوية على النافذة قبل غيابها. كان الشيخ يتكلم بشيء من المبالغة وكأنه يشعر بالفرح لوجودي معه. ولكنني لاحظت أنه يعاني من حمّى قوية لا شك فيها، وكنت مريضاً أنا أيضاً، وأشعر بحمّى كذلك منذ دخلت عليه.

قال: ما هو السر؟ كل شيء سر يا صديقي. سر اللّه موجود في كل مكان، كل شجرة ونبتة تحتوي على سر. أن يغرد طير صغير، وأن تسطع النجوم متلألئة في الليل، ذلك كلّه سرّ واحد. ولكن ما ينتظر نفس الإنسان في العالم الآخر هو سر الأسرار، وأكبر الأسرار، يا صديقي!

لا ادري ماذا تعني.. وثِق أنني لا أقول هذا الكلام لإغاظتك، وثق أنني اؤمن بالله، ولكن هذه الاسرار جميعها قد كَشف عنها العقل منذ مدة طويلة، وما لم يكتشفه العقل فسوف يكتشفه يوماً، هذا مؤكّد حتماً، وربما اكتشفه في وقت قريب. عالم النبات يعرف تماماً كيف تنبت الشجرة، ويعرف عالِما الفيولوجيا والتشريح لماذا يغرّد الطائر، أمّا النجوم فقد أحصي عددها، وحُسبت كل حركة من حركاتها، حتى ليمكن التنبوء بظهور أي مذنّب قبل الف سنة من ظهوره بخطأ لا يتجاوز دقيقةً واحدة. وصار تركيب أبعد الكواكب معروفاً. خذ مجهراً، وهو عدسةٌ مكبرة تضخّم الاشياء مليون مرة، وانظر في قطرة ماء، ولسوف ترى فيها عالماً كاملاً يعج بالمخلوقات الحية. كان ذلك سراً ولكن العلم اليوم قام بتفسيره.

سمعت أناساً يتكلّمون عن هذا مراراً كثيرة يا بني. لست أنكر أن ذلك شيء عظيم مدهش. وهب اللّه الانسان كل شيء بارادته، وليس عبثاً أن يُعطي اللّه الانسان نسمة الحياة: عش وأعرف.

إن هذه الافكار، تلوكها بطبيعة الحال جميع الألسن، ولست أنت بعدوٍ من

أعداء العلم. هل انت كذلك؟ هل انت من انصار أن تحكم الكنيسة الدولة، او... أعني، لا أدري إذا كُنت تفهم...»

لا يا صديقي، لقد احترمت العلم دائماً منذ أن كنت صبياً، واذا كنت لا أعرف من العلم شيئاً فإنني لا أناصبه العداء. ما لم يوهب لنا ما وهب لآخرين. ولعل في هذا خيراً. وبهذه الطريقة يكون لدى كل انسان ما يرغب في فهمه، ولا يُجبر على فهم العلم. ولو كان الامر على عكس ذلك، لظن كل إنسان أنه بامكانه أن يدهش العالم، فلو كنت عالماً فقد أرغب في ذلك أكثر من سائر البشر. أمّا وأنني جاهل فكيف يمكنني أن أفعل ذلك؟ ولكنك انت شاب كثير الذكاء. وذلك قدرك. فعليك بالدراسة. حاول أن تعرف كل شيء، فإذا لقيت رجلاً زنديقاً او تافهاً كان في وسعك أن تردَّ عليه، ولا يغرنّك بأقوال باطلة تعكّر عقلك الغض، أما تلك العدسة التي جِئتَ على ذكرها فقد رأيتها منذ مدة ليست بالطويلة.

قال ذلك واستردَّ انفاسه وتنهّد، ولا شك أنه كان مسروراً بالحديث اليّ، فقد كانت تعتم في نفسه حاجةٌ قويةٌ الى الكلام. وأظن أني لست مخطئاً اذا قُلت إنه كان في بعض اللحظات ينظر اليّ نظرات غريبة مليئة بالعطف. كان يضع يده على يدي بحنان، ويلاعب كتفي... ويجب أن أعترف إنه كان في لحظات اخرى يغفل عن وجودي، فكأنه وحيد في الغرفة، فاذا واصل كلامه بحماسة كان كمن يكلّم نفسه.

تابع يقول: «إنني أعرف رجلاً عظيم الذكاء ونبيل الاصل وواسع الثراء، برتبةٍ مقدّم يعيش في صحراء جناديفا. وامتنع هذا الرجل عن الزواج منذ كان يعيش بين الناس. وهو يعيش حياة تنسُّكٍ منذ قرابة عشر سنين. انفصل عن الناس حباً بالسكون والوحدة، وأراح حواسه من الرغبات الارضية، ولكنه لا يريد الالتزام بقواعد الحياة الرهبانية. وما أكثر ما عنده من كتب! لم أر هذا القَدْرَ من الكتب في أي مكان إلاّ عنده! وقد قال لي أن ثمنها يبلغ ثمانية الآف روبل. إن اسمه بطرس فالريانوفتش، وقد علّمني اشياء كثيرة في فترات مختلفة، فطالما كنت أحب أن

أصغي اليه. قلت له ذات مرة: «كيف يا سيدي وأنت رجلٌ عظيمُ الفكر، تعيش منذ عشر سنين في طاعة النظام وهجر الارادة والتنازل عن الرغبة. كيف لا تتمنى أن ترتدي ثياب الرهبنة فتزداد كمالاً؟ فقال لي: كيف يا شيخ تجرؤ أن تزعم أن لي فكراً عظيماً؟ لعل فكري هو الذي أسرني وأستعبدني بدلاً من أن أروّضه وأسيطر عليه. وما هذا الذي تقوله عن طاعتي؟ لعلني منذ مدة طويلة قد فقدت القصد والاعتدال! وتتكلم أيضاً عن هجري ارادتي وتنازلي عن رغبتي؟ فاعلم إذن أنني مستعد لأن ادع على الفور مالي وأن استقيل من رتبتي كمقدّم، ولكن، هأنذا منذ عشر سنين أحاول الاستغناء عن تدخين غليوني، إلاّ أني لا استطيع! فأي راهب يمكن أن أكون؟ واين هجر الارادة الذي تمدحه في؟

دُهشت عندئذ من هذا التواضع. وقد مررْتُ بتلك الصحراء في الصيف الماضي يوم عيد القديس بطرس، أراد اللّه لي ذلك، فماذا رأيت في الحجرة؟ رأيت ذلك الشيء الذي حدّثتني عنه: مجهراً كان الرجل قد استقدمه من الخارج، وتحمّل في سبيل ذلك نفقات ضخمة. قال لي: «انتظر قليلاً، سوف أريك شيئاً مدهشاً لم تره في حياتك حتى الآن. هل ترى هذه القطرة من الماء؟ إنها صافيه رائقة كالدمعة. فانظر إذن الى ما في داخلها، فتجد أن علماء الميكانيكا سيكشفون قريباً عن جميع اسرار الرب، فلا يتركون منها واحداً». هذا ما قاله وقد حفظته. وكنت أنا قد نظرت في المجهر قبل ذلك بخمسة وثلاثين عاما عند السيد مالجاسوف، سيّدي القديم، خال السيد فيرسلوف، الذي آلت اليه أملاكه بعد وفاته. كان سيداً خطير الشأن، وجنرالاً كبيراً، ويملك قطيعاً كبيراً من كلاب الصيد، وقد عملت عنده صياداً بالكلاب مدّة طويلة. وكان قد أحضر هو أيضاً هذا الميكروسكوب، فكان يدعو جميع الناس الواحد تلو الآخر، رجالاً ونساءً، للنظر فيه، عارضاً تحت عدسته قملة وبقّة ورأس دبوس وشعرة وقطرة ماء. ما أكثر ما تسلّينا وضحكنا! كنّا نخاف أن نقترب من الميكروسكوب، ولكننا كنّا نخاف مولانا أيضاً اذا نحن لم نقترب، لأنه كان شديد الغضب. وكان بعضنا لا يعرف أن ينظر،

فهم يُغمضون اعينهم فلا يرون شيئاً. وكان آخرون يصرخون خوفاً وهلعاً. حتى إن العمدة سافين ماكاروف وضع يديه على عينيه صارخاً: «إصنع بي ما شئت فلن أنظر!» فانطلق الضحك من كل صوت! كنت إذن قد رأيت هذا الميكروسكوب قبل ذلك بمدة طويلة، قبل ذلك بأكثر من خمسة وثلاثين عاماً، كنت قد رأيت هذه المعجزة، ولكنني لم اقل هذا لبطرس فالريانوفتش، اذا كان يشعر بسرورٍ كبير وهو يعرضها علي، حتى لقد تظاهرت بأنني أدهش وارتاع. فتركني لحظة ثم سألني: «فما قولك يا شيخ؟». قلت موافقاً: «الرب قال: كن يا نور فكان النور،» فأجابني فجأة: «لعل الظلمات هي التي كانت!» قال ذلك بطريقةٍ غريبة دون أن يبتسم. وشعرت في تلك اللحظة باستغراب، أمّا هو فقد غضب ولم يقل بعد ذلك شيئاً.

قلت له: إن الامر بسيطٌ جداً، إن صاحبك بطرس فالريانوفتش يقيم في الدير ليأكل الرز والعنب، ويركع ويسجد، ولكنه لا يؤمن باللّه. وقد اربكته وهو في لحظة من لحظات صراحته تلك. وهذا كل شيء. ثم إنه شخصٌ عجيبٌ جداً، فلا شك أنه رأى هذا الميكروسكوب عشر مرّات، فلماذا جُنَّ به في المرة الحادية عشرة؟ هذا توتر للاعصاب او حساسية مرهفة، أغلب الظن أنه اكتسبها في الدير.

قال ماكار بقناعة كبيرة: «إنه رجلٌ طاهر القلب رفيع الفكر، وليس زنديقاً. إن له عقلاً واسعاً، ولكن قلبه قلق. وما أكثر امثاله الذين يَفِدُون علينا من عند هؤلاء السادة العلماء. ثم اسمع ما سأقوله لك: إن الرجل يُعاقب نفسه. يجب أن تترك هؤلاء الناس دون عذاب، لأنهم يستحقون الاحترام، واذكرهم في صلواتك قبل النوم، لأنهم يبحثون عن اللّه. هل تصلّي قبل أن تنام؟

«كلا، أنا اعتقد أن الصلاة طقس من الطقوس السخيفة لا طائل منها. ويجب أن أعترف لك أن صاحبك بطرس فالريانوفتش يُعجبني: فهو على الأقل ليس العوبةً بل رجلاً، ويشبه بعض الشبه رجلاً آخر قريباً منّا نعرفُه كلانا».

لم ينتبه الشيخ إلاّ الى الجزء الاوّل من جملتي. وأردف يقول: خطأٌ منك يا صديقي الاّ تصلّي، الصلاة شيء حسن يبهج القلب عند النوم، وعند الصحو في

الصباح، وحين يستيقظ المرء في الليل. . .والآن دعني أخبرك شيئاً آخر. في الصيف الماضي في شهر تموز، كنّا نحن الحجاج نحث الخطى نحو دير العذراء احتفالاً بالعيد. فكلما اقتربنا من المكان ازداد عددنا، حتى أصبحنا مائتي شخصٍ تقريبا، مسرعين الى تقبيل الرفات المقدّس للشهيدين آنيكي وجريجوار. كنّا قد قضينا الليل يا بني، في حقل من الحقول، وفتحتُ عيني في الفجر حين كان الجميع لا يزال نائماً، ولم تكن الشمس قد ارتفعت فوق الغابة بعد. رفعت رأسي، ونظرت الى الافق نظرةً شاملة وتنهدت، كان كل شيءٍ جميلاً جمالاً لا يوصف! كل شيء هادئ، الهواء نسيم، العشب ينبت ـ أنبت يا عشب الرب. . . والطائر الصغير يغرّد ـ غرّد يا طائر الرب . . . والطفل الصغير يزقزق على ذراعي امه ـ ليحرسك اللّه ايُها الرجل الصغير، إكبر وكن سعيداً! لعلّني ادركت الجمال يومئذ أوّل مرّة في حياتي! وعدت أرقد، ونمت نوماً ما كان أخفّه واحلاه! العالم جميل يا صديقي! اذا تحسّنت صحّتي فسوف استأنف تجوالي في فصل الربيع. إذا كانت هناك اسرار، فمرحباً بها. صحيحٌ أن الاسرار تُرهب القلب وتُثير فيه العجب، ولكن هذا الخوف يُبهج القلب أيضاً: «كل شيء متجمع فيك أيُها الرب، أنا نفسي موجود فيك، فخذني اليك!». وأضاف يقول برقة وحنان: لا تتململ يا فتى! إن السر يجعل الاشياء أجمل.

إنّك تعني أكثر جمالاً لأن فيه سراً. سوف اتذكّر هذا . لقد عبّرت عن ذلك بصورةٍ غير واضحة، ولكنني أفهم ماذا تريد أن تقول، إن ما يدهشني هو أنك تعرف اموراً وتدركها أكثر مما تستطيع التعبير عنها. وكأنك تتكلّم وأنت في حالة هذيان. . .

أفلتت منّي هذه الملاحظة بصورةٍ غير متعمدة، وأنا أنظر الى عينيه اللامعتين ووجهه الشاحب.

واظن أنه لم يسمعني.

واستأنف يقول كمن يتابع كلامه الذي انقطع: هل تعرف يا بني الصغير، أن

لذكرى الإنسان على هذه الارض حداً؟ إن هذا الحد لا يتجاوز مائة سنة. قد تبقى ذكرى المرء عند اولاده او احفاده الذين رأوا وجهه. وإذا بقيت ذكراه مدّة أطول، فإنما تكون بعد ذلك ذكرى غير مباشرة، لأن جميع الذين رأوا وجهه الحي سوف يمضون وسوف يُخفي العشب قبره في المقبرة، وينكسر الشاهد، وينساه جميع الناس حتى احفاده، واخيراً ينسون إسمه أيضاً، لأن الذين تبقى اسماؤهم في ذاكرة البشر قلّة قليلة جداً. لا بأس! فليبس اعزائي. ولكنّي سأظل انا أحبُّهم من قرارة قبري. أيُها الاولاد الصغار، إنني اسمع اصواتكم الفرحة، وأسمع أصوات وقع اقدامكم على قبور آبائكم في يوم عيد الاموات، وسوف أصلّي من اجلكم، وأنزل اليكم في احلامكم. . .لن يُحدث الموت فرقاً كبيراً، ذلك أن الحب يبقى بعد الموت أيضاً!.

وبدأ ماكار يتكلّم، فقال وقد خفض عينيه قليلاً: «كنت أشعر بالخوف الكبير من هؤلاء المثقّفين والاساتذة، وكانت الطريقة التي يشعرونني فيها بالخوف، لا تسمح لي بأن أقول لهم أي شيء، ولم يكن هناك شيء يخيفني أكثر من الملحدين». كنت أقول لنفسي: «إنني لا أملك إلاّ نفساً واحدة، فإذا ضيّعتها فلن أجد عوضاً عنها»، ولكنني لم اعد أشعر بالخوف منهم فيما بعد، فقلت لنفسي: «ما هم آلهة على كل حال، هم بشر مثلنا، لهم ما لنا من اهواء!» ثم استبد بي حب الاطلاع قوياً شديداً، فقلت لنفسي: «أريد أن أعرف اخيراً ما هو الالحاد الذي يؤمنون به.» ولكن هذه الرغبة اختفت بعد فترة.

وقف عن الكلام لحظة، ورغم أنه بدا وكأنه يريد أن يتحدّث من جديد، لان ابتسامة وقورة هادئة ظهرت على شفتيه.

إن هناك سذجاً يركنون الى جميع الناس دون أن تخطر السخرية لهم ببال. وهؤلاء يكونون على استعداد لأن يخرجوا من قلوبهم أثمن ما تُخفي. ويبدو لي أن ماكار كان يتّصف بشيء آخر غير السذاجة، وأن براءة البساطة لم تكن هي الشيء الوحيد الذي يدفعه الى الكلام. إنه يملك شيئاً من صفات المصلحين. وسرّني أن

ألاحظ لديه استهزاء لا يخلو حتى من بعض المكر، تناول به الدكتور، وربما فرسيلوف أيضاً. وكان واضحاً أن هذا الحديث هو تتمة لاحاديث سابقة جرت بينه وبينهم هذا الاسبوع. ولكن شاء سوء الحظ أن تُفلت تلك الكلمة المشئومة التي كهربتني بالامس، وسقطت مرة أخرى، وفي هذه المرّة فاجأتني بصورة ما زلت آسف لها الى اليوم.

تابع ماكار كلامه بشيء من التركير، فقال: «كنت أخشى دائماً أن التقي برجلٍ ملحد، ولم يتّفق لي يا صديقي الدكتور أن التقيت رجلاً مثلك. وكان الرجال الذين التقيت بهم من المشوشين. وهذا ما يجب أن يُطلق عليهم. أناس من كل نوع، لا يستطيع المرء أن يرى رؤية واضحة ماذا يجعلهم بهذه الصورة، بينهم الكبار والصغار، الحمقى والعلماء، وأفرادٌ من عامة الشعب. وهم جميعاً مشوشون. إنهم يقضون حياتهم كلّها في القراءة والاستدلال والتفكير، وقد امتلأت نفوسهم افتتانا بالكتب، ولكنهم يظلون دائماً في الشك، ولا يستطيعون أن يجدوا إجابة للاسئلة التي يطرحونها. تبعثروا تبعثراً تاماً فاصبحوا لا يلاحظون انفسهم، وتحوّلت قلوب البعض منهم الى حجارة، رغم أنها ما زالت تحتوي على أحلام. ومنهم من أصبح خالياً من الاحساس والافكار، ولكنهم لا يزالون يطلقون السخريات حولهم. ومنهم من لا يأخذ من الكتب إلاّ الافكار الجميلة التي تناسبه، ولكنهم رغم ذلك يبقون مشوشين لا يستقرون على حال. وإنني ارى سأماً كبيراً لديهم. الإنسان البسيط يعيش في عوز، فهو في حاجة الى خبز، ولا يملك ما يقدّمه للصغار، وينام على قش خشن، ولكن قلبه فرحٌ خفيفٌ دائماً. قد يرتكب الخطايا ويقول كلاماً سيئاً، ولكن قلبه يبقى مرحاً خفيفاً. أمّا الإنسان الغني فيمكن أن يأكل وأن يشرب كثيراً، وأن ينام على اكداس ذهبه، ولكن قلبه يبقى مترعاً بالضجر. إن بين هؤلاء من طافوا بجميع العلوم، ولكن الضجر بقي في قلوبهم. أعتقد أن الإنسان كلّما كان أكثر فكراً كان أكثر ضجراً.

فلننظر الى الامر بهذه الطريقة، لقد وجد التعليم منذ ان وجد العالم. فهل

استطاع الانسان بالتعليم ان يجعل هذا العالم مكانا جميلا عامرا بالافراح ؟ مكانا يجد فيه الانسان الفرح الذي يتوق اليه؟ ما هي الاشياء التي يحتاج اليها الانسان؟ إنه الجمال. ولكنهم لا يريدون الجمال. إنهم اموات، ويتباهى كل واحد منهم بموته، ولا يخطر بباله ان يتجه الى الحقيقة "الوحيدة". ان يعيش المرء بغير اله فذلك عذاب. وربما لعن البشر ما قد ينير لهم الطريق، دون ان يفطنوا الى ما يفعلون. اين العقل والحكمة في هذا؟ لا يستطيع الانسان ان يعيش بغير سجود. ولا تحتمل نفسه غير ذلك. وهذا ينطبق على الجميع. فاذا جحد الانسان الله، سجد لمعبود من خشب او من ذهب، او سجد لمعبود صنعه له الخيال. فهؤلاء الذين يقولون إنهم ليسوا بحاجة لله هم ملحدون حقيقيون، هكذا يجب ان نسميهم. وهم اكثر خطرا من غيرهم، لانهم يأتون الينا واسم الله ماثل في افواههم دائما. سمعت عن هؤلاء مرارا، ولكنني لم ألق أحداً منهم. يوجد هناك مثل هؤلاء الناس يا صديقي، واظن انهم لا بد ان يوجدوا.

ان ما كان يجذبني اليه قبل كل شيء آخر، - كما سبق ان ذكرت ذلك،- هو بساطته القصوى، وخلوه من الانانية خلوا تاما، حتى ليشعر المرء ان له قلبا بلا خطيئة تقريبا. كان قلبه عامرا بالفرح، ولهذا السبب كان عامرا بالجمال. وكان يحب كلمة الفرح هذه حبا كثيرا، وكان يستعملها في كلامه كثيرا. صحيح انه كان يصاب بهياج غير طبيعي ويمتلئ بحماس غير عادي، بسبب الحمى التي لم تبارحه طوال هذه المدة. ولكن ذلك لم يقلل من الجمال الروحي في داخله. وكان يتصف عدا ذلك بصفات متناقضة: فالى جانب السذاجة الشديدة التي كانت تجعله عاجزا عن ملاحظة السخرية عجزا تاما (وهذا يحزنني)، كان يتصف بنوع من مكر مرهف يستعمله خاصة في المناوشات الجدلية. كان يحب الجدال بين الفينة والفينة، ويحبه على طريقته الخاصة. إن المرء يلاحظ أنه تجول في مختلف أنحاء روسيا، وسمع كثيرا. ولكنني أعود فأقول انه يحب الحنان اكثر من أي شيء آخر، ويحب كل ما يؤدي اليه. وكان يحب كثيرا ان يقص. لقد سمعت من فمه عددا كبيرا من القصص

عن اسفاره، وانواعا من الاساطير عن الحياة الخفية التي عاشها قدامى النساك. وهذه امور ليست معروفة عندي او مألوفة لي، ولكنني اظن انه كان يمزج بهذه الاساطير اشياء مختلفة كثيرة جاءه معظمها مما يتناقله الشعب البسيط الجاهل. كانت قصصه تمتلىء باشياء لا يقبلها العقل حقا. ولكن الى جانب هذه التحريفات الواضحة كانت توجد هناك دائما تلك الوحدة العضوية المدهشة، والعواطف القوية التي تعبر عن مشاعر شعب بسيط بصورة مثيرة.

لقد حفظت من قصصه مثلا، تلك الحكاية الطويلة التي تسمى حياة ماريا المصرية. لم اكن اعرف حتى ذلك الحين شيئا عن حياة ماريا المصرية هذه، ولا عن حياة أحد غيرها تقريبا. ولكني استطيع ان اقول بصراحة: انه يستحيل على المرء ان يسمع قصة حياة ماريا المصرية دون ان تترقرق الدموع في عينيه، لما تثيره في النفس من حنان، بل بتأثير نوع من حماسة غريبة: ان المرء يحس في هذه القصة بشيء خارق حار كرمل الصحراء المحرقة، التي كانت تجوبها ماريا وتمتلئ بالاسود. ولكن ليس هذا ما أريد أن أتكلم عنه. ولست من اهل الاختصاص في هذا الميدان على كل حال.

ومما أثار إعجابي به، إضافة الى هذه العاطفة المليئة بالحنان، أنه كانت له آراء أصيلة كل الاصالة في مسائل لا تزال موضع خلاف كبير بين الناس في عصرنا هذا. ففي ذات يوم، مثلا، روى لي قصة حديثة عن جندي انتهت خدمته، وقد شهد الحادثة بنفسه تقريبا، فقال ان هذا الجندي حين عاد الى بلده، ووجد نفسه بين فلاحين، لم يعجبوه ولم يعجبهم. فأخذ الرجل المسكين يفقد صوابه رويدا رويدا، واخذ يسرف في الشراب، وقام ذات يوم بسرقة احد الناس. ولم يكن ثمة ادلة قاطعه على ارتكابه هذه الجريمة، ولكنه اعتقل اثناء ذلك وحوكم. واخذ المحامي يدافع عنه وكاد يثبت براءته لعدم توفر الادلة، فاذا بالرجل الذي كان يصغي الى دفاع المحامي ينهض فجأة فيقاطع المحامي قائلا: "لا، انتظر قليلا، ثم طفق يروي الوقائع من اولها الى آخرها، ويعترف بذنبه باكيا نادما. فانسحب

المحلفون واغلقوا عليهم باب القاعة، ثم عادوا يخرجون ليعلنوا بأن "المتهم بريء". فتعالت صيحات الفرح من كل صوب. ولكن الجندي بقي جامدا في مكانه كأنه قد تحول الى عمود من الخشب، لانه لم يفهم شيئا، ولم يفهم ما قاله له رئيس المحكمة حين افرج عنه. وانصرف الجندي اخيرا وهو لا يصدق عينيه ولا يدرك ما يحدث له. واستبد به الضجر، وغرق في التفكير والتأمل، فهو لا يأكل ولا يشرب ولا يكلم من الناس احدا. وبعد خمسة ايام شنق نفسه. وقال ماكار خاتما حديثه: "فانظر كيف تكون الحياة حين تثقل الخطيئة على ضمير المرء".

صحيح ان القصة لا قيمة لها، وان اعمدة جميع الصحف في ايامنا هذه تمتلئ بحكايات من هذا النوع، ولكن الشيء الذي اعجبني انما هو النغمة التي روى بها هذه القصة، وما كان يستعمله ماكار من الفاظ تعبر عن فكرة جديدة حقا. من ذلك انه حين روى لي كيف ان اهل القرية كانوا يقولون عن هذا الرجل العائد: "الجندي فلاح فاسد"، وحين تكلم بعد ذلك عن المحامي الذي كاد يربح الدعوى: "معروف ما المحامي: المحامي ضمير للتأجير". لقد وقع ماكار على هذين التعبيرين عرضاً بدون أي عناء، وبدون ان ينتبه هو نفسه اليهما. ورغم انهما لا يعبران عما يشعر بها عامة الشعب الروسي، إلا أنهما يصوران أحاسيس ماكار الحقيقية. إن هذه الاحكام الجاهزة التي يصدرها الشعب، تكون في بعض الاحيان حافلة بأصالة باهرة حقا.

سألته في هذه المناسبة: " ماكار، ما رأيك في خطيئة الانتحار؟ فاجابني وهو يتنهد: الانتحار اكبر خطيئة يرتكبها الانسان، ولكن الرب هو الحاكم الوحيد، لانه وحده يعرف مدى حدود الاحتمال لدى الانسان ويعرف كل شيء. وواجبنا نحن هو ان ندعو الله لامثال هؤلاء الخطأة الكبار. فاذا سمعت عن خطيئة كهذه الخطيئة، فادع لمرتكبها دعاء حنونا قبل ان تنام، وتشفع له عند الرب ولو كنت لا تعرفه، واذا كنت لا تعرفه فان شفاعتك تكون أجدى أيضا.

ـ هل ينفعه الدعاء وقد حكم عليه؟

ـ ما يدريك؟ ان اناسا كثيرين لايؤمنون، ويضللون من لا يعلمون، فلا تستمع لهم، لانهم لا يعرفون الى اين هم ماضون. ان صلاة صادرة عن انسان حي من اجل انسان ميت تصل الى الرب فعلا. ولكن ما عسى ان يصير اليه من ليس له احد يصلي من اجله؟ لذلك يجب عليك، حين تصلي قبل النوم، ان تضيف هذا الدعاء: "ارحم يا يسوع ايضا اولئك الذين ليس لهم احد يصلي من اجلهم". ان هذا الدعاء نافع جدا، مبهج جدا، بل صل كذلك من اجل الخطأة الذين لا يزالون احياء. قل: "رب أنقذ جميع السادرين في ذنوبهم بما تعرف من وسائل". هذه ايضا صلاة حسنة.

وعدته بأن أتلو هذه الصلوات، لانني أحسست ان هذا الوعد سيسره سرورا عظيما. وقد سطع الفرح في وجهه فعلا حين قطعت له على نفسي هذا العهد. ولكن يجب علي ان اسارع فأضيف ان ماكار كان في مثل هذه الاحوال لا ينظر الي من عل، كناسك يخاطب مراهقا غرا. بل كان يحب في كثير من الاحيان ان يصغي الي، وان ينصت الى كلامي بدون كلل في مواضيع شتى، وكان يرى انه اذا كان يتفوق علي بالسن فانني اتفوق عليه كثيرا بالثقافة.

يحب في احيان كثيرة ان يتكلم عن النساك، وكان يضع "عزلة الصحراء" في منزلة اعلى كثيرا من منزلة "جوب الآفاق" فكنت اوجه اليه اعتراضات شديدة، واشدد على انانية هؤلاء الناس الذين يهجرون العالم، ويتركون ما يستطيعون ان يقدموه للانسانية من خير، لا لشيء الا لخلاص انفسهم. فلم يفهمني في اول الامر، بل لعله لم يدرك ما كنت اتحدث عنه، ولكنه ظل يدافع عن عزلة الصحراء.

كان يقول : "ان المرء يشفق على نفسه في اول الامر طبعا، أي حين يستقر في الصحرا، ثم يغتبط يوما بعد يوم، ولا يزال يزداد اغتباطه الى ان يرى الرب آخر الامر".

ثم اخذت أصوّر له تصويرا كاملا ما يقوم به العالم والطبيب وصديق الانسانية عامة من عمل مفيد، فاستطعت أن أصل به الى حماسة صادقة، لانه أخذ هو نفسه

يتكلم عن هذا بحرارة، وكان يؤيدني في بضع اللحظات قائلا: "نعم يا بني نعم، باركك الله، إنك على حق!" ولكن، حين كنت أفرغ من كلامي، كان لا يوافقني مع ذلك موافقة كاملة. وقال متنهدا تنهدا عميقا: "هذا كله حسن، ولكن هل هم كثيرون اولئك الذين يصمدون ويواظبون على الاهتمام بسعادة الآخرين؟ اذا لم يكن المال إلهاً فهو نصف إله. إنه إغراء كبير. ثم هناك وسائل اخرى للاغراء وهي: المرأة والزهو والحسد. فاذا بالمرء ينسى القضية الاساسية، ويمضي يهتم بالامور الصغيرة. وكذلك في "عزلة الصحراء"، يقوى المرء نفسه ويكون مستعدا للقيام بجميع المبرات والاعمال المقدسة. نعم يا صديقي. اما في العالم فماذا يحدث؟" ثم هتف يقول بعاطفة قوية: "أليس العالم حلماً لا أكثر؟ ان ذلك يشبه الرجل الذي يحاول ان يبذر برش الرمل فوق الارض الصخرية. فاذا نبت الرمل الاصفر فوق الحصى فسوف يتحقق حلمك في العالم". هذا ما يقولونه عندنا. اما عند المسيح فيقال: "امض وزع ثروتك، واجعل نفسك خادما للجميع"، فتصبح عندئذ اغنى مما كنت الف مرة. ذلك ان السعادة لا يصنعها الطعام وحده، ولا الثياب الثمينة، ولا الزهو والحسد، وانما يصنعها حب لا نهاية له. ان ما ستكسبه حينذاك ليس ثروة ضئيلة، ولا مائة الف، ولا مليونا، وانما انت ستكسب الكون بأسره! نحن الآن نجمع المال بدون شبع، ونتلفه بجنون. اما حينذاك فلن يبق يتامى ولا فقراء، لان الجميع لي انا، لان الجميع اقرباني، كسبتهم جميعاً، اشتريتهم الى آخرهم. ليس بالامر النادر أن نرى اليوم اناسا اغنياء او من اصحاب الشأن لا يهتمون بعدد ايامهم، ولا يعرفون هم انفسم الطرق المناسبة لقضاء هذه الساعات. اما حينذاك فان ايامك وساعاتك ستتضاعف الف مرة، لانك لن ترغب في ضياع دقيقة صغيرة واحدة، وستشعر في كل دقيقة من حياتك بالفرح في قلبك. وعندئذ سوف تكتسب الحكمة لا من الكتب وحدها، لانك ستكون مع الرب نفسه وجها لوجه. وسوف تتألق الارض عندئذ اكثر مما تتألق الشمس، ولا يكون حزن ولا تأوه، وسيصبح العالم كله جنة".

احاديث الأب زوسيما وتعاليمه

ياتي هذا المقطع من قصة "الاخوة كارامازوف" مباشرة بعد الملاحظات البيانية عن الأب الاكبر زوسيما (انظر الفقرة التقديمية) ولا يوجد شك لدينا بان هذه المقطع يمثل شهادة دوستويفسكي الدينية.

الراهب الروسي والدور الذي يمكن ان يقوم به:

ما هو الراهب يا إخوتي ومعلميّ؟ ينطق عدد من المثقفين من بين الناس بهذه الكلمة في هذه الايام بسخرية، ويعدها بعضهم الآخر مسبة او اهانة. وما زال سوء الفهم هذا يزداد بمرور الزمن. صحيح ان بين الرهبان واسفاه، من يتصف بالكسل والفجور والفسق. وهؤلاء مجموعة من الاشقياء الذين ارتموا في الاديرة. ويشير المثقفون في المجتمع الى هؤلاء بقولهم: "انتم كسالى ولا خير ولا نفع للمجتمع منكم، انتم متسولون، تعيشون كالطفيليين، ولا شرف لكم". ورغم ذلك ما اكثر المتواضعين الوادعين بيننا! ما اكثر الذين لا يطمحون الا الى ان يصلّوا للرب صلاة حارة في عزلتهم الهادئة! ان الناس لا يلقون بالا الى هؤلاء، ولا يأتون على ذكرهم البتة. وما اشد الدهشة التي سيشعر بها اولئك، اذا علموا ان روسيا المقدسة، سينقذها مرة اخرى في يوم من الايام هؤلاء الرهبان المتواضعون الذين يحبون العزلة والصلاة! ان هؤلاء الرهبان يستعدون بصمت "لليوم والساعة، والشهر والسنة" التي سيحين حينها. انهم الآن يسهرون امام صورة المسيح، محاولين بكثير من التقى والخشوع في حياتهم وعزلتهم، ان يحافظوا على ما لهذه الصورة من سناء ونقاء الحقيقة الالهية، وفقا لتعاليم آباء الكنيسة والرسل والشهداء.

حتى اذا دقت الساعة ذكّروا البشر برسالته للعالم الذي تداعى الايمان فيه. ان هناك فكرة عظيمة. وهي ان النجم سيظهر اخيرا من الشرق.

هذه هي وجهة نظري في الرهبان. هل هي خاطئة، او ان فيها شيئا من المبالغة؟ انظروا الى العلمانيين، هؤلاء الذين يعيشون في المجتمع ويعدون انفسهم اعلى من رجال الدين: الم يدنسوا انفسهم ويخونوا الحقيقة الالهية، وقد خلقوا على صورة الرب؟ انهم يملكون العلم، والعلم لا يعرف الا ما تدركه الحواس. اما الكون الروحي، والعنصر الاسمى في الطبيعة الانسانية، فقد رفضوه ونبذوه، شاعرين بفرح الانتصار، بل وبنوع من الكره. ان العالم يعتز بالحرية، ولا سيما في ايامنا هذه، ولكن ما الذي تؤدي اليه هذه الحرية، وما الذي نراه يتأكد باسمها؟ عبودية النفس والانتحار الاخلاقي. يقول الناس: " ان لك رغبات، فعليك ان تسعى الى ارضائها، لان حقوقك لا تقل عن حقوق الاغنياء والكبار. لا تخش ارضاء رغباتك وتنوعها. هذه هي العقيدة التي يؤمن بها الناس اليوم، وهذه هي الحرية كما يتصورها الناس في هذا العصر. فما الذي يؤدي اليه هذا الحق في تنوع رغبات المرء ؟ انه يؤدي الى العزلة والموت النفسي عند الاغنياء، والكراهية والقتل لدى الفقراء. ذلك ان الناس قد اعطوا حقوقا، ولكنهم حرموا من وسائل تحقيقها. ويزعم بعضهم ان العالم يتجه نحو مزيد من الاتحاد، ذلك ان زوال المسافات وانتشار الفكر يزيد من الاخوة والتضامن.

واحسرتاه! لا تضعوا ثقتكم في مثل هذا التضامن والاتحاد. ان تفسير الحرية على انها قدرة الفرد على الاكثار من حاجاته وارضائها بسرعة، يشوه طبيعته، ويثير فيها حاجات باطلة لا سبيل الى تحقيقها، ويخلق لديه عادات سيئة واوهاماً زائفة. فلا يعيش الناس الا في الحسد لاشباع شهواتهم وارضاء غرورهم. ان اقامة الحفلات، والخروج في النزهات، والتمتع بالمآدب، واقتناء العربات الفاخرة، والظهور بالمظاهر الخلابة، وامتلاك الخدم والاقنان، يبدو لابناء المجتمع كضرورة لا غنى لهم عنها، وحاجة يضحوا بحياتهم وشرفهم في سبيلها، وقد يتخلى

الانسان عن حب اخيه الانسان، او يؤثر الانتحار على ان يتنازل عنها. وهذا يصدق ايضا على من لا يملكون ثراء طائلا. اما الفقراء فانهم ينجرون الى السكر، لما يشعرون به من حسد، وما يدركونه من استحالة ارضاء رغباتهم. وسيأتي اليوم الذي يسكرون فيه بالدم لا بالخمر. فالى هذا انما يدفعون. واني اسأل... اذا كانت هذه هي الحرية ؟ لقد عرفت في الماضي مثقفا كان "يناضل في سبيل فكرة". وقد قال لي هذا الرجل في ذات يوم انه حين حرم من التدخين في السجن بلغ الم من هذا الحرمان انه اوشك ان يخون فكره في سبيل التدخين. وكان يزعم انه يريد ان "يناضل في سبيل الانسانية".

كيف يمكن لمثل هذا الرجل ان يقاتل... وما هو العمل الذي يصلح له؟ انه عاجز الا عن اندفاعات مؤقته وعمل عفوي، اما الثبات والاستمرار فلا طاقه له بهما. فهل من الغريب بعد هذا ان لا يجد البشر الحرية بل العبودية، وان لا يخدموا الانسانية او يعملوا على توحيدها، وانما وقعوا في الخلافات والعزلة، كما قال لي في شبابي زائري العجيب ومعلمي ذاك ؟ لهذا فان فكرة العمل من اجل الانسانية والاخوّة والتضامن بدأت تفقد مكانتها في عالم اليوم، واصبحت مثل هذه الافكار لا تثير الا السخرية. وآن الاوان للانسان فعلا ان يتحرر من عاداته المكتسبة، وماذا يمكن ان يصير اليه الانسان الذي استعبدته حاجاته، وتعلم ان يرضى الشهوات الكثيرة التي خلقها لنفسه؟ انه يعيش في عزلة روحية، ولا يتوافر لديه أي اهتمام لبقية البشر؟ هذا ما وصل اليه الناس اليوم، كدسوا الثروات الكبيرة، ولكن الفرح تناقص في قلوبهم.

ان الحياة الرهبانية مختلفة تماما. كثيرا ما يسخر الناس من الطاعة والصيام والصلاة، مع انها في الواقع السبيل الوحيد الى بلوغ الحرية الحقيقية: انني حين اضحي بحاجاتي الزائدة، وحين أسيطر بالطاعة على ارادتي المزهوة بالانانية، انما ارتفع بعون الله الى الحرية الروحية التي تهب لي الفرح النفسي. ايهما اكثر تأهبا للنضال في سبيل فكرة عظيمة، الغني الذي يعيش في عزلته الروحية، ام الراهب

الذي تحرر من استبداد العادات والحاجات المادية؟ ان بعض الناس يأخذون على الرهبان انهم معتكفون، فهم يقولون لهم: "لقد اعتزلتم العالم لتضمنوا سلامتكم وراء جدران دير، ونسيتم واجب الخدمة الاخوية للانسانية". لسوف نرى من الذي سيخدم قضية الاخوة الانسانية خيرا من غيره. إلا أنهم هم الذين يعيشون في العزلة، لا نحن، ولكنهم لا يدركون ذلك. ومن بيننا انما خرج، منذ اقدم العصور، اولئك الرجال الذين ناضلوا في سبيل سعادة الشعب. فلماذا لا يكون الامر على هذا النحو اليوم؟ لسوف يرى هؤلاء الرهبان المتواضعون الذين يلتزمون قواعد الصيام والصمت، في يوم من الايام يهبون للقيام بعظائم الاعمال. ان الشعب هو الذي سينقذ روسيا، وكان الرهبان الروس متحدين بشعبنا اتحادا قويا في جميع الاوقات. اذا كان الشعب في العزلة فنحن في العزلة ايضا. ان ابن الشعب يؤمن بما نؤمن به نحن. اما المصلحون الملحدون، فانهم لن يتمكنوا من عمل شيء لاجل روسيا، ولو صدقت قلوبهم وكانوا ينعمون بذكاء عبقري. تذكروا هذا! ان الشعب سيثور اخيرا على الملحدين وسيتغلب عليهم. وسوف تسترد روسيا وحدتها الروحية في الارثوذكسية. اسهروا على الفلاح، وحافظوا على طهارة روحه، ودربوه على الصمت، هذه هي رسالتنا ايها الرهبان، لان الفلاح يحمل الله في نفسه.

حديث عن السادة والخدم

هل يمكن ان يصبحوا اخوة في الروح:

لا شك ان الفلاحين ايضا يعيشون في الخطيئة بطبيعة الحال، فالشر ينتشر رويدا رويدا، وينتقل من الطبقات العليا الى عامة الشعب. وسيصبح الشعب في عزلة روحية ايضا. ونرى ظهور المحتكرين والمستغلين، ويزداد الظمأ لدى التجار الى المجد والظهور بمظهر المثقفين، رغم انهم لا يملكون اية ثقافة في الواقع. ويعتقدون انهم يصلون الى ذلك باحتقارهم للعادات القديمة، ويبلغون في هذا حد الشعور بالخجل والعار من ايمان آبائهم. انهم يترددون على المجتمعات الراقية، رغم انهم ليسوا الا فلاحين فاسدين. ان الادمان على الخمر يهلك روح الفلاح ولا

يستطيع التحرر منه. ما اشد قسوة حياة المرأة وحياة الاطفال في الاسر الفقيرة! ان الاسراف في شرب الخمرة هو سبب ذلك. لقد رأيت اطفالا يعملون في المصانع ولم يبلغوا العاشرة من اعمارهم: لقد انحنت ظهورهم واصابهم الضعف وفسدت اخلاقهم منذ الآن. ان غرف المشاغل الخانقة، وضجة الآلات، والعمل طوال النهار دون انقطاع، والالفاظ البذيئة، والمشروبات الكحولية، لا تخلق مناخا صالحا لنشأة الاطفال. يحتاج الاطفال الى الشمس واللعب والقدوة الحسنة، وقليل من العاطفة والحنان! يجب ان تنتهي هذه الحالة ايها الرهبان، وان يتخلص الاطفال من العذاب! اذهبوا الى الناس وقدموا لهم النصح باقصى سرعة.

وسينقذ الله روسيا رغم كل شيء. ذلك ان الفلاح الذي تدهورت احواله واصبح لا يشعر بالقدرة على التراجع عن هذه الخطايا الرهيبة، يعلم على الاقل ان سوء سلوكه هذا لا يرضي الرب، وانه يخطئ اذ ينقاد للشر. ان شعبنا لم يفقد ايمانه بالخير، مؤمن بالله، ويبكي ندما على خطاياه بدموع صادقة.

وليس هذا حال ابناء المجتمع الراقي واسفاه! فهؤلاء يدعون اقامة العدالة بمعونة عقلهم وحده، مستلهمين تعاليم العلم، مستغنين عن المسيح بعد اليوم. حتى لقد نادوا منذ الآن بأنه لا توجد خطيئة، ولا جريمة. ولا شك انهم على حق في وجهة نظرهم: فاذا لم يكن هنالك اله، لم يكن هناك خطيئة! تثور الشعوب في اوروبا على الاغنياء وتريد ان تقاتل بالقوة، ويقودهم الزعماء في كل مكان الى اراقة الدماء، لان غضبها حق وعدل. الا ان "الغضب ملعون لانه قاس". ان روسيا سيخلصها الرب، كما سبق ان خلصها مرارا في الماضي. وسيأتي الخلاص من الشعب، بما يملكه من روح الاذعان لمشيئة الله، وايمان بوجود الله.

يا آبائي ومعلمي، حافظوا على ايمان شعبنا، لان ما ابشركم به الآن ليس حلما من الاحلام، ولطالما شاهدت اثناء حياتي كلها مما يتمتع به شعبنا الروسي العظيم من كرامة صادقة ونبل كبير. لقد رأيت هذا بنفسي، وكنت شاهدا عليه، وفي وسعي ان أؤكد لكم، رغم الخطايا الكثيرة والبؤس الشديد ، ان الفقراء

والصغار لم يصبحوا عبيدا في بلادنا، بعد قرنين من الرق، بل حافظوا على الحرية، دون اية غطرسة مع ذلك، ولم تعصف بنفوسهم روح الحسد والانتقام. يقول لسان حالهم: "انت غني وفي مرتبة عالية، وذكي وصاحب موهبة. انني اعلم ذلك، واسأل الله ان يحميك! انني احترمك، ولكنني لا انسى انني انسان. واذا احترمتك دون ان احسدك، فانني اثبت امامك كرامتي الانسانية".

لئن كانوا لا يقولون هذا الكلام صراحة - لانهم لا يحسنون التعبير عما في نفوسهم،- فان هذا الموقف النفسي يتجلى في سلوكهم. رأيت ذلك، وكنت شاهدا عليه. صدقوني اذا قلت لكم: ان نفس الشعب الروسي تزخر بالحقيقة النبيلة على قدر ما يكون فقيرا بسيطا، ذلك ان الذين اغتنوا منهم قد اصبحوا محتكرين ومستغلين، وفسدت اخلاق اكثرهم منذ الآن، وهذا امر نسأل عنه نحن انفسنا بعض الشيء بسبب اهمالنا وعدم اهتمامنا. ولكن الرب سينقذ ذويه، لان روسيا عظيمة باذعانها لمشيئة الله. انني احلم بمستقبلنا، فيبدو لي احيانا انني اراه: سيأتي يوم يشعر فيه افسد اغنيائنا اخيرا بالخجل والعار من ثرواته امام الفقير، وسيبرهن الفقير، بعد ان يرى الغني مذلته، على حسن الفهم هو ايضا، فيترك له خيراته فرحا، مستجيبا بالحب للتوبة النبيلة، يتوبها ذاك الذي انعم عليه القدر. صدقوني ان هذا ما سيكون، لان هذا هو ما يقودنا اليه التطور. لن يكون هناك مساواة الا في الشعور بكرامة الانسان الروحية، وهذه حقيقة غير مفهومة الا في بلادنا. ولسوف تسود الاخوة، متى اصبح البشر اخوة بالقلب، ويبدو ان هذه الاخوة لا يمكن ان تكون بدون قسمة عادلة للثروة. فلنحتفظ في انفسنا بصورة المسيح، حتى تشرق على العالم في يوم من الايام درة تشع ضياء!

يا آبائي ومعلميّ، لقد اتفق لي في الماضي ان عانيت تجربة تهز النفس هزا قويا. حينما كنت اتجول في روسيا، التقيت في مدينة "ك"... وهي مركز مقاطعة، بخادمي الجندي افانازي الذي لم اكن قد رأيته منذ ثماني سنين، أي منذ اليوم الذي صرفته فيه الى الثكنة. لقد لمحني مصادفة في السوق، وعرفني فهرع الي وقد استخفه الفرح: "اهذا انت يا مولاي، انت؟ هل يمكن حقا ان تكون انت؟"

وقادني الى منزله، كان قد تحرر من الجندية وتزوج وانجب طفلين، ويعيش مع اسرته من تجارة صغيرة على بسطة. ان مسكنه ضيق ولكنه نظيف مضيء، فلما اجلسني، سخن إناء الشاي "السماور" واستدعى امرأته، كأن زيارتي عيد له، وقدم ولديه إلي قائلا: "باركهما يا ابانا."

فأجبته: هل أنا من يباركهما؟ ما انا الا راهب متواضع. سأدعو الله لهما. اما انت يا افانازي، فاني ما كففت عن الدعاء لك كل يوم، منذ ذلك الحادث الذي وقع بيننا، لان كل شيء قد بدأ يومذاك.

شرحت له ما وسعني ان أشرح، فكان ينظر الي مدهوشا، لا يستطيع ان يفهم أن مولاه القديم، الضابط ، موجود الآن امامه بمسوح راهب بسيط، فأخذ يبكي.

سألته: لماذا تبكي ؟ إنه من الافضل أن تفرح يا صديقي العزيز الذي سأذكره دائما، لان الطريق الذي اخترته لنفسي جميل ومضيء.

كان لا يتكلم وانما يتنهد ويهز رأسه بتأثر شديد، وسألني:

ـ ما صنعت بثروتك؟

فاجبته: وهبتها للدير الذي نعيش فيه حياة مشتركة.

وودعتهم بعد ان شربنا الشاي، فاذا هو يعطيني نصف روبل للدير، ويدس في يدي خلسة نصف روبل آخر، وهو يقول: "هذه لك انت. فما دمت راهبا تضرب في الارض فقد تنفعك في الطريق."

قبلت صدقته، وحييته وحيت امرأته، وانصرفت مبتهج القلب، أحدّث نفسي قائلا: "لا شك انه مثلي في هذه اللحظة، يتنهد تارة ويبتسم تارة اخرى، هازا رأسه متسائلا كيف جمع الرب بيتنا من جديد".

ولم اره منذ ذلك الحين، لقد كنت سيده وكان خادمي، ولكنا حين تعانقنا

اثناء لقائنا بمحبة وحنان، اعدنا اقامة الاخوة الانسانية الكبرى بيننا. لطالما فكرت في هذا الامر بعد ذلك، واني لاتساءل اليوم: "لماذا لا يكون من الممكن ان يتحقق الاتحاد بين الروس على هذه الطريقة البسيطة الصادقة، في يوم من الايام متى آن الآوان؟". انني اعتقد بأن هذا الاتحاد العظيم سيتم وان ساعته اقتربت.

واني اضيف ما يلي في موضوع الخدم: كنت في السنين الاولى من شبابي اغضب على الخدم: "سكبت الطباخة حساء ساخنا على ثيابي، ولم ينظف الخادم ثيابي بالفرشاة". وتذكرت عندها شيئا كنت قد سمعته منه في طفولتي من اخي العزيز: "هل أنا جدير بأن يخدمني الانسان؟ هل يحق لي ان اعده ادنى مني لانه فقير جاهل؟" وقد ادهشني بعد ذلك ان مثل هذه المعاني البسيطة الواضحة لا تتوارد الى افكارنا الا متأخرة.

إن الحياة تصبح اليوم مستحيلة ما لم يكن هناك سادةٌ وخدم، فلا أقلّ من أن نجعل معاملتنا تُشعر خدمنا بأن خدمتهم إيانا لا تُنقص حريتهم. لماذا لا نصبح خدماً لهم؟ إنهم إذا لاحظوا أننا لا نتكبّر عليهم، سيتحرّرون هم من الشك فينا. لماذا لا نعدُّهم اقرباء ولا نستقبلهم في أسرنا مبتهجين بوجودهم بيننا؟ إن هذا الموقف يمكن اتخاذه منذ الآن، ويمكن أن يقود الى الوحدة العظيمة لبني البشر في المستقبل، يوم يشعر الانسان أنه ليس في حاجة الى ان يكون له خدم، ويحاول أن لا يرد اقرانه البشر الى العبودية كما يفعل الآن، وإنّما يتطلّع بكل احاسيسه الى أن يُصبح خادماً لجميع الناس عملاً بروح الانجيل.

اتظنون أنه حلمٌ باطل أن يراودنا الامل في أن نرى البشر اخيراً ينشدون السعادة في السمو النفسي وممارسة المحبة، بدلاً من السعي الى الملذّات المتوحشة في النهم والفجور وحب الظهور، والظمأ الحاسد الى الارتفاع فوق الاخرين؟ أمّا أنا فإنني اؤمن ايماناً راسخاً بأن هذا ليس املاً باطلاً، وأن الزمان الذي سيتحقق فيه قد اقترب. إن الناس يسألونكم ساخرين: «متى يأتي هذا الزمان، وهل ما نراه الآن في العالم يسمح بمثل هذه التنبؤات؟ إنني اعتقد بأننا سنحقق هذا العمل العظيم

بمعونة المسيح. ما أكثر الافكار التي بدت في الماضي مستحيلة التحقيق، والتي عُدّت قبل عشر سنين افكاراً حمقاء طائشة، ثم اذا هي تنتصر فجأةً على الارض وتنتشر في كل مكان، لأن ساعة تحقُّقها قد دقّت وكانت خافية غير معروفة! هذا ما سيكون في بلادنا، وسيُشرق نور شعبنا على الانسانية، ويهتف جميع البشر عندئذ قائلين: «إن الحجر الذي رفضه البنّاءون، قد أصبح حجر الزاوية في البناء».

أمّا الساخرون المستهزئون فإننا نستطيع أن نُلقي عليهم بدورنا هذا السؤال: «اذا كانت جميع اشواقنا اضغاث احلام، فهلا قلتم لنا متى تقدرون أن تشيّدوا بناءكم، وأن تنظموا انفسكم على العدل بمعونة العقل، وبدون معونة المسيح؟» قد يجيبون بأنهم هم الذين سيقيمون الوحدة الانسانية، ولكن السذج، هم الذين يؤمنون بهذا الكلام، حتى ليمكن أن يُدهش المرء من بساطة هؤلاء. الحق أن في افكارهم من الخيال ما ليس في افكارنا نحن. إنهم يأملون أن يُقيموا العدل في هذا العالم، لكنهم وقد رفضوا المسيح سوف ينتهي بهم الأمر الى إشعال الحريق وسفك الدم في كل مكان. لأن العنف يستدعي العنف، ومن يُشهر السيف يهلك بالسيف. ما لم نؤمن بوعد المسيح، سيُبيد البشر بعضهم بعضاً، الى أن لا يبقى منهم على قيد الحياة إلاّ اثنان. وهذان الاثنان سيكونان عاجزين من غطرستهما عن التفاهم، فإذا بأحدهما يقتل الثاني آخر الامر ثم يقتل نفسه. ذلكم ما سيحدث إذا لم يتحقق وعد عيسى بوقف ذلك، حباً بالضعفاء والمسالمين الودعاء.

حين كنت ما أزال أرتدي البزة العسكرية بعد المبارزة، تحدّثت الى الناس كثيراً عن الخدم، فكان المستمعون يُعجبون من كلامي ويسألون: هل علينا أن ندعو خدمنا الى الجلوس على أريكة، وأن نقدّم اليهم الشاي. وأجبت عن هذا السؤال مرّة بقولي، إنني اتذكّر هذا: «لِمَ لا، ولو من حين الى آخر؟» فسخر الحضور مني، إلاّ أن سؤالهم يدل على خفة عقولهم. إن إجابتي لم تكن واضحةً تماماً، انا أسلّم بهذا... ويخيّل اليّ اليوم أن فيها شيئاً من الحقيقة.

حديثٌ عن المحبَّة والصلاة، ومعرفة الحياة الآخرة:

لا تنس أن تصلّي أيُّها الشاب، فإذا كانت صلاتك صادقة، صاحبها في كل مرة شعور جديد، ووُلد هذا الشعور الجديد فكرة جديدة كنت تجهلها الى ذلك الحين، فكرة ستشدُّ أزرك وتقوّي عزيمتك بعد ذلك. وستدرك عندئذ أن الصلاة تربيةٌ للنفس. تذكّر أيضاً أن تردد كل مساء وكلّما استطعت الى ذلك سبيلاً: «هب رحمتك يا رب لكل الذين يمثلون أمامك الآن». ذلك أن الوفاً من البشر يبارحون الارض في كل ساعة، في كل دقيقة، وتمضي ارواحهم أمام الخالق. ما أكثر الذين قضوا نحبهم في العزلة، بعيدين عن نظر أي صديق، ممتلئي القلب مراراةً وحزناً، لأن احداً لن يأسف على رحيلهم، حتى أن حياتهم ستكون قد انقضت دون أن يراها احد. لن يعلم احد غداً أنهم عاشوا، فإذا بصلاتك تصعد فجأة الى الرب من الطرف الاقصى من الارض تدعو لروح من الارواح، رغم أنك لم تعرف هذه الروح، ولا تعرف هي من انت. ولسوف تتأثر هذه الروح من ذلك تأثراً عظيماً حين تمثل جزعة أمام الإلٰه العليّ القدير. سوف تعلم أن أحداً يصلّي لله من أجلها هي أيضاً، سوف تعلم أن على الارض إنساناً واحداً على الاقل يتشفع لها ويحبها. وسينظر الرب عندئذ اليك بمزيد من التسامح، لأنك قد اشفقت على ذلك الميّت، وسيكون الرب أكثر رحمةً به، لأن حبه أوسع من حبّك، وإحسانه أعظم من احسانك. وسيعفو اللّٰه عنه بسببك.

يا اخوتي، لا تخافوا من خطايا البشر، احبُّوا البشر رغم خطاياهم، فبذلك تعرفون المحبَّة العظمى التي هي على صورةِ محبَّة الرب. احبُّوا خلق اللّٰه جميعاً، واحبُّوا كل ذرّة من الرمل وكل ورقة شجرة، وكل شعاع ضوء! احبُّوا الحيوانات، احبُّوا النباتات، احبُّوا كل الموجودات. إنكم حين تُحبُّون الخليقة تنفذون الى السر الإلهي الذي تتضمنه، والمعرفة التي تحصلون عليها بهذا ستنمو بعد ذلك، ثم ما تنفكُّ تكبر في كل يوم، فإذا حبُّكم يعمُّ الكون بأسره، ويصبح شاملاً. احبُّوا البهائم لأن الرب قد وهب لها بذرة فكر، وأودع في قلبها فرحاً بريئاً. لا تعكّروا

هناءها، لا تحملك كبرياؤك على التعالي على الحيوانات، فهي بلا خطيئة، أمّا انت فانك مع عظمتك تدنّس الارض بوجودك، وتترك اثراً نجساً حيث تمرُّ. ذلك شأننا جميعاً والأسفاء! ذلك شأننا جميعاً، بغير استثناء تقريباً ـ احبُّوا الاطفال خاصة، لأنهم كالملائكة بلا خطيئة، إنهم يعيشون لفرح قلوبنا وتطهير نفوسنا، كقدوةٍ مضيئةٍ الى جانبنا. ويلٌ للذين يُسيئون الى الاطفال! لقد علّمني الأب «أنتيم» أن أحبَّهم، كان هذا الراهب المتواضع، يشتري بالدريهمات التي توهب لنا اثناء طوافنا، الحلوى لكي يوزعها على الاطفال. كان لا يستطيع أن يراهم دون أن تهتز نفسه اهتزازاً عميقاً. هذه هي طبيعة الانسان.

إن شكاً يراودنا في بعض الاحيان، ولا سيّما حين نرى الخطيئة فنسأل عندئذ: «أنردُّ بالقوة أم بالحب والتواضع؟». عليك دائماً بالرفق واللين. فمتى اخترت الرفق واللين الى الأبد، استطعت أن تستولي على الارض بأسرها. ان الحب المتواضع قوّة هائلة، أقوى من سائر القوى ليس لها مثيل في العالم.

راقب سلوكك في كل ساعة وفي كل دقيقة من اليوم، حتى تُشعَّ الطهارة منك. قد تمر قرب طفل وقد عصف بك الغضب، فتفلت من لسانك كلمة سيئة، دون أن تلحظ وجود الطفل، ولكن الطفل يشاهدك، وصورة الملحد الثائر التي تعكسها له ستنطبع في قلبه البريء. واذا كان لم يخطر ببالك شيء من هذا، إلاّ أنّك قد بذرت بذور الشر في هذا الكائن الصغير، وقد تنمو هذه البذرة السيئة في قلبه. كل ذلك لأنك لم تراقب نفسك اثناء وجوده، وتوانيت عن تعهُّد الحب اليقظ الفعّال في نفسك. الحب يا اخوتي معلّم كبير، ولكن يجب أن نعرف كيف أن نحافظ عليه، إنه لا يكتسب بسهولة، وإنما يحصل عليه الإنسان بثمنٍ باهظ، وجهد متواصل. ذلك أن المقصود ليس هو أن تحبَّ مؤقتاً ومصادفةً، فالإنسان الشرير يستطيع أن يشعر بحب طارئ عابر.

لقد كان اخي يستغفر العصافير، وقد يبدو أن هذا سخيفاً من أوّل نظرةٍ، ومع ذلك كان اخي على حق، لأن الحياة أشبه ببحر تختلط فيه جميع الامواج

وتتمازج. إن ضربةً تقع في مكان ما، تترك آثاراً في الطرف الآخر من الارض. هل استغفار العصافير أحمق الى هذا الحد؟ لو كنت خيراً مما انت الآن، لشعر العصفور والطفل وكل كائن حي آخر بمزيد من الأمن والطمأنينة في قربك. أعود فأقول: إن الكون أشبه بالمحيط تتواصل جميع اجزائه، فمتى أدركت هذه الحقيقة استغفرت العصافير أنت أيضاً. إذا أدركت هذه الحقيقة تملّكك حب واسع يملأ قلبك سعادةً ووجداً، وتسألها أنت أيضاً أن تغفر لك خطاياك. فتعهد هذه الحماسة الروحية، مهما بدت سخيفة في نظر الناس.

يا اصدقائي، إسألوا الرب أن يهب لكم الفرح. كونوا فرحين كالاطفال، والعصافير الصغيرة في السماء. ولا تدعوا الاضطراب يستولي عليكم، ولا خطايا البشر أن تصرفكم عن جهودكم، ولا تخشوا أن تعيق عملكم او أن لا تسمح له بالاكتمال. لا تقولوا أبداً «إن الشر في هذا العالم قوي، وإن الظلم منتصر، وإن الاشرار مسيطرون، ونحن نعيش في عزلة لا حول لنا ولا قوّة ولا سلطان، وإن القوة الشريرة ستدمّرنا قبل أن نستطيع القيام بعمل صالح». لا تدعوا لهذا اليأس يا ابنائي أن يستولي عليكم. وليس هنالك إلاّ سبيلٌ واحدة تنفع المرء في الخلاص، ألا وهي أن يُعدَّ نفسه مسئولاً عن جميع خطايا البشر. وتلك هي الحقيقة يا اصدقائي. فمتى اعترفتم بأنكم مسئولون عن كل شيء تجاه جميع الناس، ادركتم أن الامر هو كذلك حقاً. أمّا إذا ألقيتم على عاتق غيركم ما هو في الواقع نتيجة كسلكم وتوانيكم وضعفكم، انتهيتم الى السقوط في أحضان الشيطان، وأخذتم تتذمرون من ارادة اللّه.

سأقول لكم رأيي في كبرياء الشيطان: انه لعسير علينا أن ننفذ الى دلالتها الحقيقية اثناء حياتنا الارضية، ولهذا فإنه من السهل الوقوع في الخطيئة والمشاركة فيها، حتى لو تصوّرنا أننا نقوم بعملٍ رائع وجميل. قد يصعب علينا أحياناً ونحن على الارض أن نفهم المعنى الحقيقي للكثير من حركاتنا وعواطفنا القوية. لا تستسلموا للاغراء ولا تظنوا أن الجهل يمكن أن يكون لكم مسوغاً. على أن «القاضي الاعلى» سيحاسبكم عمّا كان في وسعكم أن تعرفوه، لا عمّا يفوق

عقولكم. ستدركون هذا في حينه، وستعرفون الاشياء كلّها بصورة حقيقية وستكفون عندئذ عن المناقشة. لقد كُتب علينا أن نضرب في الارض، وما لم تكن صورة المسيح الغالية نصب اعيننا، فستهلك بسبب اخطائنا كما هلك النوع الانساني قبل الطوفان. هناك اشياءٌ كثيرةٌ تبقى خافيةً عنّا في هذا العالم، ولكننا نملك مقابل ذلك شوقاً خفيًّا غريباً لمعرفة الرابطة التي تربطنا بالعالم الآخر، بعالم أعلى وأفضل، والجذور العميقة لعواطفنا وافكارنا إنّما تمتد في السماء لا في الارض. لذلك يقول الفلاسفة أن ماهيّة الاشياء لا يمكن ادراكها في هذه الحياة الدنيا.

لقد اخذ الرب بذوراً من عالم الغيب فنثرها على الارض ليزرع حديقته، فنبت كل ما كان يمكن له أن ينبت، ولكن الموجودات التي نبتت على هذه الأرض لا تحيا ولا تبقى حيّة إلاّ بوعي الصلة التي تربطها بالعالم الآخر السري. حتى إذا ضعف هذا الوعي او زال، مات عندئذ ما يكون قد طلع منها. وستصبح عندها لا تكترث بالحياة، وقد تكبر حتى تكره الحياة. ذلكم هو رأيي على الاقل.

هل يجوز للمرء أن يحكم على اقرانه؟

الايمان القوي الذي لا يتزعزع

تذكّر خاصة أنه ليس من حقك أن تحكم على قرينك كائناً من كان. ما من احد يستطيع أن يجعل نفسه قاضياً على مجرم قبل أن يدرك أنّه، لا يقل اجراماً عن الجاني الماثل أمامه، وأنه ربما كان هو المسؤول الاوّل عن الخطأ الذي ارتكبه هذا الرجل. حتى إذا أدرك ذلك استطاع أن يحكم. قد يبدو هذا الرأي باطلاً، ومع ذلك فهذه هي الحقيقة. فلو استطعت أن أكون عادلاً على الدوام، لكان من الجائز أن لا يرتكب هذا الرجل جريمته، فإذا امكنك أن تلقي على عاتقك جناية الجاني الماثل أمامك، وأن تجعل حكمك في قلبك، فأفعل ذلك بغير تردد وأقبل أن تتألّم نيابة عنه. أمّا الجاني فدعه ينصرف دون أن توجّه اليه لوماً. ولو نصبك القانون قاضياً له، فتصرّف بنفس الروح، لأن المذنب سينصرف بعد ذلك ليدين نفسه إدانة

أشدّ من ادانتك إيّاه. واذا ظهر لك أنه لم يشعر رفقك به، واذا رد على حبّك بالسخرية، فلا تدع لموقفه هذا أن يغضبك: فإنما يدل هذا الموقف على أن ساعته لم تأت بعد، وإنها ستحين في المستقبل. وهبها لن تحين ابداً، فلا تهتم كثيراً بذلك، لأن شخصاً آخر سيعترف يوماً بذنبه وسيتألم منه، وسيدركه، وسيدين نفسه بنفسه، فإذا بالحقيقة تتأكّد رغم كل شيء. صدّق ما أقوله لك، صدّقه تصديقاً جازماً قاطعاً، لأن هذا هو الاساس الحق الذي يقوم عليه الامل وايمان القديسين.

لا تقف عن العمل ولا تدع لهمتك أن تفتر. فاذا تذكرت، بعد أن رقدت في سريرك لتنام، أنك أغفلت القيام بواجب من الواجبات، فانهض فوراً لتدارك هذا النسيان. واذا رأيت نفسك محاطاً بأناسٍ اشرار لا يحسُّون، ويرفضون أن يسمعوا لك، فارتم على اقدامهم واستغفرهم، لأنك انت الذي تحمل ذنب عنادهم في الحقيقة. إذا شعرت بأنك عاجزٌ عن أن تُخاطب الاشرار بالحسنى، فاخدمهم صامتاً متواضعاً دون أن تشعر بيأس. واذا هجرك جميع الناس وطردوك بالقوة، فاسجد على الارض حين تصبح وحيداً واغمرها بقبلاتك. اسقِ الارض بدموعك، فتحمل هذه الدموع ثماراً، ولو لم يرك او يسمعك في عزلتك احد. حافظ على ايمانك حتى النهاية، ولو كان عليك أن تبقى الانسان الوحيد الذي يحافظ عليه. اذا تنكّر سائر الناس لعقيدتهم، ثابر أنت على المضي في طريق التضحية واستمر في تمجيد اللّه يا آخر مؤمن، فقد يلقاك مؤمن آخر، فتصبحا اثنين، وهذا كافٍ لعودة الكون حياً بالحب، سوف تتعانقان عندئذ بحرارةٍ وتسبّحان بحمد اللّه، فاذا حقيقة اللّه تتأكد بكما.

اذا اتفق أن ارتكبت اثما، وأخذ الندم يعذّبك ويرهقك ارهاقاً شديداً، فإنّه يبهجك أن تتذكر أن هناك انساناً صالحاً لم يرتكب اثماً، وقل لنفسك مغتبطاً سعيداً: لئن وقعت انا في الشر، إن ثمّة انساناً غيري قد ظل طاهراً لم يتلوث.

واذا ملأك خبث البشر استياءً والماً حتى صرت تتمنى الانتقام من المجرمين، أبعد نفسك عن هذه العاطفة بكل قوّتك، وابحث لنفسك عن آلام مباشرة كأنك

مسؤول عن جرائم هؤلاء الناس. إقبل هذه الآلام وتحمّلها. فذلك يهدئ قلبك ويطمئن نفسك. سوف تدرك أنك آثم فعلاً، لأنك كنت تستطيع أن تهدّئ هؤلاء الناس بالقدوة، ولو كان عليك أن تبقى الانسان الوحيد الذي يعيش بلا خطيئة، ثم لم تفعل... فلو أنك اتّبعت طريق النور هذا في حياتك، لاستطاع الآخرون أن يروا طريقهم بنور طهارتك، ولأمكن الانسان الذي تتهمه اليوم بالجريمة أن يبقى شريفاً طاهراً. قد يحدث مع ذلك أن تكون انت قدوة حسنة ثم يرفض الآخرون الخلاص الذي يأتيهم من نورك، فلا يتزعزعن ايمانك حينذاك، ولا يراودنك شك في قوّة النور السماوي. إعلم أن البشر سينقذون غداً إن لم يمكن انقاذهم اليوم. وإذا لم يجر انقاذهم اثناء حياتهم، فسينقذ ابناؤهم من بعدهم، لأن نورك لن يزول وسيبقى بعد مبارحتك هذا العالم. قد يزول الرجل الصالح، ولكن نوره باقٍ لا يزول. ثم إن الناس لا يقبلون الخلاص إلاّ بعد موت ذلك الذي اراد أن يخلّصهم. إن البشر لا يعترفون بأنبيائهم بل يقتلونهم، ولكن البشر في مقابل ذلك يحبُّون شهداءهم ويقدّسون اولئك الذين استشهدوا بأيديهم. انت تعمل من اجل الانسانية ومن اجل المستقبل. لا تنتظر ثواباً على الخير الذي تقوم به، لأن نصيبك في هذا العالم كبير، وسوف تعرف نفسك الفرح الحق الذي لا يوهب الاّ للصالحين. لا تخش العظماء والاقوياء، وكن عاقلاً حكيماً هادئاً. التزم القصد والاعتدال. عليك بالصلاة عندما تكون وحيداً. تعلّم كي تحب الارتماء على الارض وتقبيلها، قبّل الارض بغير كلال. واحبب الناس جميعاً وأحبب كل شيء. إجعل الحب والوجد يملآن قلبك. إسقِ الارض بدموع فرحك، وأحبب هذه الدموع. لا يخجلنّك هذا الوجد، إنه نعمةٌ قيّمة، لأن الله مصدره، فهو هبة كبرى لا توهب في هذه الحياة الدنيا إلاّ للمصطفين.

حديث عن الجحيم والنار والابدية، تأمّل صوفي

يا آبائي ومعلميّ، إني أتساءل: «ما هو الجحيم؟» وإني اعتقد أن الجحيم هو «عذابُ الانسان الذي لا يستطيع أن يحب». في هذا الوجود اللانهائي، غير

المحدود في المكان والزمان، تتاح للكائن الروحي الذي يظهر على الارض، لحظةً وحيدةً يمكنه فيها أن يقول: «أنا موجود وأنا أحب». لقد اعطيت لهذا الكائن الحي مرةً واحدةً فقط القدرة على أن يختار طريق الحب الفعّال الحي، وقد وهبت له الحياة لهذه الغاية مع ما تشتمل عليه الحياة من زمان وفصول. ورفض هذا الكائن هذه النعمة القيّمة التي أغدقت عليه، ولم يقدّرها حق قدرها، ولم يتمتع بها، بل استخف بها وآثر أن تخلو نفسه من الحس. إن مثل هذا الكائن يرى ابراهيم بعد أن يبارح الارض، ويتحدّث مع رب العائلة، كما ورد في قصة اليعازر والفتى الشرير. إنه يرى الجنة ويعلم أنه سيمثل أمام الرب، واذا كان يعذّبه شيء فإنما يعذّبه أنه سيمثل أمام الخالق دون أن يكون قد أحبّ، وأنه سيسير الى جانب مخلوقات محبة احتقر هو حبّها. ذلك أنه يرى ويدرك الآن، فيقول لنفسه: «انا الآن أعلم، ورغم أنني اليوم ظامئ الى الحب، فلن يكون لحبّي قيمة ولن تكون فيه تضحية، لأن حياتي الارضية قد انتهت، ولن يأتي ابراهيم فيهدئ بقطرة من ماء الحياة (أي باعطائي حياة ارضية جديدة فعّالة شبيهة بالسابقة) ظمئي الى الحب الروحي الذي يحرق الآن نفسي بعد أن ازدريته على الارض، ولن تكون لي حياة بعد اليوم ولن يكون لي وقت! إنني اتمنّى الآن أن اضحّي بوجودي في سبيل غيري، ولكن الأوان قد فات، لأن الحياة التي كان يمكن أن اضحّي بها قد انقضت الى غير رجعة، والهوّة تفصل بيني وبينها الى الابد».

كثيراً ما يتكلّم الناس عن نار الجحيم وهم يفهمونها بالمعنى المادي. إنني لا أريد أن أبحث هذا السر الذي يملأ نفسي رعباً وهولاً، ولكنني أتصوّر أن هذه النيران لو كانت محسوسة ماديّة لابتهج بها المعذبون، لأن الألم الجسمي يتيح لهم، ولو لحظة قصيرة، نسيان العذاب الروحي الرهيب. الخلاص من عذاب النفس مستحيل، لأنه عذاب داخلي لا خارجي، لا يتأثر بالآخرين. وهبنا استطعنا أن نزيل عنهم هذا العذاب، فإن شقاءهم سيزداد من ذلك فيما يخيّل اليّ. هب العادلين في السماء غفروا لهم حين رأوا الآمهم، وناداهم بحب لا نهاية له، فإنهم

يضاعفون آلامهم بذلك، ويوقظون فيهم مزيداً من الظمأ الحار الى الحب المتبادل والعرفان والنبل، وفي وقت أصبحوا فيه عاجزين عن ذلك الى الابد. إنني اتصوَّر، بقلب خاشع، أن شعورهم بهذا العجز سيخفف عنهم قليلاً، واليكم كيف يكون ذلك: إنهم حين يقبلون حب الصالحين دون أن يكونوا قادرين على أن يردُّوه بمثله، سيجدون بهذا التفاوت بينهم، بأنهم دونهم، ويجدون في ذلك صورة للحب الفعّال الذي ازدروه على الارض. يؤسفني، يا آبائي ومعلمي، أنني لا استطيع التعبير عمَّا بنفسي بمزيد من الوضوح. ولكن ويلٌ للذين أنهوا حياتهم على هذه الارض بأنفسهم، ويلٌ للمنتحرين! إحسب أنه ليس هناك من يفوق هؤلاء شقاء! يقال أنه إثمٌ أن ندعو اللّه لمن قتل نفسه بارادته، وواضح أن الكنيسة تطرد من حضنها ذلك الذي قتل نفسه بارادته. ولكنني أشعر مع ذلك، في سريرة نفسي، أن الدعاء للمنتحرين جائز، لأن المسيح لن يستاء ابداً من الحب. لقد دعوت طوال حياتي للمنتحرين، اعترف لكم بهذا الآن يا آبائي ومعلّمي، وما زلت أدعو لهم كل يوم.

ويوجد هناك عدد من المعذَّبين في الجحيم اصرُّوا على صلفهم وضراوتهم، وظلُّوا لا يتأثَّرون بالحقيقة رغم أنَّهم أصبحوا يعرفونها ويرونها ساطعةً. يوجد بينهم جماعة رهيبة قد قدَّمت نفسها بصورةٍ كاملة للشيطان وروحه الشريرة. إن مثل هؤلاء يقبلون الجحيم بكامل حريَّتهم ولا يستطيعون أن يشبعوا منه. اختاروا العذاب بانفسهم، ولعنوا انفسهم عندما لعنوا الله والحياة. إنهم يقتاتون الكراهية والكبرياء اقتيات الجائعين في الصحراء. لا يشفى غليلهم، ويرفضون المغفرة الى الابد، لاعنين الرب الذي يناديهم. إنهم لا يستطيعون إلاَّ أن يشعروا بكراهية شديدة حين يتأمَّلون الإلٰه الحي، ويتمنون أن لا يكون موجوداً، ويطلبون له الفناء مع الخليقة كلها. وسيظل هؤلاء يحترقون الى الابد بنيران الكراهية ويشتاقون للموت والعدم الذي لن يعطى لهم.

مقتطفات من الطبعة الالمانية

بقلم المحررٌ كارل نوتزل

كان دوستويفسكي مثل تولستوي، من ابناء الكنيسة المتدينين عندما كان طفلاً صغيراً، ولكنه عندما أصبح شاباً اتّجه الى المعتقدات التقدميّة للمثقفين الروس في عصره. واكتسب فيما بعد، بصيرةً عميقة في فظائع البؤس البشري وتساءل عن وجود اللّه نفسه الذي سمح بكل هذا البؤس. وكان دوستويفسكي يناصر المتألّمين والابرياء، ولا يملك من المشاعر ما يكفي لقبول اللّه دون تمرُّد. ويبدو أن الكبرياء الروحية والذات المجروحة قد منعتاه من ذلك.

وفقد كل هذا أهميته بالنسبة له أمام الفِرق التي كانت تقوم بالاعدام رمياً بالرصاص، خاصّة اثناء وجوده في السجن ثم في المنفى في سيبيريا حوالي العشر السنوات.

وفي اعماله الفنيّة الاخيرة العظيمة يُظهر دوستويفسكي طريق الشفاء للارواح المعذّبة بدون الانتقام. ويصبح لدى مثل هؤلاء الاشخاص مناعةً ضد ارتكاب الشر، مما يثير الدهشة الكبيرة لدى الجميع، ويظهر ذلك بأوضح صورة، في شخصية الامير مايشكن في رواية «الأبله».

وتجتاز شخصيات دوستويفسكي مرحلة الانتقام، وتصبح قادرة على رؤية كل الحقيقة التي تتمثل بعلاقة مع اللّه، لا تُفقد ابداً.

يتحوّل البحث عن معنى الحياة في كتابات دوستويفسكي الى قضية الايمان بالله وليس قضية وجود الله، لأن معرفة الله ببساطة لا يمكن الهروب منها. ويعني الايمان بالله في الحقيقة الاعتراف به، لأنه اذا هو الله، الاصل الروحي لكل شيء كائن، فإن هناك هوّة مطلقة بين الله والانسان. وهذا هو معنى «اسطورة المحقّق العظيم»، التي هي دون شك، بيان دوستويفسكي بإيمانه الديني العميق.

إن المحتوى والمضمون الحقيقي لأعمال دوستويفسكي العظيمة هو صراع الانسان في البحث عن الله أمام التجارب التي يمكن أن يتصوّرها العقل لإنكار الله. وتُظهر الطريق للوصول الى الله من خلال المسيح الإنسان وحده. ويتحدث الله الينا من خلال المسيح.

الخطوط الرئيسة لسيرته الذاتية

١١ ـ١١ـ١٨٢١	ولد في موسكو، وهو ابن رئيس الاطباء في مستشفى خيري.
١٨٣٨	دخل كليّة الهندسة العسكرية في سانت بطرسبرغ في لينتغراد، ولم يكن يرغب في مثل هذا التدريب، قرأ الكثير من الادب.
حزيران ١٨٣٩	اغتيل أبوه على يد عبيده بعد أن أساء معاملتهم بطريقة وحشية.
تشرين الاول ١٨٤٤	تخلّى عن الخدمة في الجيش وانهى كتابة أوّل رواية «الناس الفقراء» في نيسان، ١٨٤٥ وقد جلب مديح الناقد بيلينسكي له النجاح السريع
١٨٤٩	سُجن ٤ سنوات في سيبيريا لمشاركته بجماعة ثورية.
١٨٥٠	تطوّر مرض الصرع لديه في الخمسينات.
١٨٥٤ـ١٨٥٨	مكث في سيبيريا وكتب «حلم عم» و«صديق العائلة» اثناء وجوده هناك .
٦ شباط ١٨٥٧	فشل اوّل زواج له.
١٨٥٩	رجع الى سانت بطرسبورغ ونشر دورية شهريه اسمها «الزمن».
١٨٦٦	وضع رواية «الجريمة والعقاب» وأصبح في الصف الاول للكتّاب الروس.
١٥ شباط ١٨٦٧	بعد مرور ثلاث سنوات على وفاة زوجته الاولى، تزوّج بكاتبة

اختزال شابة، اثبتت أنها مديرة ناجحة لأموره المالية. ومات اثنان من بين اولادهما الاربعة في سنٍ مبكرةٍ جداً.

١٨٦٨ـ١٨٦٩ كتب دوستويفسكي رواية «الأبله» التي لم يلحظها النقاد الروس وهي واحدة من أكثر رواياته تميُّزاً وقوةً ونُشرت في فترة هيجان ثوري، وموضوعها العالمي: رجل طيِّب في المجتمع الإنساني، لا تربطه بالعصر الذي يعيش فيه علاقة قوية.

١٨٧٤ـ١٨٧٥ كان استقبال النقّاد لروايته «المراهق» غير ودّي.

١٨٧٩ـ١٨٨٠ ظهرت عبقريته في آخر رواياته واشهرها «الاخوة كارامازوف». ازداد النشاط الثوري في روسيا في السبعينات، السنوات الاخيرة من حياة دوستويفسكي بمحاولات اغتيال القيصر والمسؤولين الكبار في الدولة. أصبح محافظاً وحرّر جريدةً اسبوعية محافظة. وشعر بأن روسيا والكنيسة الارثوذكسية ستنقذان اوروبا والعالم من الشر الى الخير.

٩ شباط ١٨٨١ مات في مدينة بطرسبرغ.

حول بيت جماعة الاخوة

المبادئ الاساسية: رغم كل مظاهر القلق في مجتمعنا، لا بد أن نشهد للحقيقة التي تقول بأن روح اللّه موجودة بصورة فاعلة في عالم اليوم. لا يزال اللّه يدعو الرجال والنساء الى عدله بعيداً عن الانظمة الظالمة، والطرق القديمة التي تقوم على العنف والخوف والعزلة الى طرق جديدة تعتمد السلام والمحبة والاخوة. وبإيجاز فإن اللّه يدعونا الى أن نعيش حياة جماعة.

إن الأساس الذي تقوم عليه حياتنا الجماعية هي عظة السيّد المسيح على الجبل، وتعاليمه الأخرى في العهد الجديد، خصوصاً تلك المتعلّقة بالمحبّة الاخوية ومحبّة الاعداء والخدمة المتبادلة، واللاّعنف، ورفض حمل السلاح، والطهارة الجنسية، والإخلاص في الزواج. وعوضاً عن امتلاك رؤوس الاموال والممتلكات بشكل شخصي، نشترك كجماعة في كل شيء، بالطريقة التي عمل بها المسيحيون الأوائل كما هو مدوّن في سفر الاعمال. ويقدّم كل عضو مواهبه ووقته وجهده في المجال الذي يستطيع العمل فيه. وتُجمع الاموال والممتلكات بصورة تطوُّعية، ويتم مقابل ذلك الاعتناء والاهتمام بكل فرد من أفراد الجماعة. يتناول الجميع الطعام معاً، ويشترك الجميع في الانشاد والصلاة واتخاذ القرارات معاً خلال الاجتماعات المسائية التي تُعقد عدّة مرات خلال كل الاسبوع.

الحياة العائلية: إن العائلة هي الوحدة الاساسية للجماعة، رغم أن عدداً من الاعضاء هم من البالغين وغير المتزوجين. فالأطفال جزء مركزي في حياتنا المشتركة. ويتحمّل الوالدان المسؤولية عن تربية اطفالهم، ويساعدهم المعلّمون

والاعضاء البالغون بالتشجيع والتوجيه كلّما كان ذلك ضروريًا. وتساعد هذه الطريقة حل المشاكل وتحمّل الاعباء والمشاركة في الافراح.

ريتم الاهتمام بالاطفال الرضّع والصغار خلال ساعات العمل اليومية في بيوت الاطفال، ويتم التعليم في مدارسنا الابتدائية والمتوسطة (من الروضة للصف الثامن). ويذهب الشباب الى المدارس الثانوية العامة، وينتقلون منها الى الجامعات والكليات او التدريب الفني المهني. ويجد بعض الشباب عملاً في برامج خدمة التبشير التي يكتسبون فيها معرفةً وخبرةً كبيرتين.

ان الاعضاء المعاقين والمرضى والطاعنين في السن هم جزء هام جداً في جماعتنا، وذلك من خلال مساهمتهم في العمل الجماعي (حتى لبضع ساعات فقط يومياً) أو من خلال بقائهم في البيت، حيث يزورهم غالباً الاطفال، فهم يثرون حياتنا بطريقة جميلة.

العمل: إن حياتنا مرحة ومليئة بالفرح والاغاني والتسلية مثل امتلائها بالعمل . نحن نكسب العيش من خلال صناعة الالعاب التي نقوم بتسويقها في المجتمع (مثل تجميع أدوات لعب وأثاث للأطفال) إضافة إلى صناعة معدّات Rifton رفتون الخاصة بالمعاقين. ومن المشاريع الأخرى توجد مؤسّسة لتقديم خدمات السفر الجوّي ومؤسسة لتربية الكلاب. وبالنسبة لنا فإن العمل هو أكثر بكثير من مغامرة تجارية، إنه التعبير العملي لمحبتنا لبعضنا البعض ابتداة من غسل الملابس والصحون الى تجميع المنتجات في مشاغلنا.

الجذور: تعود جذور جماعة الاخوة الى زمن الاصلاح الراديكالي في أوائل القرن السادس عشر في اوروبا، عندما ترك الآلاف من الذين يُطلق عليهم «مجددو العماد في الكنيسة الرسمية» ليبحثوا عن حياة البساطة والاخوّة واللاّعنف. واستقر فرع من هذه الحركة المعارضة والتي تُدعى بالهتريت Hutterites نسبة الى زعيمهم جاكوب هتر، في قرى جماعية (مكان الاخوة) في

مورافيا. وجلبت لهم مهاراتهم الحرفية الممتازة ومهاراتهم الطبّية المتقدمة ومشاريعهم الزراعية الناجحة ومدارسهم التقدمية شهرة واسعة النطاق.

التاريخ المعاصر: قام المُحاضر والكاتب المشهور ابرهارد ارنولد في عام ١٩٢٠ بترك وظيفته الرسمية في برلين وذهب مع زوجته واطفاله الى سانيرز Sannerz وهي قرية المانية صغيرة، ليؤسس جماعة صغيرة تقوم على المبادئ التي قامت عليها الكنيسة الأولى. ورغم ان عائلة ارنولد لم تتأثر مباشرة بالهتيريت الأوائل في تأسيس مستوطنتهم الجديدة، إلاّ أنهم وجدوا أن جماعة الاخوة الهيتيريت كانت لا تزال موجودة (وهي الآن في اميركا الشمالية)، فأقاموا علاقةً دائمةً معها ما زالت مستمرة حتى هذا اليوم .

ولقد نجحت الجماعة في البقاء رغم اضطهاد النازيين لهم واضطرابات الحرب العالمية الثانية. وفي خضم الصعوبات المتزايدة في المانيا (والطرد عام ١٩٣٧) تم تأسيس جماعة اخوة جديدة في انجلترا في اواخر الثلاثينات من هذا القرن. ومع نشوب الحرب العالمية الثانية كان من الضروري حدوث هجرة ثانية. وكانت هذه المرة الى بارغواي وهي البلد الوحيد التي قبلت جماعتنا المتعددة القوميات. وبدأت في الخمسينيات من هذا القرن فروع جماعة الاخوة في الولايات المتحدة واوروبا. وفي عام ١٩٦٠-١٩٦١ أُغلقت جماعات اميركا الجنوبية واعيد توطين الاعضاء في اوروبا والولايات المتحدة.

اليوم: يوجد اليوم ثلاثة مراكز لجماعة الاخوة في نيويورك، ومركز في كونكتيكت، ومركزان في بنسلفانيا، واثنان في جنوب شرقي انجلترا. ونحن قليلون عدداً إلاّ أننا نعتقد بأن مهمتنا ذات أهميّة كبيرة جداً، وهي أن نتبع تعاليم السيد المسيح في مجتمع أصبح يسير مخالفاً لتعاليمه، وأن نبني مجتمعاً جديداً يقوم على روح المحبه التي ينادي بها. وتعمل حركتنا جاهدة في التقدُّم الى الامام في وجه تيار المجتمع المعاصر، وأمام الصعوبات التي تواجهنا نتيجة

للضعف الانساني ـ ولقد حافظ اللّه علينا متماسكين معاً خلال اوقات الاضطهاد الخارجي والصراع الداخلي والهبوط الروحي، وإننا نضع مستقبلنا بين يديه.

الامتداد: إننا نقوم على المستوى المحلّي بمشاريع لخدمة المجتمع بصورة تطوُّعية ونقوم بالخدمات الدينية في داخل السجون، وتمكَّنا في السنوات الاخيرة من إقامة العلاقات والصلات مع العديد من المجموعات الاخرى في أماكن عديدة حول العالم. كان التبشير دائماً هو الهدف الاساس لنشاطنا، ولكن ليس بمعنى تحويل الناس عن دينهم أو تجنيد اعضاء جدد. وتحتل الاتصالات التي نجريها مع الآخرين خارج جماعاتنا، مع كل الرجال والنساء الذين يكافحون من أجل الاخوَّة، بغض النظر عن معتقداتهم ـ اهميَّة كبيرة بالنسبة لنا. وإننا بطبيعة الحال نرحِّب بكل شخص يبحث عن الشيء الجديد في حياته. ويمكن الإنضمام إلينا ومشاركتنا بالنشاطات المختلفة في عطلة نهاية الاسبوع.

الرؤيا: على الرغم من أن أفراد جماعتنا يأتون من ثقافات وبلدان مختلفة، إلا أننا جميعاً نعيش كاخوةٍ وأخوات. واننا ندرك جوانب النقص الموجودة لدينا كأفراد وكجماعات، ونعتقد بامكانية العيش عن طريق القيام بالعمل الصالح واتِّباع الطريق الواضحة التي رسمها السيِّد المسيح لتحقيق المحبَّة والحرِّية والحق ليس فقط أيام الآحاد وإنما بصورةٍ يومية. وإننا نؤكِّد مع ابرهارد ارنولد على ما يلي:

«يجب أن نفتح هذا الكوكب، هذه الارض، لمملكةٍ جديدةٍ ونظام اجتماعيٍّ جديد، ووحدةٍ جديدة وفرح جديد. يأتي الفرح الينا من عند اللّه الذي هو إله المحبة، وروح السلام والوحدة والجماعة. وهذه هي الرسالة التي يأتي بها المسيح، ويجب أن يكون لدينا الايمان الثابت بأن رسالته ما زالت سارية المفعول حتى اليوم.»

دار بلاو (المحراث) للنشر

إن دار النشر الخاصة بنا والتي يمتلكها ويديرها أعضاء جماعة الاخوة، تبيع كتباً حول التلمذة المسيحية الجوهرية، والجماعة، والزواج، وتربية الاطفال، والعدالة الاجتماعية والحياة الروحية. ونقوم بنشر دورية صغيرة تسمّى «المحراث» The Plaugh وهي تحتوي على مقالات حول القضايا الراهنة التي تميل وسائل الاعلام الرئيسة الى تجاهلها، وتأملات حول التحوُّلات الاجتماعية والفردية. نوفّر نسخاً مجانية او اشتراكاً مجانياً عند الطلب، رغم أننا نرحب بالتبرعات لتغطية النفقات.

المعلومات: لمزيد من المعلومات او من اجل ترتيب زيارة لنا، الرجاء الاتصال او الكتابة الينا على العناوين التالية: ويمكن أن نزوّدك بعنوان وهاتف جماعة الأخوة الاقرب اليك:

The Plough Publishing House
Spring Valley Bruderhof
Route 381 North
Farmington PA 15437-9506 USA
Toll free: 1-800-521-8011, Tel: 412-329-1100

The Plough Publishing House
Darvell Buderhof
Robertsbridge, E. Sussex.
TN32 5DR United Kingdom
Toll free: 0800-269-048, Tel. + 44(0)1580-881-003
URL: www.bruderhof.org

عناوين كتب اخرى من دار نشر المحراث

التماس الطهارة: الجنس والزواج واللّه تأليف جوهان كريستوف ارنولد. أفكار عن العلاقات، والجنس، والزواج، والطلاق، والاجهاض، والجنس المثالي وقضايا أخرى ذات علاقة ومن وجهة نظر انجيلية.

سيقودهم طفل صغير: تأليف جوهان كريستوف أرنولد.

الطريقة المناسبة لتربية الاطفال بناء على روح الانجيل «أن تصير طفلاً». وبناة على ذلك يجب تربية الاطفال باحترام طفولتهم.

أخبركم سراً: تأليف جوهان كريستوف ارنولد. اعتماداً على قصص الناس الذين عرفهم وارشدهم كراعي طائفة، وقريب وصديق. يرى ارنولد كيف يمكن اعطاء معنى للألم وكيفية التغلُّب على اليأس. إنه يؤكد على وجود شيء إسمه الأمل حتى هذا اليوم في حضارة الانعزال والموت التي نعيشها.

ثورة الله: تأليف ابرهارد أرنولد. مقتطفات مصنَّفة حسب المواضيع من أحاديث المؤلِّف وكتاباته حول قضايا الكنيسة، والجماعة، والزواج والعائلة، والحكم ومعاناة العالم.

التلمذة: تأليف ج هاينريخ أرنولد. مجموعة من الافكار حول السير وراء خطى المسيح في مجال العمل اليومي، وهي مصنَّفة حسب الموضوعات، وتشمل اقساماً حول المحبَّة والتواضع والغفران، والقيادة المواهب والجنس والزواج، والابوَّة والمرض والمعاناة والتبشير والخلاص وملكوت اللّه.

المسيحيون الاوائل: تأليف ابرهارد أرنولد. رسائل واقوال رجال الكنيسة الأولى، وتشمل مواد من مصادر معاصرة متنوعة.

معنى وقوة الصلاة: تأليف ابرهارد أرنولد. أفكار حول أهميّة الصلاة ليس «كوسيلة للورع» وإنما نقطة انطلاق الى الحياة اليومية.

التحرر من الافكار الاثيمة: تأليف ج هاينريخ أرنولد. نصائح مبنية على الانجيل للرجال والنساء الذين يرغبون في التغلب على التخيلات والتجارب غير المرغوب فيها.

الحاجة الفردية والعالمية: تأليف ابرهارد أرنولد.مقال ثوري يستكشف علاقة الفرد بالألم والخطيئة على مستوى عالمي.

لماذا نعيش في جماعة؟ تأليف ابرهارد أرنولد. حديثان مع تفسير لهما لتوماس مرتون، وأفكار ملهمة حول أساس ومعنى وهدف الجماعة.

الحب والزواج في الروح: تأليف ابرهارد أرنولد. أحاديث ومقالات حول أهميّة الايمان كأساس للعلاقات المسيحية الاساسية الدائمة.

الارض الداخلية: تأليف ابرهارد أرنولد. مقالات حول «مجالات العالم غير المرئية» حيث يجد الرجال والنساء القوّة والشجاعة لاتباع دعوة اللّه في عالم اليوم.

المحتويات

كلمة من جي أي باركر ٥

تقديم ٧

مقدمة ١١-٢٢

الايمان بالله ومغامرة الانسان ٢٣

قصة المفتش الكبير ٢٥

من رواية «الاخوة كارامازوف»

ثورة الانسان ضد الله ٤٣

التمرد ٤٥

الشيطان ٦١

من رواية «الاخوة كارامازوف»

فشل المسيحية ٨٩

من رواية «الأبله»

في الطريق نحو الله ٩٥

قصة ماريا ٩٧

من اتباع المسيح ١١٠

من رواية «الأبله»

إقامة اليعازر ١٢٦

من رواية «الجريمة والعقاب».

نشيد الرجال تحت الارض ١٤٩

من رواية «الاخوة كارامازوف»

يظل دوستويفسكي الرائد الأكبر للرواية الإنسانية، فرواياته العديدة هي بحق، معين لا ينضب للعبقرية والإلهام، بما خلّد الشعب الروسي، ومن خلالها أبحر في أعماق النفس الإنسانية قاطبة. لقد اجتمعت في كلماته وقصصه ورواياته قيم جمالية وأدبية قلّما أن اجتمعت عند غيره من الكتّاب: الرهافة المطلقة، والشاعرية العالية، والتجريد والتحليل العميقان، والتفاصيل الدقيقة جداً، والواقعية الفذة. إنه ساحر كبير في مجال السرد الحكائي لا يضاهى. وهو الخبير الأول، روائياً، بالنفس الإنسانية وترددها المزمن بين السمو والسقوط والفضيلة والرذيلة والإيمان والإلحاد. لقد حدّق ملياً في شرط الوجود البشري وصاغ آياتٍ رائعةً عن الإنسان في كل زمان ومكان.

إنه الروائي الذي سار على طريق الأنبياء، محتاراً ومهموماً، يرافقه الشياطين والمجرمون، ودوّن لنا تفاصيل المسيرة، حتى تبقى منارة عالية ومشعّة للتائهين والحيارى في ذلك الزمان وفي هذا الزمان وفي كل زمان ومكان.

حسن بن عثمان

رئيس تحرير المجلة الثقافية